مذكرات فاني هيل

بقلم جون كليلاند

طبعة جديدة وأصلية من النص الأصلي (لندن، ١٧٤٩).

باريس - إيزيدور ليسو

يوجد من هذه الطبعة، المطبوعة بشكل خاص،
350نسخة مرقمة، وهذه النسخة تحمل الرقم ١١١.

محتويات

الرسالة الأولى

الرسالة الثانية

الرسالة الأولى

سيدتي،

أجلس لأقدم لكم دليلاً قاطعاً على أنني أعتبر رغباتكم أوامر لا غنى عنها. مع أن هذه المهمة قد تبدو غير لائقة، إلا أنني سأستذكر تلك المراحل الفاضحة من حياتي، التي خرجت منها أخيراً لأتمتع بكل نعمة في يد الحب والصحة والرزق؛ بينما كنت لا أزال في ريعان شبابي، ولم يفت الأوان بعد لأستغل وقت الفراغ الذي أتاحته لي الراحة والرخاء، لأنمي فهماً، ليس بالضرورة فهماً دنيئاً، والذي، حتى في خضم دوامة الملذات العابرة التي كنت أغرق فيها، مارس ملاحظة أعمق على شخصيات العالم وعاداته مما هو شائع لدى أصحاب مهنتي التعيسة، الذين ينظرون إلى كل فكر أو تأمل على أنه عدوهم اللدود، فيبقونه بعيداً عنهم قدر الإمكان، أو يدمرونه بلا رحمة.

وبما أنني أكره، كما أكره بشدة، كل المقدمات الطويلة غير الضرورية، فسأعذركم في هذا الأمر، ولن أستخدم أي اعتذار آخر سوى تهيئتكم لرؤية الجزء غير المنظم من حياتي، المكتوب بنفس الحرية التي عشتها بها.

الحقيقة! الحقيقة الصارخة، العارية، هي الكلمة المناسبة؛ ولن أكلف نفسي عناء سترها، بل سأرسم المواقف كما هي في الواقع، غير آبهٍ بانتهاك قواعد اللياقة التي لم تُخلق لمثل هذه العلاقات الحميمة الصريحة؛ وأنتم تملكون من الفطنة والمعرفة ما يكفي عن الأصل لكي تنظروا إلى صورهم بنظرة استعلاء وازدراء. أعظم الرجال، أصحاب الذوق الرفيع، لا يترددون في تزيين غرفهم الخاصة بصور العُري، مع أنهم، امتثالاً للأحكام المسبقة المبتذلة، قد لا يرونها زينة لائقة للدرج أو الصالون.

بعد هذا، وبكل تأكيد، سأنتقل إلى سرد تاريخي الشخصي. كان اسم عائلتي قبل الزواج فرانسيس هيل. ولدت في قرية صغيرة بالقرب من ليفربول، في لانكشاير، لأبوين فقيرين للغاية، وأعتقد جازماً أنهما كانا يتمتعان بأمانة بالغة.

كان والدي، الذي أصيب بعجز في أطرافه منعه من ممارسة الأعمال الشاقة في الريف، يكسب قوته بصعوبة من صناعة الشباك، ولم يزد دخله كثيرًا بفضل مدرسة والدتي النهارية الصغيرة

للفتيات في الحي. أنجبا عدة أطفال، لكن لم يعش أي منهم حتى سن معينة باستثنائي، فقد ورثت من الطبيعة صحة جيدة.

لم يكن تعليمي، حتى بعد الرابعة عشرة، أفضل حالًا من التعليم المبتذل: القراءة، أو بالأحرى التهجئة، بخط رديء غير مقروء، وقليل من الأعمال البسيطة العادية، كانت تشكل نظامه بأكمله؛ وحينها لم يكن أساسي في الفضيلة سوى جهل تام بالرذيلة، والخجل المعتاد لدى النساء في سن مبكرة، عندما تثير الأشياء فزعهن أو تنفرهن بسبب حداثتها أكثر من أي شيء آخر. ولكن، غالبًا ما يُعالج هذا الخوف على حساب البراءة، عندما تبدأ الفتاة، تدريجيًا، في التوقف عن النظر إلى الرجل ككائن مفترس سيفترسها.

لقد قسمت والدتي المسكينة وقتها بالكامل بين طلابها وشؤونها المنزلية الصغيرة، لدرجة أنها لم تخصص إلا القليل لتعليمي، إذ لم يكن لديها، بسبب براءتها من كل شر، أي تلميح أو فكرة لحمايتي من أي شر.

كنتُ حينها على أعتاب عامي الخامس عشر، حين حلّت بي مصيبة عظيمة بفقدان والديّ الحبيبين، اللذين قضيا نحبهما بمرض الجدري، بفارق أيام قليلة؛ فقد مات أبي أولًا، مما عجّل بوفاة أمي، فصرتُ يتيمًا وحيدًا تعيسًا (إذ كان قدوم أبي للاستقرار هناك محض صدفة، فهو في الأصل من كنتشاير). لقد أصابني ذلك المرض القاسي الذي أودى بحياتهما، ولكن بأعراض خفيفة ومُبشّرة، فخرجتُ من دائرة الخطر سريعًا، وما لم أكن أُدرك قيمته آنذاك، لم يُؤخذ بعين الاعتبار. أتجاوز هنا وصف الحزن والأسى الطبيعيين اللذين شعرتُ بهما في تلك المناسبة الكئيبة. ومع مرور الوقت، ودوار تلك السن، تبددت أفكاري عن تلك الخسارة التي لا تُعوّض. لكن لم يساهم شيء في تقبلي للأمر أكثر من الأفكار التي طُرحت في ذهني على الفور، وهي الذهاب إلى لندن، والبحث عن خدمة، حيث وُعدت بكل المساعدة والنصيحة من إستر ديفيس، وهي شابة ذهبت لشرب البيرة لرؤية أصدقائها، والتي عادت إلى منزلها بعد إقامة لبضعة أيام.

وبما أنه لم يبقَ لي أحد على قيد الحياة في القرية ممن يهتمون بما يكفي بمصيري ليثيروا أي اعتراضات على هذه الخطة، ولأن المرأة التي اعتنت بي بعد وفاة والديّ شجعتني على المضي قدماً فيها، فقد توصلت سريعاً إلى قرار بالانطلاق إلى العالم الواسع، بالتوجه إلى لندن، بحثاً عن ثروتي، وهي عبارة، بالمناسبة، أهلكت مغامرين من كلا الجنسين من البلاد أكثر مما صنعت أو روجت له.

ولم تكن إستر ديفيس أقل عزاءً وإلهامًا لي للمغامرة معها، من خلال إثارة فضولي الطفولي بالمناظر الرائعة التي كان من الممكن رؤيتها في لندن: المقابر، والأسود، والملك، والعائلة المالكة، والمسرحيات والأوبرات الرائعة، وباختصار، جميع وسائل الترفيه التي كانت تقع ضمن نطاق حياتها؛ تفاصيل كل ذلك التي شغلت رأسي الصغير تمامًا.

ولا أستطيع أن أتذكر، دون أن أضحك، الإعجاب البريء، الذي لا يخلو من حسد، الذي كنا نشعر به نحن الفتيات المسكينات، اللواتي لم تكن ملابسنا للذهاب إلى الكنيسة تتجاوز الفساتين القصيرة والعباءات المبطنة، والتي استبدلناها بالفضة: كل ذلك كنا نتخيل أنه ينمو في لندن، ودخل إلى حد كبير في تصميمي على محاولة الحصول على نصيبي منهم.

لكن فكرة وجود امرأة من المدينة معها كانت فكرة تافهة، وكل الدوافع التي دفعت إستر إلى تولي أمري خلال رحلتي إلى المدينة، حيث أخبرتني، بأسلوبها المعهود، "كيف أن العديد من الفتيات القادمات من الريف قد حققن لأنفسهن ولمن يشبهنهن إلى الأبد: فبحفاظهن على عفتهن، كسبت بعضهن وداً من أسيادهن، فتزوجوهن، وأسكنوهن في بيوت فخمة وسعيدة؛ وربما أصبحت بعضهن دوقات؛ كان الحظ هو كل شيء، فلماذا لا أكون أنا أيضاً؟"؛ مع تقاويم أخرى لهذا الغرض، والتي دفعتني إلى الترقب لبدء هذه الرحلة الواعدة، ومغادرة مكان، على الرغم من كونه مسقط رأسي، إلا أنه لا يضم أي أقارب لدي سبب للندم عليهم، وقد أصبح لا يُطاق بالنسبة لي، من تحول أرقّ معاملة إلى جو بارد من الإحسان، والذي استقبلني به، حتى في منزل الصديقة الوحيدة التي كنت أتوقع منها أقل قدر من الرعاية والحماية. لكنها كانت عادلة معي للغاية، لدرجة أنها استطاعت تحويل الأمور الصغيرة المتبقية لي بعد سداد الديون وتكاليف الدفن إلى نقود، وعند رحيلي، وضعت ثروتي كلها

بين يدي؛ والتي كانت عبارة عن خزانة ملابس رقيقة للغاية، معبأة في صندوق سهل الحمل، وثمانية جنيهات، مع سبعة عشر شلنًا من الفضة، مخبأة في كيس زنبركي، وهو كنز أكبر مما رأيته مجتمعًا في حياتي، ولم أكن أتصور إمكانية نفاده؛ وفي الواقع، كنت منغمسة تمامًا في فرحة رؤية نفسي سيدة لمثل هذا المبلغ الضخم، لدرجة أنني لم أعر اهتمامًا يُذكر لعالم من النصائح الجيدة التي قُدمت لي معه.

بعد أن حجزت إستر ولي أماكن في عربة تشيستر، أتجاوز مشهد الوداع غير المهم، الذي ذرفت فيه بضع دموع بين الحزن والفرح؛ وللأسباب نفسها المتعلقة بعدم الأهمية، أتخطى كل ما حدث لي على الطريق، مثل نظرات سائق العربة إليّ وكأنها في حالة سكر، والمكائد التي دبرها لي بعض الركاب، والتي أحبطتها شجاعة وصيتي إستر؛ التي، من باب الإنصاف، اعتنت بي عناية أمومية، وفي الوقت نفسه حمّلتني مسؤولية حمايتي بجعلي أتحمل جميع نفقات السفر، والتي دفعتها بكل سرور، وشعرت بامتنان كبير لها في هذه الصفقة.

لقد حرصت بالفعل على ألا يتم المبالغة في تقديرنا أو استغلالنا، فضلاً عن إدارة الأمور بأقل قدر ممكن من التكاليف؛ لم يكن الإنفاق المفرط نقطة ضعفها.

كان الوقت متأخرًا نوعًا ما في إحدى أمسيات الصيف عندما وصلنا إلى المدينة، في عربتنا البطيئة، رغم أنها كانت تجرها ست عربات. وبينما كنا نعبر الشوارع الرئيسية المؤدية إلى نُزلنا، أسعدني وأدهشني في آنٍ واحد ضجيج العربات، والزحام، وحشود المشاة، وباختصار، المشهد الجديد للمتاجر والمنازل.

لكن تخيلوا مدى خجلي ودهشتي عندما وصلنا إلى النزل، وتم إنزال أمتعتنا وتسليمها إلينا، عندما اتخذت رفيقتي في السفر وحاميتي، إستر ديفيس، التي عاملتني بأقصى درجات الرقة خلال الرحلة، والتي لم تهيئني بأي علامات مسبقة للصدمة المذهلة التي كنت سأتلقاها، عندما أقول، كانت هي مصدر رزقي الوحيد وصديقتي في هذا المكان الغريب، فجأةً موقفاً غريباً وبارداً تجاهي، كما لو كانت تخشى أن أصبح عبئاً عليها.

بدلاً من ذلك، بدلاً من أن تقدم لي استمرار مساعدتها ومساعيها الحسنة، التي كنت أعتمد عليها ولم أعد أحتاجها، اعتقدت، على ما يبدو، أنها قد أوفت بالتزاماتها تجاهي بشكل كامل، من خلال إيصالي سالماً إلى نهاية رحلتي، ولم ترَ في تصرفها تجاهي سوى ما هو طبيعي ومنظم، فبدأت في معانقتي عند مغادرتي، بينما كنت في حالة من الذهول والصدمة لدرجة أنني لم أكن أملك من الروح أو الوعي ما يكفي لأذكر آمالي أو توقعاتي من خبرتها ومعرفتها بالمكان الذي أحضرتني إليه.

بينما كنتُ واقفًا صامتًا عاجزًا عن الكلام، وهو ما عزَته بلا شك إلى مجرد قلقها من الفراق، خفّفت هذه الفكرة من وطأة الأمر عليّ قليلًا، وذلك من خلال حديثها المطوّل: "بما أننا وصلنا إلى لندن بسلام، وبما أنها مضطرة للذهاب إلى منزلها، فقد نصحتني بشدة أن أجد مكانًا في أسرع وقت ممكن؛ وأنه لا داعي للخوف من إيجاد مكان؛ فهناك أماكن أكثر من الكنائس؛ ونصحَتني بالذهاب إلى مكتب استخبارات؛ وأنها إذا سمعت بأي شيء مريب، فستجدني وتخبرني؛ وأنه في هذه الأثناء، يجب أن أستأجر مسكنًا خاصًا، وأن أخبرها إلى أين ترسلني؛ وأنها تتمنى لي التوفيق، وتأمل أن أحافظ دائمًا على نزاهتي، وألا ألحق العار بنسبي." وبهذا، ودّعتني، وتركتني، كما لو كنتُ، في حيرة من أمري، تمامًا كما وُضعتُ في يدها.

بعد أن تُركت وحيدًا تمامًا، معدمًا وبلا أصدقاء، بدأت أشعر بمرارة شديدة بقسوة هذا الفراق، الذي حدث في غرفة صغيرة في النزل؛ وما إن أدارت ظهرها حتى انفجرت مشاعر الحزن التي شعرت بها إزاء ظروفي الغريبة العاجزة في فيضان من الدموع، مما خفف بشكل كبير من وطأة قلبي؛ على الرغم من أنني ما زلت مذهولًا، وفي حيرة تامة بشأن كيفية التصرف.

أحد عمال الدرج، الذي دخل الغرفة، زاد من حيرتي، بسؤاله لي باختصار إن كنتُ أطلب شيئًا، فأجبته ببراءة: "لا". لكنني أردتُ منه أن يدلني على مكانٍ أجد فيه مأوىً لتلك الليلة. قال إنه سيذهب ليتحدث إلى سيدته، التي أتت بالفعل، وأخبرتني ببرود، دون أن تُبدي أدنى اهتمامٍ بمعاناتي، أنه

بإمكاني الحصول على سريرٍ مقابل شلن، وبما أنها افترضت أن لديّ بعض الأصدقاء في المدينة (وهنا تنهدتُ تنهيدةً عميقةً عبثًا!)، فبإمكاني تدبير أموري في الصباح.

من المذهل ما قد يلجأ إليه العقل البشري من عزاءات تافهة في أحلك الظروف. طمأنني وجود سرير أنام عليه تلك الليلة، فخفف من معاناتي. ولأنني خجلت من إخبار صاحبة النزل بأنه ليس لديّ أصدقاء ألجأ إليهم في المدينة، قررت في صباح اليوم التالي التوجه إلى مكتب استخبارات، حيث وُضعت لي تعليمات مكتوبة على ظهر قصيدة غنائية أعطتني إياها إستر. هناك، كنتُ أعتمد على الحصول على معلومات عن أي مكان يناسب فتاة ريفية مثلي، حيث يمكنني أن أجد أي نوع من الحياة قبل أن ينفد مالي القليل. أما بالنسبة للشخصية، فقد كررت لي إستر مرارًا وتكرارًا أنه يمكنني الاعتماد عليها في إيجاد واحدة لي. ومع ذلك، ورغم تأثري الشديد برحيلها، لم أتوقف تمامًا عن الاعتماد عليها، إذ بدأت أفكر، بروح طيبة، أن تصرفها كان طبيعيًا، وأن جهلي بالحياة هو ما جعلني أتعامل مع الأمر بتلك الطريقة في البداية.

وبناءً على ذلك، في صباح اليوم التالي ارتديت ملابس نظيفة ومرتبة قدر استطاعتي ملابسي الريفية؛ وبعد أن تركت صندوقي، مع توصية خاصة، لدى صاحبة المنزل، تجرأت على الخروج بمفردي، وبدون أي صعوبة أكثر مما يمكن تصوره لفتاة ريفية صغيرة، بالكاد تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، والتي كانت كل لافتة أو متجر بالنسبة لها فخًا للتحديق، وصلت إلى مكتب المخابرات المطلوب.

كانت تحتفظ بها امرأة مسنة، تجلس عند مكتب تحصيل الرسوم، وبجانبها كتاب منظم ومرتب، وعدة لفائف مصنوعة من إرشادات للأماكن.

ثم توجهت إلى هذه الشخصية المهمة، دون أن أرفع عيني أو ألاحظ أيًا من الأشخاص من حولي، الذين كانوا هناك في نفس المهمة التي كنت أقوم بها، وبعد أن انحنت لها تسع مرات متتالية، بدأت أتحدث معها بتلعثم عن غرضي.

استمعت إليّ السيدة بكل جدية وصرامة وزير دولة صغير، ولما رأت من نظرة واحدة ما أنا عليه، لم تجبني، بل سألتني عن الشلن الأولي، وعندما استلمته أخبرتني عن أماكن للنساء النحيفات جداً للعمل الشاق: لكنها ستلقي نظرة على دفترها، وترى ما يجب فعله من أجلي، وطلبت مني البقاء قليلاً، حتى تنتهي من بعض الزبائن الآخرين.

في هذا الأمر تراجعت قليلاً، وشعرت بخجل شديد من تصريح يحمل في طياته قدراً هائلاً من عدم اليقين، وأن ظروفي لا يمكنها أن تصمد.

في هذه اللحظة، وبعد أن تحليت بمزيد من الشجاعة، وسعيت إلى تشتيت انتباهي عن أفكاري المقلقة، تجرأت على رفع رأسي قليلاً، وأرسلت عيني في جولة حول الغرفة، حيث التقت عيناي بعيني سيدة (لأنني براءتي الشديدة نطقتها هكذا) جالسة في زاوية الغرفة، ترتدي عباءة مخملية (في منتصف الصيف)، وقد خلعت قبعتها؛ قصيرة القامة، سمينة، حمراء الوجه، وفي الخمسين من عمرها على الأقل.

بدت وكأنها ستلتهمني بنظراتها، تحدق بي من رأسي إلى أخمص قدمي، دون أدنى اكتراث للارتباك والخجل اللذين أصاباني بهما من شدة نظراتها، واللذين كانا بلا شك، في نظرها، أقوى دليل على أنني مناسب لغرضها. بعد فترة وجيزة، خضعت خلالها هيئتي وهيئتي وقوامي لفحص دقيق، حاولت من جانبي أن أجعلها تبدو في أفضل صورة، من خلال التأنق ورفع رقبتي وإظهار أفضل ما لدي من مظهر، تقدمت وتحدثت إليّ بأقصى درجات الحياء.

يا عزيزتي، هل تريدين مكاناً؟

"نعم، وأرجو منك ذلك" (مع انحناءة حتى الأرض.(

وعلى هذا أبلغتني أنها قد أتت إلى المكتب بنفسها للبحث عن خادمة؛ وأنها تعتقد أنني أستطيع القيام بذلك، مع القليل من توجيهاتها؛ وأنها تستطيع أن تعتبر مظهري دليلاً كافياً على حسن الخلق؛ وأن لندن مكان شرير وحقير للغاية؛ وأنها تأمل أن أكون مطيعاً، وأن أبتعد عن رفقة السوء؛

باختصار، قالت لي كل ما يمكن أن يفكر فيه ممارس قديم وخبير في المدينة، وهو أكثر بكثير مما هو ضروري لاستقبال فتاة ريفية ساذجة عديمة الخبرة، كانت تخشى حتى أن تصبح متجولة في الشوارع، ولذلك قفزت بسعادة إلى أول عرض للمأوى، خاصة من سيدة وقورة وذات مظهر رجولي، كما أوحت لي مخيلتي المتملقة بأن سيدتي الجديدة هي كذلك، حيث تم توظيفي بالفعل تحت أنظار السيدة الطيبة التي تدير المكتب، والتي لم أستطع إلا أن ألاحظ ابتساماتها الماكرة وهزات كتفيها، وفسرتها ببراءة على أنها علامات على سعادتها بحصولي على مكان العمل بهذه السرعة: ولكن، كما علمت لاحقًا، كانت هؤلاء السيدات يفهمن بعضهن البعض جيدًا، وكان هذا سوقًا تحضره السيدة براون، سيدتي، بشكل متكرر، تراقب أي بضائع جديدة قد تُعرض هناك، لاستخدام زبائنها، ولربحها الخاص.

ومع ذلك، كانت السيدة مسرورة للغاية بصفقتها لدرجة أنها، على ما أظن، خشيت أن تتسبب نصيحة أفضل أو حادث ما في إفلاتي من بين يديها، فكانت تأخذني بشكل رسمي في عربة إلى النزل الذي أقيم فيه، حيث كانت تنادي على صندوقي، وكان يتم تسليمه لي، وأنا موجود، دون أدنى تردد أو تفسير لوجهتي.

بعد انتهاء هذا الأمر، طلبت من سائق العربة أن يقودها إلى متجر في ساحة كنيسة سانت بول، حيث اشترت زوجًا من القفازات، أعطتني إياه، ومن هناك جددت تعليماتها للسائق بالقيادة إلى منزلها في شارع ———، والذي أوصلنا بالفعل إلى الباب، بعد أن تم تسليتي وإمتاعي على طول الطريق بأكثر الكلمات إقناعًا، دون أن أستنتج من كلمة واحدة أي شيء سوى أنني، بفضل أعظم حظ، وقعت في أيدي ألطف سيدة، إن لم يكن صديقة، يمكن أن يقدمها العالم الفسيح؛ وبناءً على ذلك دخلت أبوابها بثقة وابتهاج كاملين، واعدًا نفسي بأنه بمجرد أن أستقر قليلاً، سأخبر إستر ديفيس بحظي النادر.

لا شك أن انطباعي عن مكان إقامتي لم يتأثر بظهور غرفة جلوس خلفية أنيقة للغاية، والتي اقتيدت إليها، وبدت لي مفروشة بفخامة، إذ لم أرَ قط غرفًا أفضل من تلك الموجودة في النُزُل العادية على الطريق. كان هناك مرآتان مذهبتان، وبوفيه، وُضعت عليه بعض قطع الفخار، مُبهرة للغاية، وأقنعتني تمامًا بأنني قد انضممت إلى عائلة مرموقة جدًا.

هنا بدأت سيدتي دورها، فأخبرتني أنه يجب أن أكون مرحة، وأن أتعلم أن أكون صريحة معها؛ وأنها لم تأخذني لأكون خادمة عادية، لأقوم بالأعمال المنزلية الشاقة، بل لأكون نوعًا من الرفيقة لها؛ وأنه إذا كنت فتاة جيدة، فسوف تفعل بي أكثر من عشرين أمًا؛ كل ذلك لم أجب عليه إلا بانحناءات عميقة ومحرجة، وبعض الكلمات المفردة، مثل "نعم! لا! بالتأكيد"!

بعد قليل، لمست سيدتي الجرس، فدخلت خادمة قوية البنية، كانت قد سمحت لنا بالدخول. قالت السيدة براون: "ها هي مارثا، لقد استأجرت هذه الشابة للتو لرعاية ملابسي الداخلية؛ لذا تقدمي وأريها غرفتها؛ وأطلب منكِ أن تعامليها بنفس القدر من الاحترام الذي تعاملين به نفسي، لأنني أحببتها بشدة، ولا أعرف ماذا سأفعل من أجلها."

مارثا، التي كانت خبيرة في التمويه، ولأنها اعتادت على هذا التمويه، فقد أتقنت دورها، فأدت لي انحناءة خفيفة، وطلبت مني أن أصعد معها؛ ثم أرتني غرفة أنيقة، عليها درجتان للخلف، وفيها سرير جميل، حيث أخبرتني مارثا أنني سأنام مع سيدة شابة، ابنة عم سيدتي، والتي كانت متأكدة من أنها ستكون كريمة معي للغاية. ثم انطلقت في مديح متكلف لسيدتها الطيبة! سيدتها الجميلة! وكم كنت سعيدًا بمقابلتها! وأنه لا يمكنني أن أطلب أفضل منها؛ مع كلام مبتذل آخر من هذا القبيل، من شأنه أن يثير الشكوك في أي شخص آخر غير شخص ساذج عديم الخبرة مثلي، جديد تمامًا على الحياة، والذي أخذ كل كلمة قالتها بالمعنى الذي أرادت أن أفهمه به. لكنها أدركت بسهولة مدى الاختراق الذي كان عليها التعامل معه، وقامت بتقييمي بشكل صحيح للغاية من خلال طريقة صفيرها لي، بحيث جعلتني مسرورًا بقفصي، وأعمى عن الأسلاك.

وسط هذه التفسيرات الكاذبة لطبيعة خدمتي المستقبلية، تم الاتصال بنا مرة أخرى، وأُعيد تقديمي إلى نفس غرفة الجلوس، حيث كانت هناك طاولة عليها ثلاثة أغطية؛ وقد أحضرت سيدتي معها الآن إحدى فتياتها المفضلات، وهي مديرة منزل بارزة، وكان عملها هو إعداد وتدريب مثلي من

المهرات الصغيرات على ركوب الخيل؛ وبناءً على ذلك، خصصت لي رفيقة في الفراش، ولإعطائها المزيد من السلطة، منحها رئيس هذه الكلية الموقر لقب ابنة العم.

هنا خضعت لفحص ثانٍ، انتهى بموافقة السيدة فيبي آيرز الكاملة، وهو اسم معلمتي المختارة، والتي تم ترشيحي لها بعناية وتعليمي بكل محبة.

تم الآن وضع العشاء على الطاولة، وفي إطار معاملتي كرفيق، قامت السيدة براون، بنبرة تهدف إلى إنهاء أي جدال، برفض احتجاجاتي المتواضعة والمربكة للغاية ضد الجلوس مع سيدتها، وهو ما أوحى لي به تربيتي القصيرة للتو بأنه لا يمكن أن يكون صحيحًا، أو متوافقًا مع ترتيب الأمور.

على المائدة، كان الحديث يدور في الغالب بين السيدتين، وكان يتم بتعبيرات ذات معانٍ مزدوجة، ويقاطع بين الحين والآخر بتأكيدات لطيفة لي، وكلها تهدف إلى تأكيد وتثبيت رضائي عن وضعي الحالي: لم يكن بإمكانهم زيادته، فقد كنت مبتدئًا جدًا في ذلك الوقت.

تم الاتفاق هنا على أن أبقى بعيدة عن الأنظار لبضعة أيام، ريثما يتم توفير ملابس مناسبة لشخصيتي كرفيقة سيدتي، مع الأخذ في الاعتبار أن الانطباع الأول عن مظهري قد يكون حاسماً؛ وكما رأوا بحق، فإن فكرة استبدال ملابسي الريفية بملابس لندن الفاخرة جعلتني أتقبل بند الحبس بسهولة. لكن الحقيقة هي أن السيدة براون لم تكن تهتم بأن يراني أحد أو يتحدث إليّ، سواء من زبائنها أو من "فتياتها" (كما كانوا يسمون الفتيات اللاتي يتم توفيرهن لهم)، حتى تضمن سوقاً رائجة لعذريتي، التي كنت قد وظفتها ظاهرياً لخدمة سيدتها.

لأتجاوز دقائق لا أهمية لها في صلب قصتي، أمضي الفترة الفاصلة حتى وقت النوم، حيث كنت أكثر فأكثر مسرورًا بالمناظر التي انفتحت أمامي، لخدمة سهلة تحت إشراف هؤلاء الأشخاص الطيبين؛ وبعد العشاء، وبعد أن اصطحبوني إلى الفراش، اقتربت مني الآنسة فيبي، التي لاحظت نوعًا من التردد في خلع ملابسي والذهاب إلى الفراش بقميصي الداخلي، أمامها، بعد أن انسحبت الخادمة، وبدأت بفك دبابيس منديلتي وقميصي، وسرعان ما شجعتني على الاستمرار في خلع ملابسي؛ وخجلت لرؤية نفسي عاريًا بقميصي الداخلي، فأسرعت إلى الاختباء تحت أغطية السرير بعيدًا عن الأنظار.

ضحكت فيبي، ولم يمضِ وقت طويل حتى جلست بجانبي. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها تقريبًا، وفقًا لروايتها التي تثير الشكوك، والتي يبدو أنها قضت فيها عشر سنوات على الأقل؛ مع الأخذ في الاعتبار أيضًا الضرر الذي ألحقته بها سنوات طويلة من العمل كسائقة شاحنة وشرب الماء الساخن، والذي أوصلها بالفعل إلى تلك المرحلة الراكدة التي تجعل أصحاب مهنتها يفكرون في مرافقة الآخرين بدلًا من رؤيتهم.

ما إن وُضِعَتْ هذه البديلة الثمينة لسيدتي، حتى التفتت إليّ، وهي التي لم تتوانَ قط عن فعل أي شيءٍ مشين، وعانقتني وقبلتني بشغفٍ كبير. كان هذا غريبًا، بل جديدًا؛ لكنني عزوتُه إلى مجرد لطفٍ خالص، والذي ربما كان أسلوب لندن في التعبير عنه بهذه الطريقة، فعزمتُ على ألا أكون لئيمًا معها، وبادلتها القبلة والعناق بكل ما تحمله البراءة من عاطفة.

وبتشجيع من ذلك، أصبحت يداها حرتين للغاية، وتجولتا على جسدي كله، بلمسات وضغطات وحركات أدفأتني وفاجأتني بحداثتها، أكثر مما صدمتني أو أرعبتني.

إن المديح المتملق الذي مزجته مع هذه التجاوزات، ساهم أيضاً بشكل كبير في رشوة سلبيتي؛ ولأنني لم أكن أعرف الشر، لم أخش أي شر، خاصة من امرأة بددت كل الشكوك حول أنوثتها، من خلال توجيه يدي إلى زوج من الثديين المتدليين بشكل فضفاض، بحجم وحجم يميزان جنسها بشكل كافٍ، بالنسبة لي على الأقل، الذي لم يقم بأي مقارنة أخرى.

استلقيتُ حينها خاضعًا ومنقادًا كما تشاء، بينما لم تُثر حريتها فيّ سوى شعور غريب، لم أكن أعرفه من قبل. كان كل جزء مني مكشوفًا لحركات يديها الجامحة، التي كانت كالنار المتوهجة، تسري على جسدي كله، وتذيب كل برودة تجمّدت فيه.

ثدياي، إن صحّ التعبير، وهما نتوءان صلبان بارزان، بدآ للتوّ بالظهور، أو حتى بالشعور بأيّ شيء عند اللمس، شغلا يديها قليلاً، حتى انزلقت أصابعها إلى أسفل، على سطح أملس، لتشعر بالزغب الحريري الناعم الذي كان قد نما قبل بضعة أشهر فقط، وزيّن تلك المنطقة الحساسة، ووعد بتوفير مأوى دافئ فوق موضع الإحساس الأكثر روعة، والذي كان، حتى تلك اللحظة، موضع البراءة المطلقة. عبثت أصابعها وحاولت أن تتشابك مع خيوط الطحلب الصغيرة، التي أبدعتها الطبيعة للاستخدام والزينة في آن واحد.

لكنها، غير راضية بهذه الأعمدة الخارجية، تحاول الآن الوصول إلى النقطة الرئيسية، وبدأت ترتجف، وتلمح، وفي النهاية تجبر على إدخال إصبعها في العصب نفسه، بطريقة لو لم تكن قد تقدمت بتدرجات غير محسوسة أثارتني إلى ما وراء قدرة الحياء على مقاومة تقدمها، لكنت قفزت من السرير وصرخت طلباً للمساعدة ضد هذه الاعتداءات الغريبة.

بدلاً من ذلك، أشعلت لمساتها الشهوانية ناراً جديدة اجتاحت عروقي كلها، لكنها استقرت بعنف في ذلك المركز الذي عينته لها الطبيعة، حيث كانت الأيدي الغريبة الأولى منشغلة الآن بالتحسس والضغط والضغط على الشفتين، ثم فتحهما مرة أخرى، مع وجود إصبع بينهما، حتى عبرت صرخة "آه!" عن ألمها لي، حيث رفض ضيق الممر غير المنقطع دخولها إلى أي عمق.

في هذه الأثناء، تضافرت حركات أطرافي، وتمددي المتكاسل، وتنهداتي، ولهثي القصير، لتؤكد لتلك المرأة المتمرسة أنني كنت أكثر سروراً من أن أكون منزعجاً من تصرفاتها، التي كانت تُضفي عليها نكهة خاصة من خلال القبلات المتكررة والصيحات، مثل "يا لك من مخلوق ساحر! يا له من رجل سعيد سيكون أول من يجعل منك امرأة! آه! ليتني كنت رجلاً من أجلك!" مع تعابير متقطعة مماثلة، تقطعها قبلات شرسة وشهوانية كما لم أتلقها من قبل من الجنس الآخر.

أما أنا، فقد كنتُ في حالة من الذهول والارتباك، وكأنني خارج عن ذاتي؛ مشاعر جديدة كهذه كانت فوق طاقتي. حواسي المضطربة والمتوترة كانت في حالة اضطراب سلبتني حرية التفكير؛ انهمرت دموع الفرح من عيني، وخففت قليلاً من حدة اللهيب الذي كان يشتعل في داخلي.

فيبي نفسها، فيبي المبتذلة، الأصيلة، التي كانت تعرف جميع أساليب ووسائل المتعة، وجدت، على ما يبدو، في هذا التمرين تلك الأذواق الغريبة التي لا تفسير لها. ليس لأنها كانت تكره الرجال، أو حتى تفضلهم على جنسها؛ ولكن عندما كانت تواجه مثل هذه المواقف، فإن شعورها بالشبع من المتع في الحياة اليومية، وربما ميل خفي كبير، كان يدفعها إلى الاستمتاع بالمتعة أينما وجدتها، دون تمييز بين الجنسين. وبهذا المنظور، وبعد أن تأكدت من أنها قد أثارتني بلمساتها بما يكفي لغرضها، أنزلت أغطية السرير برفق، فرأيت نفسي ممددًا عاريًا، وقد رُفع قميصي إلى رقبتي، بينما لم يكن لدي أي قدرة أو إحساس لمقاومته. حتى احمرار وجهي المتزايد كان يعبر عن رغبة أكبر من الحياء، بينما كانت الشمعة، التي تُركت مشتعلة (بالتأكيد ليس عن غير قصد)، تُلقي بضوء ساطع على جسدي كله.

"لا!" قالت فيبي، "لا يجب عليكِ يا عزيزتي أن تظني أنكِ ستخفين كل هذه الكنوز عني. يجب أن أستمتع بنظري كما أستمتع بلمسي. يجب أن ألتهم بعيني هذا الصدر الممتلئ. اسمحي لي أن أقبله. لم أره بما فيه الكفاية. دعيني أقبله مرة أخرى. يا له من لحم أبيض ناعم ومتماسك! ما أرقّ شكله! ثم هذا الزغب اللذيذ! أوه! دعيني أرى الشق الصغير العزيز الرقيق! هذا كثير جدًا، لا أستطيع تحمله! يجب عليّ! يجب عليّ!" هنا أمسكت بيدي، وفي غمرة من النشوة حملتها إلى حيث يمكنكِ تخمين ذلك بسهولة. ولكن يا له من فرق في حالة الشيء نفسه! غابة كثيفة من الشعر المجعد تميز المرأة الناضجة المكتملة. ثم استقبل التجويف الذي وجهت يدي إليه يدي بسهولة؛ وما إن شعرت به داخلها، حتى بدأت تتحرك جيئة وذهابًا باحتكاك سريع، حتى سحبته على الفور، مبتلًا ورطبًا، وعندها هدأت فيبي على الفور، بعد تنهدتين أو ثلاث، وصرخات "آه!" من أعماق قلبها، وقبلتني قبلة بدت وكأنها تتنفس روحها من خلال شفتيها، ثم أعادت غطاء السرير فوقنا. لن أقول ما هي المتعة التي وجدتها؛ لكنني أعلم أنني التقطت الشرارات الأولى لإشعال الطبيعة، والأفكار الأولى للنجاسة، في تلك الليلة؛ وأن معرفة الجانب المظلم من جنسنا والتواصل معه، غالبًا ما يكون قاتلًا للبراءة مثل كل إغراءات الجنس الآخر. ولكن لنكمل. عندما استعادت فيبي ذلك الهدوء، الذي كنت بعيدًا كل البعد عن التمتع به

بنفسي، قامت بمهارة باستطلاع رأيي حول جميع النقاط اللازمة لتوجيه مخططات سيدتي الفاضلة نحوي، وبفضل إجاباتي، المستمدة من طبيعتي النقية غير المتصنعة، لم يكن لديها سبب سوى أن تعد نفسها بكل نجاح يمكن تصوره، بقدر ما يعتمد ذلك على جهلي وسهولة تصرفي ودفء طبيعتي.

بعد حوار طويل بما فيه الكفاية، تركني رفيقي في الفراش لأرتاح، وغفوت من شدة التعب، من المشاعر العنيفة التي انتابتني، عندما خففت عني الطبيعة التي كانت مضطربة ومتخمرة بشدة بحيث لا تهدأ دون أن تهدأ بطريقة أو بأخرى، من خلال أحد تلك الأحلام الشهية، التي لا تقل متعة عن متعة اليقظة الحقيقية.

استيقظتُ في الصباح حوالي العاشرة، وأنا في غاية النشاط والحيوية. كانت فيبي قد استيقظت قبلي، وسألتني بلطف عن حالي، وكيف استرحت، وهل أنا مستعدة لتناول الفطور؟ سألتني بحرص، وفي الوقت نفسه، تجنبت زيادة ارتباكي الذي لاحظته في عينيّ، من خلال أي تلميح لما حدث في الفراش الليلة الماضية. أخبرتها أنني سأنهض إذا رغبت، وسأبدأ أي عمل ترغب في أن أكلفني به. ابتسمت؛ وبعد قليل أحضرت الخادمة أدوات الشاي، وكنتُ أرتدي ملابسي على عجل، عندما دخلت سيدتي. لم أتوقع أقل من أن تخبرني، إن لم يكن توبيخًا، على تأخري في الاستيقاظ، لكنني شعرت بخيبة أمل كبيرة من إطراءاتها على مظهري النقي والمنعش. كنتُ "زهرة جمال" (هكذا كانت تصفني)، "وكم سيعجب بي جميع الرجال النبلاء!"، لكن إجاباتي على كل ذلك لم تنتقص من قيمي، أؤكد لكم ذلك. لقد كانوا بسطاء وسذجًا كما يتمنون، ولا شك أن ذلك أسعدهم أكثر بكثير مما لو أثبتوا لي أنني مستنير بالتعليم ومعرفة العالم.

تناولنا الفطور، وما كاد يتم إزالة أدوات الشاي، حتى تم إحضار حزمتين من الكتان والملابس: باختصار، كل الضروريات لتجهيزي بالكامل، كما أطلقوا على ذلك.

تخيلي يا سيدتي كيف خفق قلبي الصغير المغرور فرحاً عند رؤية وتر عود أبيض، مزين بالفضة، مصقول بالفعل، لكنه رُفض لي كأنه جديد تماماً، وقبعة من دانتيل بروكسل، وحذاء مضفر، وبقية الملابس متناسقة، كلها ملابس مستعملة فاخرة، تم شراؤها على الفور لهذه المناسبة، بفضل مثابرة واجتهاد السيدة براون الطيبة، التي كان لديها بالفعل خادم لي في المنزل، والذي كان من المقرر أن يمر سحري أمامه؛ لأنه لم يكتفِ، بالطبع، بالإصرار على رؤية المكان مسبقاً، بل أصرّ أيضاً على تسليم نفسي له فوراً، في حال موافقته عليّ؛ مستنتجاً بحكمة بالغة، أن مكاناً مثل الذي كنت فيه، هو من أكثر الأماكن التي يجب الوثوق بها لحفظ سلعة قابلة للتلف كعذريتي.

ثم تُركت مهمة تجهيزي وارتداء ملابسي للسوق لفيبي، التي قامت بعملها على أكمل وجه، إن لم يكن على أكمل وجه، فقد أرضتني تمامًا إلا رغبتي الشديدة في رؤية نفسي بملابسي الجديدة. عندما انتهى الأمر، ونظرت إلى نفسي في المرآة، لم أكن أتصور أنني، ببساطة وعفوية، أستطيع إخفاء فرحتي الطفولية بهذا التغيير: تغيير، في الحقيقة، كان للأسوأ، إذ لا بد أنني كنت أبدو أفضل بكثير بملابسي الريفية البسيطة والأنيقة من تلك الملابس الفاخرة المبتذلة وغير اللائقة التي لم أستطع إخفاء نفوري منها.

لكن مجاملات فيبي، التي لم يُنسَ فيها دورها في إلباسي، أكدت لي إلى حد كبير أولى الأفكار التي راودتني بشأن شخصيتي؛ والتي، يمكن القول دون غرور، كانت مقبولة آنذاك لتبرير ذوقي، والتي قد لا يكون من غير المناسب هنا أن أرسم لكم صورة غير موفقة عنها.

كنت طويلة القامة، لكن ليس أطول من اللازم بالنسبة لعمري، الذي، كما ذكرت سابقًا، لم يتجاوز الخامسة عشرة بقليل؛ كان قوامي مستقيمًا تمامًا، خصري نحيل، وخفيفًا وحرًا دون الحاجة إلى مشد؛ كان شعري كستنائيًا لامعًا، وناعمًا كالحرير، ينسدل على رقبتي في تجعيدات طبيعية، ويبرز بياض بشرتي الناعمة؛ كان وجهي محمرًا بعض الشيء، على الرغم من أن ملامحه كانت رقيقة، وكان شكله بيضاويًا مستديرًا، باستثناء حفرة صغيرة على ذقني لم يكن لها تأثير مزعج على الإطلاق؛ كانت عيناي سوداوين إلى أقصى حد، وخاملتين أكثر من كونهما متألقتين، إلا في مناسبات معينة، عندما قيل لي إنهما تشتعلان بسرعة كافية؛ كانت أسناني، التي كنت أحافظ عليها دائمًا بعناية، صغيرة ومتساوية وبيضاء؛ كان صدري مرتفعًا بشكل جميل، ويمكن للمرء أن يلاحظ حينها الوعد

أكثر من النمو الفعلي للثدي المستدير والمتماسك، الذي سرعان ما حقق ذلك الوعد. باختصار، جميع جوانب الجمال التي تحظى بأكبر قدر من الإقبال، كانت لديّ، أو على الأقل منعتني كبريائي من الطعن في قرار قضاتنا الأسياد - الرجال الذين أجمعوا، في نهاية المطاف، على إشادتهم بي إشادة بالغة. وقد صادفت، حتى من بين أبناء جنسي، من كانوا أرفع شأناً من أن ينكروا عليّ هذا الحق، بينما أثنى عليّ آخرون دون أن يدري، محاولين التقليل من شأني في جوانب من شخصيتي وهيئتي كنت أتفوق فيها بوضوح. أعترف أن هذا مدح مفرط للنفس، ولكني سأكون ناكرة للجميل للطبيعة، وللهيئة التي أدين لها بنعم فريدة من المتعة والحظ، لو أنني كتمت، بتظاهر الحياء، ذكر هذه النعم القيّمة.

حسنًا، كنتُ قد ارتديت ملابسي، ولم يخطر ببالي حينها أن كل هذه الملابس البهيجة لم تكن سوى تزيين الضحية للتضحية، بينما كنتُ أنسب كل ذلك ببراءة إلى مجرد الصداقة واللطف في السيدة براون الطيبة؛ التي نسيتُ أن أذكر أنها، تحت ذريعة الحفاظ على أموالي آمنة، أخذت مني، دون أدنى تردد، المبلغ المتبقي لي (كما أسميه الآن) بعد نفقات رحلتي.

بعد قضاء بعض الوقت الممتع أمام المرآة، في إعجاب طفيف بالنفس، لأن فستاني الجديد كان له الفضل الأكبر في ذلك، تم استدعائي إلى غرفة الجلوس، حيث سلمت عليّ السيدة العجوز، وتمنت لي السعادة بملابسي الجديدة، التي لم تخجل من قولها إنها تناسبني كما لو أنني لم أرتدِ سوى أجود الملابس طوال حياتي؛ ولكن ما الذي لم تستطع أن تراني ساذجة بما يكفي لتصديقه؟ في الوقت نفسه، قدمتني إلى ابن عم آخر من صنعها، رجل مسن، نهض عند دخولي الغرفة، وعندما انحنيت له، سلم عليّ، وبدا مستاءً قليلاً لأنني لم أقدم له سوى خدي: خطأ، إن صح التعبير، صححه على الفور، بلصق شفتيه بشفتيّ، بشغف لم يدفعني مظهره إلى شكره عليه على الإطلاق: مظهره، أقول، لا شيء يمكن أن يكون أكثر إثارة للاشمئزاز أو البشاعة منه: لأن القبح والنفور كلمتان لطيفان للغاية للتعبير عن فكرة عادلة عنه.

تخيل رجلاً تجاوز الستين من عمره، قصير القامة وقبيح البنية، ذو بشرة صفراء شاحبة، وعينين جاحظتين واسعتين تحدقان كما لو كان مخنوقاً؛ وفم بارز من نابين أقرب إلى الأنياب منهما إلى الأسنان، وشفتين شاحبتين، ونَفَسٍ كنَفَسِ جايك: ثم كانت في ابتسامته بشاعة غريبة، جعلته مرعباً للغاية، إن لم يكن خطراً على النساء الحوامل؛ ومع ذلك، ولأنه خُلق على هذا النحو سخرية من الإنسان، فقد كان أعمى عن تشوهاته الصارخة، لدرجة أنه اعتقد أنه خُلق لإرضاء النساء، وأنه لا يمكن لأي امرأة أن تراه دون أن تُعاقب: ونتيجة لهذه الفكرة، فقد أنفق مبالغ طائلة على مثل هؤلاء البائسات اللواتي استطعن التظاهر بحب شخصه، بينما مع أولئك اللواتي لم يكن لديهن الفن أو الصبر لإخفاء الرعب الذي كان يثيره، كان يتصرف بوحشية. إن العجز، أكثر من الضرورة، جعله يبحث في التنوع عن الاستفزاز الذي كان ينقصه لرفعه إلى ذروة المتعة، والتي كان يرى نفسه في كثير من الأحيان محرومًا منها بسبب فشل قدراته: وهذا كان دائمًا ما يدفعه إلى نوبة غضب، كان يصبها، بقدر ما يجرؤ، على الأشياء البريئة لنوبة رغبته اللحظية.

كان هذا هو السيد الذي حكمت عليّ به مُحسنتي المُخلصة، التي كانت تُزوّده بهذه الأشياء لفترة طويلة، فأرسلت في طلبي خصيصًا لاختباره. وبناءً على ذلك، جعلتني أقف أمامه، وأدارتني، وفكّت منديلي، ولاحظت له ارتفاع وانخفاض صدري، ودورانه، وبياضه الذي بدأ يمتلئ؛ ثم جعلتني أمشي، وأخذت حتى لمسة من بساطتي: باختصار، لم تُغفل أي جانب من جوانب إتقاني؛ وهو ما أجابني عليه بإيماءات لطيفة مُعربة عن رضاه، بينما كان ينظر إليّ نظرة خاطفة: لأنني كنت أحيانًا أختلس النظر إليه، وعندما أُقابل نظراته النارية المُتلهفة، كنت أُشيح بنظري في اتجاه آخر من شدة الرعب والفزع، وهو ما عزاه، كعادته، إلى مجرد حياء الفتاة، أو على الأقل تظاهره به.

ومع ذلك، سرعان ما تم تسريحي، وأعادتني فيبي إلى غرفتي، حيث ظلت قريبة مني، ولم تتركني وحدي، بل تركتني أتأمل في مثل هذه الأمور التي قد تخطر ببال أي شخص، وليس أحمق، في مثل هذا المشهد الذي مررت به للتو؛ ولكن لأخجل من الاعتراف، كان ذلك بسبب غبائي الذي لا يقهر، أو بالأحرى براءتي المشؤومة، التي جعلتني لا أفتح عيني على نوايا السيدة براون، ولم أرَ في ابنة

عمها هذه إلا شخصًا بشعًا بشكل مروع، وهو أمر لم يكن يهمني على الإطلاق، إلا إذا كان امتناني لمحسنتي يجعلني أوزع احترامي على جميع أبناء عمومتها.

بدأت فيبي، مع ذلك، في استشفاف مشاعري تجاه هذا الرجل، وسألتني كيف لي أن أوافق على رجل نبيل كهذا زوجًا. (أظن أنها وصفته بالنبيل، نظرًا لملابسه المزينة بالدانتيل). أجبتها بكل بساطة، أنني لا أفكر في الزواج، ولكن إن اخترت واحدًا، فسيكون من طبقتي الاجتماعية، بالطبع! فقد كان نفوري من هيئته البشعة قد أثّر سلبًا على نظرتي إلى جميع "الرجال النبلاء"، وشوّش أفكاري، كما لو أن من هم في تلك الطبقة قد صُنعوا بالضرورة على نفس قالبه. لكن فيبي لم تستسلم، بل واصلت مساعيها لتليين قلبي وتسهيل دخولي إلى ذلك المنزل المضياف: وبينما كانت تتحدث عن الجنس بشكل عام، لم يكن لديها سبب لليأس من امتثالي، وهو ما دلّها أكثر من سبب على سهولة الحصول عليه مني. لكنها كانت تمتلك خبرة كبيرة لدرجة أنها لم تكتشف أن نفوري الشديد من ابن عمي المخيف هذا سيكون عائقاً يصعب إزالته، وهو ما يناسب إتمام صفقتهم وبيعي.

في غضون ذلك، اتفقت الأم براون مع هذا العجوز الثرثار على شروط، فهمت لاحقًا أنها ستكون خمسين جنيهاً إسترلينياً مقابل السماح له بمحاولة اغتصابي، ومئة جنيه أخرى مقابل إشباع رغباته بالكامل، وانتصاره على عذريتي؛ أما أنا، فكان عليّ أن أترك أمري بالكامل لتقديره وكرمه. بعد إبرام هذا العقد الجائر، كان متلهفاً للغاية لامتلاكي، لدرجة أنه أصرّ على أن يُقدّم لي لشرب الشاي في ذلك المساء، عندما كنا سنكون وحدنا؛ ولم يستمع إلى احتجاجات القوادة بأنني لم أكن مستعدة وناضجة بما فيه الكفاية لمثل هذا الهجوم. أنني كنت ساذجة وغير مروضة، إذ لم أكن قد مكثت في المنزل سوى أربع وعشرين ساعة: من طبيعة الشهوة أن تكون غير صبورة، وغروره الذي سلحه ضد أي افتراض بخلاف المقاومة المعتادة للخادمة في مثل هذه المناسبات، جعله يرفض جميع مقترحات التأجيل، وهكذا تم تحديد محنتي الرهيبة، دون علمي، في تلك الليلة بالذات.

على العشاء، لم تفعل السيدة براون وفيبي شيئًا سوى الإشادة بابن عمي الرائع هذا، وكيف ستكون تلك المرأة سعيدة لو أنه سيُعجب بها؛ باختصار، استنفدت ثرثارتاي كل حيلهما لإقناعي بقبولهما: "أن الرجل كان مفتونًا بي بشدة من النظرة الأولى؛ وأنه سيجعلني ثرثارة إذا كنت فتاة مطيعة ولم أكن مغرورة؛ وأنه يجب أن أثق بشرفه؛ وأنه سيُخلّد اسمي للأبد، وسيكون لدي عربة أسافر بها إلى الخارج"، بكل ما يكفي لإغراء فتاة ساذجة وجاهلة مثلي آنذاك: لكن لحسن الحظ، كان نفوري منه قد ترسخ في داخلي، وكان قلبي محصنًا بشدة من خلال حواسي، ولأنني لم أكن أملك القدرة على إخفاء مشاعري، لم أعطهما أي أمل في أن ينجح صاحب العمل، على الأقل بسهولة، معي. تحرك الزجاج بسرعة كبيرة أيضاً، على ما أعتقد، بهدف كسب ود دفء جسدي، في دقائق الهجوم الوشيك.

وهكذا أبقوني على المائدة لفترة طويلة، وحوالي الساعة السادسة مساءً، بعد أن خلدت إلى غرفتي، وتم تجهيز مائدة الشاي، دخلت سيدتي الجليلة، وتبعها عن كثب ذلك الساتير، الذي دخل مبتسمًا بطريقة خاصة به، وبحضوره البغيض، أكد لي كل مشاعر الكراهية التي أثارها ظهوره الأول.

جلس أمامي، وطوال وقت الشاي ظل يحدق بي بطريقة سببت لي أقصى درجات الألم والارتباك، وكل ذلك كان يفسره بأنه خجلي وعدم اعتيادي على رؤية الآخرين.

بعد انتهاء الشاي، توسلت السيدة العجوز اللطيفة أن تخرج بسبب أمر عاجل (وهو ما كان صحيحًا بالفعل)، وطلبت مني بصدق أن أستضيف ابنة عمها بلطف حتى تعود، من أجلي ومن أجلها؛ ثم قالت: "أرجوك يا سيدي، كن لطيفًا جدًا، كن حنونًا جدًا مع الطفلة الجميلة"، وخرجت من الغرفة، تاركة إياي أحدق بها وفمي مفتوح، وغير مستعد لمواجهتها بسبب مفاجأة رحيلها.

كنا وحدنا الآن؛ وعند هذه الفكرة انتابتني فجأة نوبة ارتجاف. كنت خائفًا جدًا، دون أن أعرف السبب أو ما الذي يجب أن أخشاه، فجلست على الأريكة بجانب المدفأة، بلا حراك، متجمدًا من الخوف، بلا حياة ولا روح، لا أعرف كيف أنظر أو كيف أتحرك.

لكن لم يُسمح لي بالبقاء في حالة الذهول هذه طويلًا: جلس الوحش القرفصاء بجانبي على الأريكة، وبدون أي مقدمات أو تمهيد، لفّ ذراعيه حول عنقي، وجذبني نحوه بقوة، وأجبرني على تلقي قبلاته الكريهة، رغم محاولاتي اليائسة للتخلص منه، والتي غلبتني تمامًا. ولما وجدني شبه فاقدة

للوعي، وغير قادرة على المقاومة، مزّق منديل عنقي، وكشف كل شيء أمام عينيه ويديه: ومع ذلك تحملت كل ذلك دون أن أهتز، حتى تشجع بتحملي وصمتي، لأنني لم أكن أملك القدرة على الكلام أو الصراخ، فحاول أن يمددني على الأريكة، وشعرت بيده على الجزء السفلي من فخذي العاريتين، اللتين كانتا متقاطعتين، وحاول فكّهما. آه! انتفضتُ من غفلتي، وقفزتُ منه بنشاطٍ لم يكن يتوقعه، وألقيتُ بنفسي عند قدميه، وتوسلتُ إليه بصوتٍ مؤثرٍ ألا يكون فظًا، وألا يؤذيني. فقال لي: "أؤذيكِ يا عزيزتي؟ لا أنوي إيذاءكِ. ألم تخبركِ العجوز أنني أُحبكِ؟ وأنني سأعاملكِ معاملةً حسنة؟"

قلتُ: "بالتأكيد يا سيدي، لكنني لا أستطيع أن أحبك، حقًا لا أستطيع! أرجوك دعني وشأني! نعم! سأحبك بشدة إذا تركتني وشأني وذهبت." لكنني كنت أتحدث إلى الريح، لأنه سواء كانت دموعي أو موقفي أو فوضى ملابسي قد أثبتت أنها حوافز جديدة، أو ما إذا كان الآن تحت سيطرة رغبات لا يستطيع كبحها، ولكنه يشخر ويزبد من الشهوة والغضب، فإنه يجدد هجومه، ويمسك بي، ويحاول مرة أخرى مدّي وتثبيتي على الأريكة: وقد نجح في ذلك إلى حدّ أنه جعلني أستلقي، بل وألقى بتنورتي الداخلية فوق رأسي، وكشف عن فخذيّ، اللتين أبقيتهما مغلقتين بعناد، ولم يستطع هو، على الرغم من محاولته بركبته فتحهما بالقوة، أن يفعل ذلك بحيث يبدو وكأنه سيد الشارع الرئيسي؛ كان قميصه وسرواله مفتوحين، ومع ذلك لم أشعر إلا بثقل جسده عليّ، بينما كنت أصارع من الغضب، وأموت من الرعب؛ لكنه توقف فجأة، ونزل وهو يلهث، وينفخ، ويلعن، ويكرر "عجوز وقبيح!" لأنني وصفته بذلك بشكل طبيعي للغاية في خضم دفاعي.

يبدو أن الوحش، كما فهمت لاحقاً، قد تسبب، من خلال حماسه وكفاحه، في وصوله إلى ذروة نوبة شهوته الجامحة، والتي لم تدم قوته طويلاً بما يكفي ليتمكن من إتمامها بالكامل؛ والتي غمرت فخذي وملابسي.

عندما انتهى الأمر، أمرني بنبرة استياء أن أنهض، قائلاً: "لن يشرفني بالتفكير بي بعد الآن؛ وأن تلك العجوز الحقيرة قد تبحث عن عشيق آخر؛ وأنه لن ينخدع أبداً بتظاهر الحياء في إنجلترا؛ وأنه يظن أنني تركت عذريتي مع أحدهم في الريف، وجئت لأتخلص من حليبي الخالي من الدسم في المدينة". ثم انهال عليّ بوابل من الشتائم المماثلة، والتي استمعت إليها بمتعة أكبر من أي امرأة محبة تستمع إلى عبارات الحب من خادمها المدلل: فمع أنني كنت عاجزة عن تقبل أي إضافة إلى كراهيتي ونفوري التام منه، إلا أنني نظرت إلى هذا الحاجز كضمانة لي ضد تجديد لمساته البغيضة.

ومع ذلك، على الرغم من وضوح آراء السيدة براون الآن، لم يكن لدي الشجاعة أو الروح لفتح عيني عليها: ومع ذلك لم أستطع التخلي عن اعتمادي على تلك المرأة العجوز، فقد كنت أعتقد أنني ملكها، روحًا وجسدًا: أو بالأحرى، حاولت خداع نفسي باستمرار رأيي الجيد فيها، واخترت انتظار الأسوأ على يديها، بدلاً من أن أُطرد إلى الشوارع لأموت جوعًا، دون فلس واحد من المال أو صديق ألجأ إليه، كانت هذه المخاوف حماقتي.

بينما كان هذا التشوش الفكري يمر في رأسي، وجلست متأملاً بجانب النار، وعيناي تفيضان بالدموع، وعنقي لا يزال مكشوفاً، وقبعتي سقطت في الصراع، بحيث أصبح شعري في حالة من الفوضى كما قد تتخيل، بدأت شهوة الشرير، على ما أعتقد، في التدفق مرة أخرى، عند رؤية كل ذلك التألق الشبابي الذي ظهر أمام عينيه، وهو تألق لم يستمتع به بعد، وبالطبع لم يكن غير مبالٍ به بعد.

بعد صمتٍ قصير، سألني بنبرةٍ أكثر رقةً إن كنت سأصالحه قبل عودة السيدة العجوز، وأن كل شيء سيكون على ما يرام؛ وأنه سيعيدني إلى عاطفته، عارضًا عليّ في الوقت نفسه أن يقبلني ويلمس صدري. لكن نفوري الشديد، ومخاوفي، وغضبي، كلها تغلغلت فيّ، ومنحتني روحًا غريبة، فانفلتت منه، وركضت نحو الجرس وقرعته بقوةٍ شديدةٍ لدرجة أنني أيقظت الخادمة لتسألها عما حدث، أو إن كان الرجل يريد شيئًا؛ وقبل أن يتمادى في تصرفاته، دخلت الغرفة مسرعةً، ورأتني ممددةً على الأرض، وشعري أشعث، وأنفي ينزف بغزارة، مما زاد المشهد مأساويةً، ومضطهدي البغيض لا يزال مصراً على إلحاق الأذى بي، غير متأثرٍ بصراخي ومعاناتي، فارتبكت ولم تعرف ماذا تفعل.

مهما كانت مارثا مستعدة ومتأقلمة مع مثل هذه التصرفات، لكان من المستحيل عليها أن تتقبل هذا الموقف دون أن تتأثر. علاوة على ذلك، ظاهريًا، توهمت أن الأمور قد تجاوزت حدودها، وأن كرم الضيافة قد تم استغلاله ضدي، ودفعني إلى هذه الحالة. في هذا التصور، انحازت إليّ فورًا، ونصحت الرجل بالنزول وتركني أستعيد رباطة جأشي، مؤكدةً أن "كل شيء سينتهي قريبًا؛ وأن السيدة براون وفيبي، اللتين كانتا خارج المنزل، ستعتنيان بكل شيء على أكمل وجه عندما تعودان؛ وأنه لن يضيع شيء بالصبر على المسكينة الرقيقة؛ وأنها من جانبها كانت خائفة؛ لا تعرف ماذا تقول لمثل هذه التصرفات؛ لكنها ستبقى بجانبي حتى تعود سيدتي إلى المنزل." وبينما كانت الفتاة تقول كل هذا بنبرة حازمة، وبدأ الوحش نفسه يدرك أن الأمور لن تتحسن ببقائه، أخذ قبعته وخرج من الغرفة وهو يتمتم ويعقد حاجبيه مثل قرد عجوز، وهكذا تخلصت من أهوال وجوده البغيض.

ما إن رحل، حتى عرضت عليّ مارثا بكل رقة مساعدتها في أي شيء، وكانت ستجلب لي بعض قطرات عشبة الأيل وتضعني في الفراش؛ وهو ما رفضته بشدة في البداية، خوفًا من أن يعود الوحش ويأخذني وأنا في هذه الحالة. ومع ذلك، وبعد إلحاح شديد وتأكيدات بأنني لن أتعرض للمضايقة تلك الليلة، أقنعتني بالاستلقاء؛ وبالفعل كنت منهكة من مقاومتي، ومكتئبة من خوفي الشديد، ومرعوبة لدرجة أنني لم أكن أملك القدرة على الجلوس، أو حتى الإجابة على الأسئلة التي طرحتها عليّ مارثا الفضولية وأربكتني بها.

كان مصيري قاسياً للغاية لدرجة أنني كنت أخشى رؤية السيدة براون، كما لو كنت أنا المجرم وهي الشخص المتضرر؛ وهو خطأ لن تستغربه عند التمييز بين أن الفضيلة والمبادئ لم يكن لهما أدنى دور في الدفاع الذي قدمته، بل فقط النفور الخاص الذي شعرت به تجاه هذا الغازي الوحشي والمخيف الأول لبراءتي الرقيقة.

قضيتُ الوقت حينها حتى عادت السيدة براون إلى المنزل، وسط كل مشاعر الخوف واليأس التي يمكن تخمينها بسهولة.

حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، عادت سيدتاي إلى المنزل، وبعد أن تلقتا رواية إيجابية إلى حد ما من مارثا، التي نزلت مسرعة لفتح الباب لهما، لأن السيد كروفتس (هذا هو اسم وحشي) كان قد خرج من المنزل، بعد أن نفد صبره من انتظار عودة السيدة براون، صعدتا الدرج مسرعتين، ولما رأتا وجهي شاحباً، ووجهي ملطخاً بالدماء، وكل علامات الاكتئاب الشديد بادية عليّ، انشغلتا أكثر بمواساتي وإعادة الروح المعنوية لي بدلاً من توجيه اللوم إليّ الذي كنت أخشى أن أتعرض له، أنا الذي كان لدي الكثير من اللوم الأكثر عدلاً وقوة لأرد عليهما.

بعد أن انسحبت السيدة براون، جاءت فيبي إلى فراشي، ومن خلال الإجابات التي استخلصتها مني، وبطريقتها الخاصة في التأكد من نفسها، اكتشفت سريعًا أنني كنت خائفًا أكثر من كوني متألمًا؛ ولذلك، أظن أنها، وقد غلبها النعاس، وأجلت محاضراتها وتعليماتها إلى صباح اليوم التالي، تركتني، بالمعنى الحقيقي للكلمة، في قلقي؛ لأنني بعد ذلك، تقلبّت معظم الليل، وعذّبت نفسي بأوهى الأفكار والتصورات الخاطئة عن الأشياء، وسقطت، بسبب الإرهاق الشديد، في نوع من النعاس الهذياني، استيقظت منه في وقت متأخر من الصباح، مصابًا بحمى شديدة: وهو ظرف كان بالغ الأهمية لإنقاذي، ولو لفترة من الوقت، من نوبات هذا المرض اللعين، الذي كان أشد رعبًا بالنسبة لي من الموت نفسه.

إن الرعاية التي حظيت بها خلال مرضي، من أجل إعادتي إلى حالة تمكنني من الوفاء بالتزامات القوادة، أو تحمل المزيد من المحن، كان لها، مع ذلك، تأثير كبير على امتناني لدرجة أنني شعرت بالامتنان لمن تسببوا لي في هذا المرض لاهتمامهم بتعزيز شفائي؛ وقبل كل شيء، لإبعادهم ذلك المغتصب الوحشي، سبب مرضي، عن نظري، عندما وجدوا أنني أتأثر بشدة بمجرد ذكر اسمه.

سرعان ما ينتفض الشباب، وكانت بضعة أيام كافية للتغلب على غضب حمائي: ولكن ما ساهم أكثر في شفائي التام وتصالحي مع الحياة، هو الخبر في الوقت المناسب بأن السيد كروفتس، الذي كان تاجرًا ذا تعاملات كبيرة، قد تم القبض عليه بناءً على طلب الملك، مقابل ما يقرب من أربعين ألف جنيه إسترليني، بسبب إدارته لتجارة تهريب معينة، وأن أوضاعه كانت يائسة للغاية، لدرجة أنه

حتى لو كان يرغب في ذلك، فلن يكون في وسعه تجديد مخططاته ضدي: لأنه أُلقي به على الفور في السجن، والذي لم يكن من المرجح أن يخرج منه على عجل.

السيدة براون، التي لم تتقدم سوى خمسين جنيهاً نحو هدف ضئيل، وفقدت كل آمالها في المئة المتبقية، بدأت تنظر إلى معاملتي له بعين أكثر إيجابية؛ ولأنهم لاحظوا أن مزاجي سهل الانقياد ومتوافق تماماً مع آرائهم، فقد سُمح لجميع الفتيات اللاتي يشكلن مجموعتها بزيارتي، وكان لديهن إشارة لإقناعي، من خلال حديثهن، بالاستسلام التام لتوجيهات السيدة براون.

وبناءً على ذلك، تم السماح لهم بالاطلاع عليّ، وكل ذلك المرح والبهجة الطائشة التي تستهلك فيها تلك المخلوقات المتهورة وقت فراغها، جعلني أحسد حالة لم أرَ منها سوى الجانب الجميل؛ لدرجة أن أن أصبح واحداً منهم أصبح طموحي: وهو ميل قاموا جميعاً بتنميته بعناية؛ ولم أكن أرغب الآن في شيء سوى استعادة صحتي، حتى أتمكن من الخضوع لطقوس التنشئة.

لقد ساهمت المحادثة، والمثال، باختصار، كل شيء، في ذلك المنزل، في إفساد قيمتي الفطرية، التي لم تتجذر في التعليم؛ بينما الآن، فإن مبدأ المتعة القابل للاشتعال، والذي يشتعل بسهولة في سني، قد أحدث عملاً غريباً بداخلي، وكل الحياء الذي نشأت عليه كعادة، وليس كتعليم، بدأ يذوب مثل الندى أمام حرارة الشمس؛ ناهيك عن أنني جعلت من الضرورة رذيلة، بسبب المخاوف المستمرة التي كانت لدي من أن أُطرد إلى الشارع لأموت جوعاً.

سرعان ما تعافيت بشكل جيد، وفي ساعات معينة سُمح لي بالتجول في جميع أنحاء المنزل، ولكن تم إبعادي بحذر عن رؤية أي ضيوف حتى وصول اللورد بـــــــ من باث، والذي اقترحت السيدة براون، تقديراً لكرمه المعهود في مثل هذه المناسبات، أن تعرض عليه الاطلاع على تلك الزينة التي أملكها، والتي تحمل قيمة خيالية كبيرة؛ ولأن اللورد كان من المتوقع أن يصل إلى المدينة في أقل من أسبوعين، فقد رأت السيدة براون أنني سأكون قد استعدت جمالي ونضارتي بالكامل بحلول ذلك الوقت، مما أتاح لها فرصة الحصول على صفقة أفضل مما حصلت عليه مع السيد كروفتس.

في هذه الأثناء، كنت قد تم إخضاعي تمامًا، كما يسمون، وأصبحت أسيرًا لصفارتهم، لدرجة أنه لو تم فتح باب قفصي، لما كان لدي أدنى فكرة عن أنه يجب عليّ أن أطير إلى أي مكان، بدلاً من البقاء حيث كنت؛ ولم يكن لدي أدنى شعور بالأسف على حالتي، بل انتظرت بهدوء شديد أي شيء ستأمر به السيدة براون بشأني؛ التي من جانبها، اتخذت بنفسها ووكلائها أكثر من الاحتياطات اللازمة لتهدئة وإسكات كل الأفكار المشروعة حول مصيري.

مواعظ أخلاقية تُلقى من فوق كتفي؛ حياةٌ مليئةٌ بالبهجة مُصوَّرةٌ بأبهى الألوان؛ مداعباتٌ ووعودٌ ومعاملةٌ مُدلَّلة؛ باختصار، لم يكن هناك ما ينقص لترويضي تمامًا ومنعي من الخروج إلى أي مكان للحصول على نصيحة أفضل. يا للأسف! لم أكن أحلم بمثل هذا الأمر.

حتى ذلك الحين، لم أكن مدينًا إلا لفتيات المنزل بفساد براءتي: فحديثهنّ الفاحش، الذي لم يُراعَ فيه الحياء، ووصفهنّ لعلاقاتهنّ مع الرجال، منحني لمحةً مقبولةً عن طبيعة مهنتهنّ وأسرارها، وفي الوقت نفسه، كنّ يُثيرن فيّ رغبةً جامحةً في كل عروقي. ولكن فوق كل شيء، كانت رفيقتي في الفراش، فيبي، التي كنتُ تلميذها الأقرب، تُوظّف موهبتها في منحي أولى لذّاتي. بينما كانت الطبيعة، وقد أُثيرت فيها الفضول باكتشافاتٍ شيّقة، تُحفّزها فيبي بمهارة، وتقودني من سؤالٍ إلى آخر باقتراحها، لتُفسّر لي جميع أسرار فينوس. لكن لم يكن بوسعي البقاء طويلًا في منزلٍ كهذا، دون أن أكون شاهدًا على أكثر مما كنتُ أتصوّره من وصفها.

في أحد الأيام، حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، وبعد أن شفيت تماماً من الحمى، كنت في خزانة السيدة براون المظلمة، حيث لم أكن قد مكثت فيها نصف ساعة، أستريح على سرير الخادمة، قبل أن أسمع حفيفاً في غرفة النوم، التي يفصلها عن الخزانة بابان منزلقان فقط، وأمام زجاجهما ستارتان من الداماسك الأصفر، لكنهما لم تكونا مغمضتين لدرجة تمنع أي شخص في الخزانة من رؤية الغرفة بالكامل.

تسللت بهدوء على الفور ووضعت نفسي بحيث لا يمكن رؤيتي، حتى لو كنت أرى كل شيء بدقة؛ ومن الذي دخل إلا الأم الرئيسة الجليلة نفسها! وقد تم تسليمها من قبل شاب طويل القامة مفتول

العضلات من فرسان الحرس، مصمم على طراز هرقل: باختصار، اختيار السيدة الأكثر خبرة في تلك الأمور في جميع أنحاء لندن.

آه! كم حافظت على هدوئي وسكوني في مكاني، خشية أن يزعجني أي ضجيج أو يدفع السيدة إلى الخزانة!

لكن لم يكن لدي سبب كبير للخوف أيضاً، لأنها كانت منشغلة تماماً بقلقها الكبير الحالي، لدرجة أنها لم يكن لديها أي إحساس بالاهتمام لتخصّصه لأي شيء آخر.

كان من المضحك رؤية جسدها السمين الأخرق وهي تنهار على طرف السرير، مقابل باب الخزانة، مما أتاح لي رؤية كاملة لجميع مفاتنها.

جلس عشيقها بجانبها: بدا رجلاً قليل الكلام، لكن معدته كبيرة؛ إذ انتقل مباشرةً إلى ما هو ضروري، فصفعها بقوة، ودفع يديه إلى صدرها، وحررهما من مشدّها، فاستهزأ بهما وانفصلا، وتدليا إلى أسفل سرّتها على الأقل. لم ترَ عيناي قط صدراً أضخم منهما، ولا بلون أسوأ، مترهلاً، ناعماً، ومتلاصقاً بشكلٍ مثير للشفقة: ومع ذلك، بدا هذا الآكل الشره للحم وكأنه يداعبهما بشهوةٍ لا تُحسد عليها، ساعياً عبثاً إلى تقييد أحدهما أو تغطيته بيدٍ لا تقلّ عن كتف خروف. بعد أن عبث بهما هكذا لبعض الوقت، كما لو كانا يستحقان ذلك، مدّدها على الأرض بسرعة، ورفع تنورتها الداخلية، فجعلها بالكاد قناعاً على وجهها الأحمر العريض، الذي احمرّ وجهه من البراندي فقط.

بينما كان يقف على جانب واحد، يفك أزرار سترته وسرواله، كانت أفخاذها السمينة القوية تتدلى، والمشهد الدهني بأكمله مكشوفًا تمامًا لنظري؛ فجوة واسعة مفتوحة الفم، مظللة بشجيرة رمادية، بدت وكأنها محفظة متسول للحصول على ما تحتاجه.

لكن سرعان ما لفت انتباهي شيء أكثر إثارة للدهشة استأثر باهتمامي بالكامل.

لقد انفكّ حصانها القوي الآن، وأخرج عارياً، منتصباً وصلباً، تلك الآلة العجيبة التي لم أرها من قبل، والتي حدّقت فيها بكل ما أملك من عيون، بسبب الاهتمام الذي بدأ يستحوذ على موضع لذتي الخاص بي بشدة: ومع ذلك، كانت حواسي مشوشة للغاية، ومركزة للغاية على تلك البقعة المحترقة الآن، بحيث لم ألاحظ أي شيء أكثر من مجرد شكل ودوران تلك الأداة بشكل عام؛ والتي أخبرتني بها غريزة الطبيعة، أكثر من كل ما سمعته عنها، بقوة الآن، أنني سأتوقع تلك المتعة القصوى التي وضعتها في التقاء تلك الأجزاء المتوافقة بشكل رائع مع بعضها البعض.

لكن لم يدم ذلك الشاب طويلاً قبل أن يهزها مرتين أو ثلاث مرات، وكأنه يلوح بها، ثم ألقى بنفسه عليها، وبما أن ظهره كان الآن نحوي، لم يكن بوسعي إلا أن أعتبر ابتلاعه أمراً مفروغاً منه، من خلال الاتجاهات التي تحرك فيها، واستحالة تفويت هدف واضح كهذا؛ والآن اهتز السرير، وارتجفت الستائر لدرجة أنني بالكاد أستطيع سماع التنهدات والهمسات، والأنفاس اللاهثة التي رافقت الفعل، من البداية إلى النهاية؛ الصوت والمنظر الذي هز روحي، وجعل كل عرق في جسدي يدور فيه لهيب سائل: اشتدت العاطفة لدرجة أنها كادت أن تقطع أنفاسي.

بعد أن كنت مستعداً ومهيأً كما كنت بفضل حديث رفاقي، وتفاصيل فيبي الدقيقة عن كل شيء، فلا عجب أن مثل هذا المشهد وجه الضربة القاضية لبراءتي الفطرية.

وبينما كانوا في خضم الفعل، مسترشدين بالطبيعة فقط، تسللت يدي تحت تنورتي الداخلية، وبأصابع مشتعلة، أمسكت بذلك المركز الذي يضم كل حواسي وأشعلته أكثر: خفق قلبي كما لو كان سيشق طريقه عبر صدري: تنفست بألم؛ لويت فخذي، وضغطت على شفتي ذلك الشق العذري، واتبعت بشكل آلي مثال عملية فيبي اليدوية عليه، بقدر ما استطعت الوصول، جلبت في النهاية النشوة الحاسمة، التدفق الذائب، الذي تذوب فيه الطبيعة، بعد أن استنفدت طاقتها من فرط المتعة، وتموت.

وبعد ذلك، استعادت حواسي هدوئها بما يكفي لمراقبة بقية المعاملة بين هذا الزوج السعيد.

كان الشاب قد نزل لتوه، عندما نهضت السيدة العجوز على الفور، بكل حيوية الشباب، المستمدة بلا شك من مشروبها الأخير؛ وأجلسته، ثم بدأت بدورها في تقبيله، والتربيت على خديه وقرصهما،

واللعب بشعره: كل ذلك استقبله ببرودة وبرودة أظهرت أنه قد تغير كثيراً عما كان عليه عندما ذهب لأول مرة إلى الثغرة.

لكن مربيتي المتدينة، التي لم تكن تتوانى عن استدعاء مساعدات، فتحت علبة صغيرة من المشروبات كانت موضوعة بالقرب من السرير، وجعلته يتعهد لها بجرعة كبيرة جدًا: بعد ذلك، وبعد قليل من المغازلة، جلست السيدة في نفس المكان، عند أسفل السرير؛ والشاب يقف بجانبها، قامت، بوقاحة لا تُصدق، بفك أزرار سرواله، وخلعت قميصه، وأخرجت عضوه، الذي كان منكمشًا ومتقلصًا لدرجة أنني لم أستطع إلا أن أتذكر الفرق، فقد أصبح الآن منتصبًا، أو بالكاد يرفع رأسه: لكن سيدتنا الخبيرة سرعان ما، بفركه بيديها، جعلته ينتفخ إلى ذلك الحجم والانتصاب الذي رأيته به من قبل.

أعجبتُ حينها، بعد إعادة النظر، وبنظرةٍ أدق، بجمال ذلك الجزء من الرجل: رأسه الأحمر المتوهج كما هو، وبياض قضيبه، وشعره الكثيف المجعد الذي يغطي قدميه، وخصيته المستديرة المتدلية منه، كل ذلك استأثر باهتمامي الشديد، وأعاد إحياء رغبتي. ولكن، بما أن الأمر كان الآن عند النقطة التي سعت إليها تلك السيدة المجتهدة، لم تكن في مزاجٍ يسمح لها بتأجيل جزاء جهودها، بل استلقت، وجذبته إليها برفق، وهكذا أنهيا، بنفس الطريقة السابقة، الفصل الأخير.

بعد ذلك، خرجا معًا في جو من الحب، وكانت السيدة العجوز قد قدمت له هدية، على حد علمي، عبارة عن ثلاث أو أربع قطع موسيقية؛ فهو لم يكن فقط المفضل لديها بسبب أدائه، بل كان أيضًا من خدم المنزل؛ وقد حرصت على إخفائي عنه حتى ذلك الحين، خشية ألا يكون لديه الصبر الكافي لانتظار وصول سيدي، بل يصر على أن يكون متذوقه، وهو أمر كانت السيدة العجوز خاضعة له بشدة لدرجة أنها لم تجرؤ على معارضته؛ فكل فتاة في المنزل كانت تقع بين يديه، ولم تكن السيدة العجوز تحصل على دورها إلا من حين لآخر، نظرًا للنفقة التي كان يحصل عليها، والتي لا يمكن اتهامه بعدم كسبها منها.

ما إن سمعتُهم ينزلون الدرج، حتى تسللتُ بهدوء إلى غرفتي، التي لحسن الحظ لم يفتقدني أحدٌ فيها؛ هناك بدأتُ أتنفس الصعداء، وأطلقتُ العنان لتلك المشاعر الجياشة التي أيقظها فيّ مشهد ذلك اللقاء، فاستلقيتُ على السرير، وتمددتُ، متمنيةً بشدة، ومتلهفةً لأي وسيلةٍ تُخفف من حدة غضبي المتجدد واضطراب رغباتي، التي كانت جميعها تُشير بقوة إلى قطبها: الرجل. تحسستُ السرير كما لو كنتُ أبحث عن شيءٍ أمسكتُ به في حلم يقظتي، ولو لم أجده، لربما صرختُ من شدة الضيق؛ كل جزءٍ مني يحترق بنيرانٍ وهمية. في النهاية، لجأت إلى العلاج الوحيد المتاح حاليًا، وهو المحاولات العبثية للرسم، حيث لم يكن صغر المسرح يوفر مساحة كافية للعمل، وحيث أن الألم الذي سببته لي أصابعي في محاولتي للدخول، على الرغم من أنها منحتني رضا طفيفًا في الوقت الحالي، أثار قلقًا لم أستطع التخلص منه حتى أبلغت فيبي وتلقيت تفسيراتها بشأنه.

لكن الفرصة لم تسنح إلا في صباح اليوم التالي، إذ لم تأتِ فيبي إلى الفراش إلا بعد أن خلدتُ إلى النوم بوقت طويل. وما إن استيقظنا حتى عدنا إلى حديثنا المعتاد في الفراش، حول موضوع قلقي، والذي استهللته بسرد مشهد الحب الذي كنتُ شاهدةً عليه بالصدفة.

لم تستطع فيبي سماعها حتى النهاية دون أن يقاطعها أكثر من مرة بنوبات من الضحك، وطريقتي الساذجة في سرد الأمور زادت من حدة النكتة بالنسبة لها.

لكن عندما سألتني عن تأثير المنظر عليّ، دون مواربة أو إخفاء للمشاعر الممتعة التي أثارها في نفسي، أخبرتها في الوقت نفسه أن ملاحظة واحدة حيّرتني، وبشكل كبير. فقالت: "أجل! ما هي؟" فأجبتها: "بعد أن قارنت بفضول شديد وانتباه حجم تلك الآلة الضخمة، التي لم تكن تبدو، على الأقل في مخيلتي المرعبة، أصغر من معصمي، وطولها ثلاثة أضعاف طول يدي على الأقل، بحجم ذلك الجزء الصغير الرقيق من جسدي الذي خُلق لاستقبالها، لم أستطع أن أتصور إمكانية السماح لها بالدخول دون أن أموت، ربما من ألم شديد، لأنها كانت تعلم جيدًا أن مجرد إدخال إصبع هناك يؤلمني ألمًا لا يُطاق. أما بالنسبة لسيدتي وسيدتك، فأستطيع أن أميز بوضوح تام اختلاف أبعادهما

عن أبعادي، وهو أمر ملموس عند اللمس، ومرئي للعين؛ لذلك، باختصار، مهما كانت المتعة الموعودة عظيمة، فأنا أخشى ألم التجربة".

عند هذا، ضاعفت فيبي ضحكتها، وبينما كنت أتوقع حلاً جاداً للغاية لشكوكي ومخاوفي في هذا الأمر، أخبرتني فقط أنها "لم تسمع قط عن جرح مميت في تلك الأجزاء، من خلال ذلك السلاح الرهيب، وأن بعض من تعرفهم أصغر سناً، وبنفس رقة بنيتي، قد نجوا من العملية؛ وأنها تعتقد، في أسوأ الأحوال، أنني سأحبها كثيراً؛ صحيح أن هناك تنوعاً كبيراً في الأحجام في تلك الأجزاء، بسبب الطبيعة، والحمل والولادة، والتمدد المفرط المتكرر بالآلات القاسية، ولكن في سن معينة وبنية جسدية معينة، حتى أكثر الأشخاص خبرة في هذه الأمور لا يستطيعون التمييز جيداً بين الفتاة والمرأة، بافتراض غياب أي تصنّع، في وضعهما الطبيعي: ولكن بما أن الصدفة قد ألقت في طريقي برؤية من هذا النوع، فإنها ستجلب لي رؤية أخرى، من شأنها أن تبهج عيني بشكل أكثر رقة، وتقطع شوطاً كبيراً في علاج مخاوفي من ذلك التفاوت الوهمي."

سألتني حينها إن كنت أعرف بولي فيليبس؟ فأجبتها: "بلا شك، تلك الفتاة الجميلة التي كانت لطيفة معي للغاية عندما كنت مريضاً، والتي لم يمضِ على وجودها في المنزل سوى شهرين كما أخبرتني". فقالت فيبي: "أنا أيضاً". «لا بد أنك تعلم إذن، أنها تعيش مع تاجر جنوي شاب، عمه الثري جداً، والذي هو مدلله، بحجة تسوية بعض الحسابات، ولكن في الحقيقة لإرضاء رغبته في السفر واستكشاف العالم. التقى بها صدفةً مرةً بصحبة آخرين، فأعجب بها، وجعلها تُلازمه طوال الوقت. يأتي إليها هنا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وتستقبله في الخزانة الصغيرة أعلى الدرج، حيث يستمتع بصحبتها بطريقة، أظنها خاصة بحرارة الجو، أو ربما بتقلبات طباع بلده، لن أقول أكثر من ذلك، ولكن غداً، يومه، سترى ما يدور بينهما، من مكان لا تعرفه إلا سيدتك وأنا«.

يمكنك أن تتأكد، في المجال الذي كنت أسلكه الآن، أنه لم يكن لدي أي اعتراض على الاقتراح، بل كنت أسير على حافة الهاوية لتحقيق إنجازاته.

في الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي، جاءت فيبي، ملتزمة بوعدها، إليّ بينما كنت أجلس وحدي في غرفتي، وأشارت إليّ لأتبعها.

نزلنا الدرج الخلفي بهدوء شديد، وعندما فتحت باب خزانة مظلمة، حيث كان هناك بعض الأثاث القديم وبعض صناديق الخمور، سحبتني خلفها، وأغلقت الباب علينا، لم يكن لدينا ضوء إلا ما كان يأتي من خلال شق طويل في الحاجز بين خزانتنا والخزانة المضيئة، حيث كان مسرح الأحداث؛ لذلك، بالجلوس على تلك الصناديق المنخفضة، كان بإمكاننا، بكل سهولة ووضوح، رؤية جميع الأشياء (دون أن نرى أنفسنا)، فقط من خلال تقريب أعيننا من الشق، حيث انحنى قالب اللوحة، أو بدأ قليلاً على الجانب الآخر.

كان الشاب أول من رأيته، وكان ظهره مواجهًا لي مباشرةً، ينظر إلى لوحة مطبوعة. لم تكن بولي قد وصلت بعد: ولكن في أقل من دقيقة، فُتح الباب ودخلت؛ وعند سماع صوت الباب، استدار الشاب وجاء لاستقبالها، وقد بدا عليه أقصى درجات الرقة والرضا.

بعد أن حيّاها، اصطحبها إلى عربة كانت أمامنا، حيث جلسا كلاهما، وساعدها الشاب من جنوة في الحصول على كأس من النبيذ، مع بعض بسكويت نابولي على طبق.

وبعد أن تبادلا بعض القبلات، وبعض الأسئلة باللغة الإنجليزية المكسرة من جانب واحد، بدأ في فك أزرار قميصه، وفي النهاية، خلع ملابسه حتى وصل إلى قميصه.

وكأن هذه كانت الإشارة المتفق عليها لخلع جميع ملابسهم، وهي خطة ساعدتها حرارة الموسم تمامًا، بدأت بولي في سحب دبابيسها، وبما أنها لم تكن ترتدي مشدًا لفكه، فقد كانت في لمح البصر، بمساعدة فارسها المتطفل، عارية تمامًا باستثناء ثوبها الداخلي.

عندما رأى ذلك، قام على الفور بفك سرواله، وربط حزام الخصر والركبة، وسحبه فوق كاحليه، تمامًا؛ كما تم فك أزرار ياقة قميصه أيضًا: ثم، بعد أن أعطى بولي قبلة تشجيعية، سرق، كما لو كان، قميص الفتاة، التي كانت، على ما أعتقد، قد اعتادت على هذا النوع من الدعابة، فاحمر وجهها بالفعل، ولكن أقل مما احمر وجهي عند رؤيتها، وهي الآن تقف عارية تمامًا، كما لو كانت قد

خرجت من بين يدي الطبيعة الخالصة، بشعرها الأسود المنسدل على رقبتها وكتفيها البيضاء المبهرة، بينما تحول احمرار خديها تدريجيًا إلى لون الثلج المصقول: لأن هذه كانت ألوان بشرتها المصقولة الممزوجة.

لا يمكن أن تكون هذه الفتاة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها: وجهها منتظم وملامحها جميلة، وقوامها رائع؛ ولم يسعني إلا أن أغبطها على ثدييها الناضجين الساحرين، الممتلئين باللحم، ولكنهما مع ذلك مستديران ومتماسكان، بحيث كانا يدعمان نفسيهما، متجاهلين أي شيء: ثم حلمتاهما، تشيران في اتجاهين مختلفين، تشيران إلى فصلهما الممتع؛ وتحتهما امتدت منطقة البطن اللذيذة، التي انتهت بشق بالكاد يمكن تمييزه، بدا وكأن الحياء يتراجع إلى الأسفل، ويبحث عن مأوى بين فخذين ممتلئين: الشعر المجعد الذي يغطي مقدمتها الرائعة، يكسوها بأغنى فراء السمور في الكون: باختصار، كانت بوضوح موضوعًا للرسامين ليغازلوها، تجلس أمامهم كنموذج للجمال الأنثوي، بكل فخر وعظمة العري.

وقف الشاب الإيطالي (الذي كان لا يزال يرتدي قميصه) يحدق في جمالها الذي كان من الممكن أن يثير فضول ناسك يحتضر؛ التهمتها عيناه المتلهفتان، بينما كانت تغير وضعياتها حسب رغبته: ولم تُحرم يداه من نصيبهما من هذه الوليمة العظيمة، بل تجولتا، في رحلة بحث عن المتعة، على كل جزء من جسدها، المؤهل لمنحه إحساسًا رائعًا بها.

في هذه الأثناء، لم يكن بوسع المرء إلا أن يلاحظ انتفاخ قميصه السابق، الذي كان يبرز ويشير إلى حالة الأشياء خلف الستار: لكنه سرعان ما خلعه، عن طريق خلع قميصه من فوق رأسه؛ والآن، فيما يتعلق بالعُري، لم يكن لديهم ما يلومون به بعضهم البعض.

كان الشاب، بحسب تقدير فيبي، في الثانية والعشرين من عمره تقريبًا؛ طويل القامة، قوي البنية. كان جسده متناسقًا، مفتول العضلات، عريض المنكبين، عريض الصدر. لم يكن وجهه مميزًا بأي شكل من الأشكال، باستثناء أنفه المائل إلى الشكل الروماني، وعينيه الكبيرتين السوداوين اللامعتين، واحمرار وجنتيه الذي كان يضفي عليه مزيدًا من الجمال. أما بشرته فكانت سمراء داكنة، لا ذلك اللون البني القاتم الذي ينفي فكرة النضارة، بل ذلك اللون الزيتوني الصافي، المتوهج بالحياة، والذي قد يكون أقل إبهارًا من البياض، ولكنه مع ذلك يُبهج أكثر، عندما يُبهج. ولأن شعره كان قصيرًا جدًا بحيث لا يمكن ربطه، كان يصل إلى أسفل رقبته، في تجعيدات قصيرة سهلة. وكان لديه بعض الخصلات حول صدره، تُزينه بأسلوب يوحي بالقوة والرجولة. ثمّ وقفت حركته العظيمة، التي بدت وكأنها تنبثق من غابة من الشعر المجعّد، الممتدّ من جذوره على فخذيه وبطنه وصولاً إلى سرّته، جامدةً منتصبة، لكنّها كانت بحجمٍ يُرعبني، شفقةً على ذلك الجزء الصغير الرقيق الذي كان هدفًا لغضبه، والذي أصبح الآن مكشوفًا أمام عينيّ؛ لأنه ما إن خلع قميصه حتى دفعها برفق على الأريكة، التي كانت في وضعٍ مناسبٍ لكبح سقوطها الطوعي. كانت فخذاها متباعدتين إلى أقصى حدّ، وكشفت بينهما علامة أنوثتها، ذلك الشقّ الأحمر في وسطه، الذي تحدّق شفتاه القرمزيتان إلى الداخل، مُشكّلتين خطًّا ياقوتيًّا صغيرًا في صورةٍ مصغّرةٍ رائعة، مثل لمسة أو لون غايد: لم أستطع أبدًا أن أصل إلى حيويّتها أو رقّتها.

عند هذا، أعطتني فيبي هرولة لطيفة، لتهيئني لسؤال هامس: "هل كنت أعتقد أن رأسي الصغير أقل بكثير؟" لكن انتباهي كان منغمسًا للغاية، ومحاطًا بكل ما رأيته، لدرجة أنني لم أستطع إعطائها أي إجابة.

في هذه الأثناء، غيّر الشاب وضعيتها من الاستلقاء عرضًا إلى الاستلقاء طولًا على العربة، لكن فخذيها كانتا لا تزالان متباعدتين، وكان الهدف واضحًا له، الذي ركع بينهما، وكشف لنا جانبًا من سلاحه المنتصب الشرس، الذي كان يهدد بتمزيق الضحية الرقيقة، التي كانت تبتسم للضربة المرفوعة، ولم تبدُ رافضة لها. نظر إلى سلاحه بشيء من السرور، ووجهه بيده إلى الفتحة المغرية، وسحب الشفتين جانبًا، وأدخله (بعد بعض الطعنات، التي بدت بولي وكأنها تساعدها) في منتصف الطريق تقريبًا؛ لكنه علق هناك، أعتقد بسبب سمكه المتزايد: سحبه مرة أخرى، وبلله بقليل من اللعاب، ثم أدخله مرة أخرى، وبسهولة غمد حتى المقبض، عندها أطلقت بولي تنهيدة عميقة، كانت

نبرتها مختلفة تمامًا عن نبرة الألم؛ طعن، وهي تتنهد، في البداية بلطف، وبإيقاع منتظم؛ لكن سرعان ما أصبح النشوة عارمة لدرجة يصعب معها الالتزام بأي نظام أو اعتدال؛ كانت حركاتهم سريعة للغاية، وقبلاتهم شديدة وعاطفية لدرجة لا تسمح للطبيعة بتحمل مثل هذه الشدة لفترة طويلة: بدا كلاهما وكأنهما منفصلان عن أنفسهما: كانت عيونهما تشتعل بشرارات نارية: "آه! آه! لا أستطيع تحمل هذا. إنه كثير جدًا. سأموت. أنا راحلة"، كانت هذه تعابير بولي عن النشوة: أما أفراحه فكانت أكثر صمتًا: لكن سرعان ما تحولت إلى همهمات متقطعة، وتنهدات عميقة، وفي النهاية دفعة قوية، كما لو كان سيجبر نفسه على الصعود إلى جسدها، ثم الخمول التام لأطرافه، كل ذلك أظهر أن لحظة الموت قد حانت عليه؛ والتي أبدت علامات على انضمامها إليها من خلال رمي يديها بعنف، وإغلاق عينيها، وإطلاق شهقة عميقة، بدت فيها وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة في عذاب من النعيم.

بعد أن أنهى ضربته، وابتعد عنها، استلقت بلا حراك، لاهثة، كما يبدو، من شدة اللذة. أعادها إلى وضعها على الأريكة، عاجزة عن الجلوس، وفخذاها متباعدتان، وبينهما لاحظتُ سائلاً أبيض، كالرغوة، يتدلى حول شفتي الجرح المفتوح حديثاً، والذي كان يتوهج الآن بلون أحمر داكن. بعد قليل، نهضت، وألقت ذراعيها حوله، وبدت غير مسرورة على الإطلاق بما فعله بها، على الأقل من خلال نظراتها المتلهفة إليه وتعلقها به.

أما أنا، فلن أدعي أنني أستطيع وصف ما شعرت به خلال هذا المشهد؛ ولكن منذ تلك اللحظة، وداعاً لكل مخاوفي مما يمكن أن يفعله بي الإنسان! لقد تحولت الآن إلى رغبات جامحة، وتطلعات لا يمكن السيطرة عليها، لدرجة أنني كنت أستطيع الإمساك بها من كمي، وقدمت له الحلية، التي تخيلت الآن أن فقدانها سيكون مكسباً لا يمكنني الحصول عليه بنفسي في وقت قريب.

لم تستطع فيبي، التي كانت لديها خبرة أكبر، والتي لم تكن مثل هذه المشاهد جديدة عليها، أن تبقى غير متأثرة بهذا المشهد الحار؛ فسحبتني بهدوء بعيدًا عن ثقب التجسس، خوفًا من أن يتم سماعي، وقادتني نحو الباب قدر الإمكان، وكنت منقادًا تمامًا ومطيعًا لأقل إشاراتها.

لم يكن هناك متسع للجلوس أو الاستلقاء، فأوقفتني وظهري للباب، ثم رفعت تنورتي الداخلية، وانهمرت أصابعها النشطة لتستكشف ذلك الجزء مني، حيث كنتُ أشعر برغبة جامحة تكاد تودي بحياتي؛ لدرجة أن لمسة إصبعها العارية، في ذلك الموضع الحساس، أشعلت فيّ نارًا كالنار في الهشيم، وجعلتها يدها على الفور تدرك مدى توتري، فذابت أمام ما رأته فيّ. وبعد أن اطمأنت لنجاحها في تهدئة حرارة كادت تجعلني أتوق لرؤية استمرار ما يحدث بيننا، عادت بي إلى ذلك الشقّ الذي أثار فضولنا.

لقد كنا بالتأكيد على بعد لحظات قليلة من ذلك، ومع ذلك عند عودتنا رأينا كل شيء على ما يرام استعداداً لاستئناف الأعمال العدائية الرقيقة.

كان الشاب الأجنبي يجلس أمامنا في الحافلة، وبولي جاثية على ركبة واحدة، وقد وضعت ذراعيها حول رقبته، في حين أن البياض الشديد لبشرتها لم يكن يتناقض بشكل غير سار مع اللون البني اللامع الناعم لحبيبها.

لكن من يستطيع أن يحصي القبلات العنيفة التي لا تعد ولا تحصى التي تبادلوها؟ والتي كنت أكتشف فيها في كثير من الأحيان أن أفواههم ذات لسانين، ويبدو أنها تفضل الإيلاج المتبادل بأقصى درجات الحماس والمتعة.

في هذه الأثناء، استعاد بطله ذو الشعر الأحمر، الذي كان قد هرب مؤخرًا من الحفرة، وقد خمد وخجل، عافيته تمامًا، واقفًا ومنتصبًا بين فخذي بولي، التي لم تكن ترغب، من جانبها، في استمالته وإبقائه في حالة مزاجية جيدة، تداعب رأسه، وتستقبل حتى طرفه المخملي بين شفتي فمه غير المناسب: لم أستطع الجزم ما إذا كان ذلك لجعله أكثر انزلاقًا وسهولة في الدخول؛ لكن كان له تأثير كبير، لدرجة أن الشاب بدا من عينيه اللتين تتألقان ببريق أكثر إثارة، ووجهه الملتهب، وكأنه يتلقى متعة متزايدة. نهض، وأخذ بولي بين ذراعيه، واحتضنها، وقال شيئًا بصوت خافت جدًا بحيث لم أسمعه، ثم قادها إلى أسفل الأريكة، واستمتع بصفع فخذيها ومؤخرتها بعضوه الصلب، الذي ضربها

بقوة بيده، مما جعلها ترتجف مرة أخرى، لكنه لم يؤذها بقدر ما كان ينوي إيذاءها، لأنها بدت وكأنها تستمتع بالمرح مثله.

لكن تخيلوا دهشتي عندما رأيت الشاب الكسول الماكر يستلقي على ظهره، ويسحب بولي برفق نحوه، فاستسلمت لمزاجه، وجلست فوقه، وبيديها قادت حبيبها الأعمى إلى المكان المناسب؛ وانطلقت باندفاع نحو رأس أداة المتعة المشتعلة، التي ثبتت نفسها عليها، مثقوبة، ومثبتة حتى أقصى عرض شعرة منها: وهكذا جلست عليه لبضع لحظات، مستمتعة ومتلذذة بوضعها، بينما كان يداعب ثدييها المثيرين. أحيانًا كانت تنحني لتقبله: لكن سرعان ما حفزتهما لذة النشوة على فعل أكثر شراسة؛ ثم بدأت عاصفة الرفعات، التي انطلقت من المقاتل الأدنى في نفس الوقت، وهو يعقد يديه فوقها، ويجذبها إليه بعنف حلو: سرعان ما أدت الضربات المقلوبة للسندان فوق المطرقة إلى الفترة الحرجة، والتي أخبرتنا فيها جميع علامات النشوة المتآمرة عن النقطة التي كانوا فيها.

أما أنا، فلم أعد أحتمل رؤية المزيد؛ فقد غمرني الغضب، واشتعلت فيّ مشاعري في الجزء الثاني من المسرحية نفسها، حتى أنني، وقد بلغ جنوني حداً لا يُطاق، احتضنت فيبي، كما لو كانت تملك القدرة على تخفيف معاناتي. لكنها، وقد سرّت بما شعرت به من تأثر، وشفقت عليّ، اتجهت نحو الباب، وفتحته بهدوء قدر استطاعتها، ونزلنا معاً دون أن يلاحظنا أحد، وأعادتني إلى غرفتي، حيث لم أستطع الوقوف على قدميّ من شدة الهياج الذي كنت فيه، فألقيت بنفسي على السرير، وبقيتُ غارقاً في مشاعري، رغم شعوري بالخجل مما كنت أشعر به.

استلقت فيبي بجانبي، وسألتني بسخرية: "هل ما زلتُ خائفةً من العدو بعد أن رأيته وتأملته جيدًا؟ أم أنني أظن أنني قادرة على مواجهته؟" لم أنبس ببنت شفة، وتنهدتُ بصعوبة. أمسكت بيدي، وبعد أن رفعت طرف ثوبها، دفعتني بها بصعوبة نحو تلك المناطق التي، بعد أن أصبحتُ أكثر درايةً بها، أخطأتُ فيها الهدف الأساسي لرغباتي؛ فلم أجد حتى ظلًا لما أردت، حيث كان كل شيء باهتًا أو أجوفًا، في غمرة انزعاجي. كنتُ سأسحب يدي لولا خوفي من إغضابها. فتركتها لها تمامًا، واستخدمتها كما يحلو لها، لتنال لنفسها ظل المتعة لا جوهرها. أما أنا، فقد كنت أتوق إلى طعامٍ أكثر دسامة، ووعدت نفسي ضمنيًا ألا أستمر في هذا الهراء النسائي، ما لم تُقدّم لي السيدة براون ما أحتاجه قريبًا. باختصار، كنت أشعر وكأنني لا أستطيع انتظار وصول سيدي ب، رغم أنه كان متوقعًا خلال أيام قليلة: ولم أنتظره، فقد سيطر الحب عليّ تمامًا، متجاوزًا أي مصلحة أو شهوة جامحة.

بعد يومين من مشهد الخزانة، استيقظت حوالي الساعة السادسة صباحاً، وتركت رفيقي في الفراش نائماً، وتسللت إلى الأسفل، ولم يكن لدي أي فكرة أخرى سوى استنشاق بعض الهواء النقي في حديقة صغيرة، والتي كانت غرفة جلوسنا الخلفية تفتح عليها، والتي منعني حبسي من دخولها في الأوقات التي كان يأتي فيها الضيوف إلى منزلي؛ ولكن الآن ساد النوم والصمت في كل مكان.

فتحتُ باب غرفة الجلوس، فدهشتُ حين رأيتُ، بجانب مدفأةٍ نصف مطفأة، شابًا يجلس على كرسيّ السيدة العجوز، وقد وضع ساقيه على كرسيّ آخر، غارقًا في نومٍ عميق، تركه رفاقه الطائشون هناك بعد أن أسكروه ثم انصرفوا جميعًا ما عدا سيدته، بينما بقي هو بفضل كرم السيدة العجوز التي لم تُزعجه أو تُخرجه في تلك الحالة في الواحدة صباحًا؛ أما الأسرّة، فمن المرجح جدًا أنه لم يكن هناك أسرّة شاغرة. وعلى الطاولة ما زال وعاء الشراب والأكواب مبعثرةً كعادتها بعد سهرةٍ صاخبة.

لكن عندما اقتربتُ لأرى ذلك الشارد النائم، يا إلهي! يا له من منظر! لا، لن تستطيع سنواتٌ ولا تقلباتُ الدهر أن تمحو ذلك الانطباع الخاطف الذي تركه شكله في نفسي. أجل! يا أغلى ما عشقتُ في صغري، سأحتفظ إلى الأبد بذكرى أول ظهور لك أمام عينيّ المفتونتين، إنها تستحضرك، حاضرًا؛ وها أنا أراك الآن.

تخيلي يا سيدتي، شاباً وسيماً بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من عمره، رأسه مائل على أحد جانبي الكرسي، وشعره مجعد بشكل غير منتظم، يحجب وجهاً، تضافرت فيه كل نضارة الشباب الوردية وكل الصفات الرجولية لتثبيت عيني وقلبي؛ حتى خمول وشحوب وجهه، الذي كان فيه

انتصار الزنبق على الوردة للحظات بسبب تجاوزات الليل، أعطى حلاوة لا توصف لأجمل ملامح يمكن تخيلها: عيناه، المغلقتان في النوم، أظهرتا حواف جفونهما المتقابلة والمحاطة برموش طويلة بشكل جميل؛ والتي لم يكن بإمكان أي قلم أن يرسم فوقها قوسين أكثر انتظاماً من تلك التي تزين جبهته، التي كانت عالية وبيضاء تماماً وناعمة؛ ثم بدا زوج من الشفاه القرمزية، المتدلية والمتورمة عند اللمس، كما لو أن نحلة قد لدغتها للتو، وكأنها تتحداني أن أخلع القفازات عن هذه النائمة الجميلة، لولا أن الحياء والاحترام، اللذين لا ينفصلان في كلا الجنسين عن الشغف الحقيقي، قد كبحا جماح دوافعي.

لكن عندما رأيت ياقة قميصه مفتوحة، وصدره أبيض من الثلج، لم تُغرِني لذة النظر إليه لأُطيلها، مُخاطرةً بصحتي التي أصبحت هاجسي الأكبر. الحب، الذي جعلني خجولة، علّمني الرقة أيضًا: أمسكتُ بيده المرتجفة، وأيقظته برفق، فانتفض، ونظر إليّ بذهول في البداية، وقال بصوتٍ عذبٍ ارتعش في قلبي: "يا صغيرتي، كم الساعة؟" أخبرته، وأضفتُ أنه قد يُصاب بنزلة برد إذا نام لفترة أطول وصدره مكشوف في نسمات الصباح الباردة. شكرني على ذلك بحلاوةٍ تُناسب تمامًا ملامحه وعينيه؛ ففتحت عيناه على اتساعهما، تُحدّق بي بشوق، حاملةً بريقها المُشرق إلى قلبي.

يبدو أنه بعد أن شرب بكثرة قبل أن يصادف ذلك الشاب المستهتر مع بعض رفاقه الشباب، لم يعد في حالة تسمح له بممارسة الجنس معهم، ثم يختتم ليلته بالبحث عن عشيقة؛ لذا عندما رآني بملابسي الفضفاضة، لم يشك في أنني إحدى فتيات المنزل، أُرسلت لتعويض وقته الضائع؛ ولكن على الرغم من أنه تبنى هذا الظن، وهو ظن واضح جدًا، دون تردد، إلا أنه سواء كان مظهري قد أثار إعجابه بشكل غير عادي، أو كان ذلك من باب أدبه الطبيعي، فقد خاطبني بطريقة بعيدة كل البعد عن الفظاظة، على الرغم من أنه كان لا يزال تحت تأثير إحدى فتيات المنزل اللاتي جئن لتسليته؛ ومنحني أول قبلة تذوقتها من رجل في حياتي، وسألني إن كان بإمكاني أن أمنحه صحبتي، مؤكدًا لي أنه سيجعلها تستحق وقتي: ولكن لو لم يكن حتى الحب الوليد، ذلك المُهذِّب الحقيقي للشهوة، يعارض مثل هذا الاستسلام المفاجئ، لكان الخوف من أن يفاجئه أهل المنزل كافيًا لمنعي من الموافقة.

أخبرته حينها، بنبرةٍ نابعةٍ من الحب نفسه، أنني لأسبابٍ لم يسعفني الوقت لشرحها له، لا أستطيع البقاء معه، وقد لا أراه ثانيةً، وتنهدتُ عند سماع هذه الكلمات التي انبثقت من أعماق قلبي. فُتنِيَ بجمالي، كما أخبرني لاحقًا، وأعجب بي إعجابًا شديدًا، كما لو كان يُعجب بأحدٍ مثلي، فسألني على الفور إن كنتُ أرغب في الإقامة عنده، وأنه سيؤمّن لي مسكنًا على الفور، ويُعفيني من أي التزاماتٍ قد تكون عليّ تجاه المنزل.

رغم أن هذا العرض كان متهورًا ومفاجئًا وغير مدروس، بل وخطيرًا، من شخص غريب تمامًا، وهذا الغريب فتى طائش، إلا أن الحب الجارف الذي انتابني تجاهه قد حوّل كل اعتراض إلى تحدٍّ: لم أقاوم، بل أعمى بصيرتي عن كل اعتراض؛ كنتُ في تلك اللحظة مستعدة للموت من أجله: تخيلوا لو استطعتُ مقاومة دعوة للعيش معه! وهكذا، قلبي، الذي كان ينبض بقوة استجابةً للعرض، أملى عليّ إجابتي، بعد لحظة صمت، بأنني سأقبل عرضه، وأهرب إليه بالطريقة التي يراها مناسبة، وأنني سأكون تحت تصرفه تمامًا، سواء كان ذلك خيرًا أم شرًا. لطالما تساءلت منذ ذلك الحين كيف أن هذه السهولة الكبيرة لم تثير اشمئزازه، أو تجعلني رخيصة للغاية في عينيه، ولكن قدري قد شاء ذلك، ففي خوفه من مخاطر المدينة، كان يبحث لبعض الوقت عن فتاة ليأخذها معه، وعندما وقعت عيناه عليّ، وبإحدى تلك المعجزات التي يحتفظ بها الحب، أبرمنا الصفقة في تلك اللحظة، والتي ختمناها بتبادل القبلات، والتي دفعته آماله في الاستمتاع بها دون انقطاع إلى الاكتفاء بها.

لكن لم يسبق لشاب عزيز أن حمل في رأسه ما يبرر له أن يدير رأس فتاة، ويجعلها تتحدى كل العواقب، من أجل اتباع فارس نبيل.

فإلى جانب كل مظاهر الجمال الرجولي التي اجتمعت في هيئته، كان يتمتع بهيبة وأناقة، ولمسة من الرقي في وقفة رأسه، مما زاد من تميزه؛ كانت عيناه نابضتين بالحياة ومليئتين بالمعنى؛ كانت نظراته تحمل في طياتها شيئًا حلوًا وآمرًا في آن واحد؛ كان لون بشرته يفوق جمال الوردة الملونة،

في حين أن توهجها الرقيق والنابض بالحياة الذي لا يضاهى أنقذها بوضوح من عيب فقدان الحياة، أو كونها نيئة وشبيهة بالعجين، وهو ما يُطلق عادةً على من يتمتعون بجمال فائق مثله.

كانت خطتنا الصغيرة هي أن أخرج حوالي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي (وهو ما يمكنني أن أعد به بسهولة، لأنني كنت أعرف من أين أحصل على مفتاح باب الشارع) وسينتظر في نهاية الشارع مع عربة لنقلي بأمان؛ وبعد ذلك، سنرسل ونسدد أي دين تكبدته بسبب إقامتي عند السيدة براون، التي، كما اعتقد فقط، قد لا ترغب في التخلي عن شخص، كما اعتقد، مناسب لجذب الزبائن إلى المنزل.

ثم ألمحتُ له ألا يذكر في المنزل أنه رآني، لأسباب سأشرحها له لاحقًا. وبعد ذلك، خوفًا من الإجهاض إذا رآني معه، انفصلتُ عنه بقلبٍ دامٍ، وتسللتُ بهدوء إلى غرفتي، حيث وجدتُ فيبي لا تزال نائمة، فأسرعتُ بخلع ملابسي القليلة، واستلقيتُ بجانبها، بمزيج من الفرح والقلق، قد يكون من الأسهل تصوره من وصفه.

تلاشت مخاطر اكتشاف السيدة براون لغايتي، ومخاطر خيبات الأمل والبؤس والخراب، أمام هذه الشعلة المشتعلة حديثًا. كانت رؤية هذا المعبود الذي عشقته، ولمسه، والتواجد معه، ولو لليلة واحدة، سعادةً تفوق ثمن حريتي أو حياتي. قد يسيء معاملتي، فليفعل: فهو السيد، سعيد، سعيد جدًا، حتى أنه لا يرضى بالموت على يده العزيزة.

لهذا الغرض كانت تأملاتي في اليوم بأكمله، الذي بدت لي كل دقيقة منه وكأنها دهر. كم مرة نظرت إلى الساعة! بل كدتُ أُغرى بتحريك عقربها البطيء، وكأن ذلك سيُسرّع الوقت! لو كان لدى أهل البيت أدنى ملاحظة عليّ، لكانوا قد لاحظوا شيئًا غريبًا من الارتباك الذي لم أستطع إخفاءه؛ خاصةً عندما ذُكر على العشاء أن شابًا وسيمًا كان هناك، وبقي لتناول الإفطار. "يا له من وسيم!... كنتُ لأموت من أجله!... كانوا سيُعجبون به بشدة!..." وما شابه ذلك من هراء؛ وهو ما كان بمثابة صب الزيت على نار كنتُ مُجبرًا على إخمادها.

أثمرت تقلبات أفكاري طوال اليوم أثراً إيجابياً واحداً: وهو أنني، بسبب الإرهاق الشديد، نمتُ نوماً هانئاً إلى حدٍ ما حتى الخامسة صباحاً، حين نهضتُ، وبعد أن ارتديتُ ملابسي، انتظرتُ، تحت وطأة الخوف والترقب، الساعةَ المُحددة. وأخيراً حانت، الساعةُ الحاسمةُ والخطيرة؛ والآن، مدفوعاً فقط بالشجاعة التي منحني إياها الحب، تجرأتُ، على أطراف أصابعي، على النزول إلى الطابق السفلي، تاركاً صندوقي خلفي، خشية أن يُفاجأ بي أحدهم به عند خروجي.

وصلتُ إلى باب الشارع، الذي كان مفتاحه دائمًا موضوعًا على الكرسي بجانب سريرنا، أمانةً لدى فيبي، التي لم تكن لديها أدنى شك في أنني أنوي الرحيل عنهما (ولم أكن أنا أيضًا، إلا في اليوم السابق)، فلم تُخفِ الأمر عني. فتحتُ الباب بسهولة بالغة؛ فالحب، الذي شجعني، حماني أيضًا: والآن، وقد وصلتُ إلى الشارع بأمان، رأيتُ ملاكي الحارس الجديد ينتظر عند باب عربة، جاهزًا للفتح. لا أدري كيف وصلتُ إليه: أظن أنني طرتُ؛ لكنني كنتُ في العربة في لمح البصر، وكان بجانبي، يحيطني بذراعيه، ويُقبّلني ترحيبًا. كان سائق العربة قد تلقى أوامره، وانطلق بهم.

امتلأت عيناي بالدموع على الفور، لكنها كانت دموع فرح عظيم؛ فقد وجدت نفسي بين ذراعي ذلك الشاب الوسيم، فكانت نشوةً غمرت قلبي الصغير؛ الماضي والمستقبل كانا مستبعدين تمامًا بالنسبة لي؛ أما الحاضر فكان كل ما أملك من قوة الحياة لأتحمله دون أن أغشى عليّ. ولم تكن أرقّ العناقات وألطف التعابير من جانبه لتغيب عني، لتؤكد لي حبه، ولن تجعلني أندم أبدًا على الخطوة الجريئة التي اتخذتها، حين ألقيت بنفسي كليًا بين يديه وكرمه. ولكن، للأسف! لم يكن هذا من فضلي، فقد دفعني إليه شغفٌ جارفٌ لم أستطع مقاومته، وفعلت ما فعلت، لأنني لم أكن أملك حيلةً.

في لحظة، لأن الزمن قد تلاشى معي الآن، وجدنا أنفسنا في حانة عامة في تشيلسي، مضيافة بشكل رائع لاستقبال حفلات ثنائية ممتعة، حيث تم إعداد فطور من الشوكولاتة لنا.

تناول معنا الإفطار رجل عجوز مرح، كان يدير المكان ويفهم الحياة جيداً، وكان ينظر إليّ بنظرة ساخرة، مما أسعدنا جميعاً، وقال: "لقد كنا ثنائياً رائعاً، صدقوني! لقد استضاف منزله الكثير من السادة والسيدات، لكنه لم يرَ قط زوجين أكثر وسامة... كان متأكداً من أنني فتاة جديدة... أبدو ريفية

وبريئة! حسناً، زوجي رجل محظوظ!..." كل هذا، وهو كلام شائع بين أصحاب المنازل، لم يُسعدني ويُهدئني فحسب، بل ساعد أيضاً في تبديد حيرتي من التواجد مع زوجي الجديد، الذي بدأت أخشى، مع اقتراب اللحظة، أن أكون وحدي معه: خجل كان للحب الحقيقي فيه نصيب أكبر حتى من خجل الفتاة.

تمنيتُ، بل تمنيتُ بشدة، حتى أنني كنتُ مستعدةً للموت من أجله؛ ومع ذلك، لا أدري كيف أو لماذا كنتُ أخشى تلك اللحظة التي كانت محور أشدّ أمنياتي؛ كانت نبضات قلبي تخفق خوفًا، وسط فيض من أدفأ الرغبات. هذا الصراع بين المشاعر، هذا التناقض بين الحياء والشوق العارم، جعلني أنفجر بالبكاء مجددًا؛ وهو ما اعتبره، كما فعل من قبل، مجرد بقايا قلق وانفعال إزاء التغير المفاجئ في حالتي، حين أوكلتُ نفسي إليه؛ ونتيجةً لذلك، فعل وقال كل ما ظن أنه سيُريحني ويُعيد إليّ الأمل.

بعد الإفطار، أمسك تشارلز (الاسم العزيز المألوف الذي يجب أن أسمح لنفسي من الآن فصاعدًا بتمييز أدونيس الخاص بي) بيدي برفق وبابتسامة مليئة بالمعنى، وقال: "تعالي يا عزيزتي، سأريكِ غرفة تطل على منظر رائع لبعض الحدائق"؛ ودون انتظار إجابة، وهو ما أراحني للغاية، اصطحبني إلى غرفة واسعة ومشرقة، حيث كان من المستحيل رؤية أي مناظر، باستثناء السرير، الذي كان يحمل كل دلالات التوصية بالغرفة له.

كان تشارلز قد فتح مزلاج الباب للتو، وركض، وأمسك بي بين ذراعيه، ورفعني عن الأرض، وشفتيه ملتصقتان بشفتيّ، وحملني وأنا أرتجف وألهث، وأموت بمخاوف خفيفة ورغبات رقيقة، إلى السرير؛ حيث لم يسمح له نفاد صبره بتجريدي من ملابسي، أكثر من مجرد فك منديلتي وفساتيني، وفك رباط مشدي.

كان صدري الآن عارياً، ينتصب بنبضات دافئة، عارضاً أمام عينيه ولمساته انتفاخاً صلباً لصدر فتاة يافعة، كما يُتصور صدر فتاة لم تبلغ السادسة عشرة بعد، قادمة حديثاً من البلاد، ولم يسبق لأحد أن لمسها: لكن حتى كبرياءهما، وبياضهما، وأناقتهما، ومقاومتهما الممتعة للمس، لم تستطع أن تروض يديه المضطربة عن التجوال؛ ولكن، بمجرد أن ارتختا، سرعان ما رفعت تنورتي الداخلية وقميصي، وكشفت عن مركز جاذبيتهما الأقوى لغزوهما الرقيق. ومع ذلك، جعلتني مخاوفي أضم فخذي آلياً؛ لكن مجرد لمسة يده تسللت بينهما، وكشفتهما، وفتحت الطريق للهجوم الرئيسي.

في هذه الأثناء، كنت مستلقية مكشوفة تمامًا لفحص عينيه ويديه، هادئة وغير مقاومة؛ مما أكد له الرأي الذي انطلق منه باستخفاف، وهو أنني لست مبتدئة في هذه الأمور، لأنه أخرجني من بيت دعارة عادي، ولم أقل شيئًا واحدًا يوحي له بعذريتي؛ ولو فعلت، لكان سيصدق أنني اتخذته ساذجًا يبتلع مثل هذا الاحتمال، بدلًا من أنني ما زلت سيدة ذلك الكنز العزيز، ذلك المنجم الخفي، الذي يسعى إليه الرجال بشدة، والذي لا يحفرون من أجله أبدًا، بل يدمرونه.

بعد أن بلغ من الإثارة حداً لا يسمح له بتحمل أي تأخير، فك أزراره، وأخرج آلة هجمات الحب، ودفعها بقوة، كما لو كانت على ثغرة جاهزة... ثم! ثم! لأول مرة، شعرت بذلك الغضروف الصلب كالقرن، يضرب الجزء الحساس؛ لكن تخيل دهشته، عندما وجد، بعد عدة دفعات قوية، آلمتني بشدة، أنه لم يترك أدنى أثر.

اشتكيت، ولكن برقة: "لم أستطع تحمل ذلك... لقد آذاني حقًا!..." ومع ذلك، لم يفكر في شيء أكثر من كونه شابًا جدًا، وحجم آلته (إذ قلّما يستطيع الرجال مجادلته في الحجم) هو ما سبب كل هذه الصعوبة؛ وربما لم يستمتع بي أحدٌ يتمتع بمثل هذه الميزة في ذلك الجزء مثله: لأنه مع ذلك، لم يخطر بباله أبدًا أن زهرتي العذراء لم تُقطف بعد، وكان سيعتبر سؤالي عنها مضيعة للوقت والكلام.

حاول مجددًا، لكن دون جدوى، ودون أي اختراق؛ لكنه زاد من ألمي، بينما جعلني حبي الشديد أتحمل ألمًا مبرحًا، دون أن أتأوه تقريبًا. أخيرًا، وبعد محاولات متكررة لا طائل منها، استلقى يلهث بجانبي، وقبّل دموعي المتساقطة، وسألني بحنان: "ما معنى كل هذا التذمر؟ ألم أتحمل الألم بشكل أفضل من غيره؟" أجبته ببساطة مصاغة للإقناع، أنه أول رجل خدمني هكذا. الحقيقة قوية، وليس دائمًا أننا لا نصدق ما نتمناه بشدة.

تشارلز، الذي كان قد اقتنع بالفعل من خلال الأدلة، من خلال حواسه، بأن ادعاءاتي بالعذرية ليست ملفقة تمامًا، يغمرني بالقبلات، ويتوسل إليّ، باسم الحب، أن أتحلى ببعض الصبر، وأنه سيكون لطيفًا معي كما سيكون لطيفًا مع نفسه.

يا للأسف! كان يكفي أنني عرفت مدى سعادته بالخضوع له بفرح، مهما كان الألم الذي توقعته، بالنسبة لي.

ثم استأنف محاولاته بشكل أكثر وضوحًا: أولًا، وضع إحدى الوسائد تحتي ليرفع هدفه بشكل أفضل، ووضع أخرى تحت رأسي ليسهل عليه الأمر؛ ثم باعد بين فخذي، ووقف بينهما، وجعلهما تستقران على فخذيه؛ ثم وجه طرف عضوه إلى الفتحة التي أراد الدخول منها، وكانت صغيرة جدًا لدرجة أنه لم يستطع التأكد من توجيهه بشكل صحيح. نظر، وتحسس، وتأكد من ذلك: ثم دفع بقوة، فكسرت صلابته الهائلة، التي انضغطت كالإسفين، اتصال تلك الأجزاء، وتمكن من إدخال طرفه حتى وصل إلى حافة الفتحة؛ ولما شعر بذلك، عزز موقفه، وتابع ضربته جيدًا في خط مستقيم، فزاد من عمق اختراقه؛ لكنه سبب لي ألمًا لا يُطاق، من انفصال جانبي تلك الفتحة الرخوة بجسم صلب سميك، حتى كدت أصرخ. لكن، ولأنني لم أكن أرغب في إثارة ذعر المنزل، حبست أنفاسي، وحشرت تنورتي الداخلية، التي كانت مرفوعة فوق وجهي، في فمي، وعضضتها من شدة الألم. وأخيرًا، عندما استسلمت رقة ذلك الموضع لتمزق عنيف، غرز شيئًا ما في داخلي: والآن، وقد فقد السيطرة على نفسه، وانقاد وراء غضب ذلك العضو الجامح، الذي كان يبذل جهدًا هائلاً، اقتحم جسدي، وحمل كل ما أمامه، وبطعنة واحدة عنيفة لا ترحم، أرسله ملطخًا بدماء عذراء، حتى آخره في داخلي... حينها! حينها تخلت عني كل عزيمتي: صرخت، وأغمي عليّ من شدة الألم؛ وكما أخبرني لاحقًا، عندما انسحب، بعد أن انتهى من القذف، امتلأت فخذي على الفور بسيل من الدماء، تدفقت من الممر الممزق.

عندما استعدت وعيي، وجدت نفسي عارية على السرير، بين ذراعي قاتل عذريتي الرقيق الرحيم، الذي كان ينوح عليّ بحنان، وفي يده شراب منعش، لم أستطع رفضه لأنه جاء من الشخص الذي لا يزال عزيزًا عليّ والذي سبب لي كل هذا الألم؛ لكن عيناي، وقد امتلأتا بالدموع، ونظرتا إليه بحزن، بدتا وكأنهما تعاتبانه على قسوته، وتسألانه، هل هذه هي مكافآت الحب؟ لكن تشارلز، الذي أصبحتُ الآن مغرمة به إلى ما لا نهاية بسبب انتصاره الكامل على عذريتي، حيث لم يكن يتوقع أن يجد واحدة، في رقة ذلك الألم الذي سببه لي، وفي سعيه لتحقيق ذروة المتعة، كبح ابتهاجه، وانشغل بكل حلاوة ودفء لتهدئتي ومداعبتي ومواساتي في شكواي الرقيقة، التي كانت في الواقع تنضح بالحب أكثر من الاستياء، حتى أنني غرقت على الفور في كل إحساس بالألم في متعة رؤيته، وفي التفكير بأنني أنتمي إليه: هو الذي أصبح الآن المتحكم المطلق في سعادتي، وبكلمة واحدة، في مصيري.

إلا أن الجرح كان شديد الحساسية، والجرح ينزف حديثًا، بحيث لم يكن من الممكن لطيبة قلب تشارلز أن تضع صبري في اختبار آخر؛ ولكن بما أنني لم أستطع التحرك أو المشي عبر الغرفة، فقد أمر بإحضار العشاء إلى جانب السرير، حيث لم يكن هناك خيار آخر سوى أن أتناول جناح دجاجة، وكأسين أو ثلاثة من النبيذ، لأن شابي المحبوب هو من قام بتقديمها لي، وحثني عليها، بتلك السلطة الحلوة التي لا تقاوم والتي منحه إياها الحب عليّ.

بعد العشاء، وبعد إزالة كل شيء ما عدا النبيذ، طلب تشارلز بوقاحة شديدة إذناً، ربما يقرأ الموافقة في عيني، ليأتي إلى الفراش معي، وبناءً على ذلك بدأ في خلع ملابسه؛ وهو أمر لم أستطع رؤية تقدمه دون مشاعر غريبة من الخوف والمتعة.

هو الآن في الفراش معي للمرة الأولى، وفي وضح النهار؛ لكن بينما كان يرفع قميصه وقميصي الداخلي، وضع جسده العاري المتوهج على جسدي... يا له من سرور لا يُطاق! يا له من نشوة خارقة! أي ألم يمكن أن يصمد أمام متعة كهذه؟ لم أعد أشعر بألم جروحي في الأسفل؛ لكنني، وأنا ألتف حوله كغصن كرمة، كما لو كنت أخشى أن يبقى أي جزء منه دون أن ألمسه أو أضغط عليه،

بادلته عناقه وقبلاته الحارة بشغف وحرارة لا يعرفها إلا الحب الحقيقي، ولا تصل إليها مجرد الشهوة.

نعم، حتى في هذه اللحظة، وقد انتهى طغيان الأهواء تمامًا، ولم تعد عروقي تتدفق إلا كجدول بارد هادئ، فإن ذكرى تلك اللحظات التي أثرت بي بشدة في شبابي لا تزال تُبهجني وتُنعشني؛ دعوني أتابع إذن. لقد كان شبابي الجميل ملتصقًا بي الآن في كل ثنايانا والتواءاتنا التي استطعنا أن نجعل أجسادنا تلتقي فيها؛ عندما لم يعد قادرًا على كبح جماح رغباته المتجددة، أطلق العنان لرغباته، وأدخل فخذيه برفق بين فخذي، وأسكت فمي بقبلات من نار رطبة، وأحدث ثورة جديدة، وجدد دفعاته، وثقب، ومزق، وشق طريقه عبر الطيات الرقيقة الممزقة، التي سمحت له بالدخول بوخزة أقل حدة بقليل مما كانت عليه عندما حدث الاختراق لأول مرة. ومع ذلك، كتمت صرخاتي، وتحملته بصبر البطلة السلبي؛ سرعان ما أعلنت دفعاته، التي أصبحت أكثر شراسة، ووجنتاه متوردتان بلون قرمزي أعمق، وعيناه مرفوعتان في نوبة حماسية، وبعض التنهدات المحتضرة، وارتعاشة مؤلمة، عن اقتراب تلك المتعة النشوية، التي كنت لا أزال أعاني من ألم شديد يمنعني من الحصول على نصيبي منها.

لم أصل إلى ذروة اللذة إلا بعد أن خدرت بعض المتع إحساسي بالألم، ومنحتني إحساسًا بنشوة الحلويات البلسمية، وسحبت مني تلك اللذة اللذيذة، وأخمدت كل شغفي، عندها فقط وصلت إلى ذروة المتعة من خلال الألم المفرط. ولكن، عندما انقطعت ارتباطاتي المتتالية وأصابتني بالخمول، بدأت أستمتع حقًا بتلك اللذة الخالصة، لذة المتع، حين يتدفق الدفء في كل أحشائي المنهكة؛ يا لها من فيضان من النعيم! يا لها من نشوة ذائبة! يا لها من آلام لذة! أشدّ وأعظم من أن تتحملها الطبيعة؟... حسنًا، لقد وفرت لنا، بلا شك، راحةً من ذوبان لذيذ مؤقت، يُنذر به هذيانٌ عزيز، ورعشة حلوة، على وشك إطلاق تلك الحلويات السائلة، التي تغرق فيها المتعة نفسها، حين يتمدد المرء بثقل، ويموت عند القذف.

كم مرة، بعد أن هدأت حدة غضب حواسي واضطرابها، عقب تلك اللحظة الساحرة، سألت نفسي بهدوء، في تأمل رقيق، هل من طبيعة أي من مخلوقاتها أن يكون سعيدًا مثلي؟ أو ما هي كل مخاوف العواقب، إذا ما قورنت بمتعة ليلة واحدة، بأي شيء كان مذاقه متعاليًا على عيني وقلبي، مثل تلك الشباب اللذيذ، والحنون، الذي لا مثيل له.

وهكذا أمضينا فترة ما بعد الظهر بأكملها، حتى وقت العشاء، في دوامة متواصلة من متع الحب، نتبادل القبلات، ونداعب بعضنا، ونلعب، ونستمتع بكل ما يصاحب الوليمة. وأخيرًا، قُدِّم العشاء، وقبل ذلك كان تشارلز قد ارتدى ملابسه، لسبب لا أعرفه. وجلسنا بجانب السرير، وحوّلنا السرير والملاءات إلى مائدة، ولم يسمح لأحد أن يخدمه أو يخدمه سواه. تناول طعامه بشهية مفتوحة، وبدا مسرورًا لرؤيتي آكل. أما أنا، فقد كنت غارقة في نشوة المقارنة بين المتع التي أعيشها الآن، وبين رتابة كل ما مررت به في حياتي، حتى أنني اعتبرتها رخيصة بما يكفي، حتى لو كان ثمنها خرابي، أو خطر زوالها. لم يكن في مخيلتي الصغيرة سوى ما تملكه الآن.

استلقينا معاً في تلك الليلة، عندما، بعد أن لعبنا جوائز متكررة من المتعة، سلمتنا الطبيعة، وقد استنفدت طاقتها ورضيت، إلى أحضان النوم: أحاطت بي ذكريات شبابي العزيز، مما جعل حتى ذلك النوم أكثر لذة.

استيقظت في وقت متأخر من الصباح، أولاً؛ ولاحظت حبيبي وهو نائم بعمق، فانفصلت بهدوء عن ذراعيه، بالكاد أجرؤ على التنفس، خوفًا من تقصير نومه؛ كانت قبعتي وشعري وقميصي كلها في حالة فوضى، بسبب العبث الذي تعرضت له؛ وانتهزت هذه الفرصة لترتيبها وتنسيقها بأفضل ما أستطيع: بينما كنت أنظر بين الحين والآخر إلى الشاب النائم، بمودة وسرور لا يمكن تصورهما، وأفكر في كل الألم الذي سببه لي، وأعترف ضمنيًا بأن المتعة قد عوضتني أكثر من معاناتي.

كان النهار قد طلع. كنتُ جالسةً على السرير، وقد تبعثرت ملابسه أو تدحرجت بعيدًا بفعل حركتنا المضطربة، تحت حرارة الجو اللاهبة؛ ولم أستطع مقاومة لذةٍ استهوتني بشدة، كهذه الفرصة الجميلة لأستمتع بجمال شبابه الذي كنتُ أتمتع به، والذي كان الآن شبه عارٍ، وقميصه مربوطٌ في خصلةٍ

رقيقة، جعلتني حرارة الجو والغرفة أشعر بالراحة حيال عواقب ذلك. انحنيتُ نحوه مفتونةً به حقًا! والتهمتُ كل مفاتنه العارية بعينيّ الاثنتين فقط، بينما كنتُ أتمنى لو كان لديّ مئة عينٍ على الأقل لأستمتع بالنظر إليه أكثر.

آه! لو أستطيع أن أرسم هيئته كما أراها الآن، ما زالت حاضرة في مخيلتي الجامحة! طول كامل لجمال رجولي كامل في أبهى صوره. تخيل وجهاً بلا عيب، متوهجاً بكل نضارة وإشراقة عصرٍ، حيث الجمال لا يقتصر على جنس دون آخر، والذي بالكاد بدأت أولى خصلات شعره فوق شفته العليا في تمييزه.

بدا أن انفتاح شفتيه ذواتي اللون الأحمر الياقوتي المزدوج ينفث هواءً أحلى وأنقى مما استنشقه: آه! كم كان عنفًا لم يكلفني كبح جماح تلك القبلة المغرية!

ثم رقبة ملتوية بشكل رائع، محفورة من الخلف وعلى الجانبين بشعر ناعم، يلعب بحرية في حلقات طبيعية، تربط رأسه بجسد ذي شكل مثالي للغاية، وبنية قوية للغاية، حيث كانت كل قوة الرجولة مخفية، ومخففة المظهر برقة بشرته، ونعومة جلده، وامتلاء لحمه.

كانت قاعدة صدره الأبيض كالثلج، المصممة بنسبة رجولية، تُظهر، على قمة كل حلمة قرمزية، فكرة وردة على وشك التفتح.

ولم يمنعني قميصه من ملاحظة تناسق أطرافه، ودقة شكله، في انحداره نحو منطقة العانة، حيث ينتهي الخصر ويبدأ انتفاخ الوركين المستدير؛ حيث يلمع الجلد الأملس والناعم والأبيض المبهر؛ واللحم المتماسك والممتلئ والناضج، الذي يتجعد ويتحول إلى غمازات عند أدنى ضغط، أو الذي لا يمكن للمس أن يستقر عليه، بل ينزلق على سطح العاج الأكثر صقلاً.

بدت فخذاه، المنحوتتان بدقة، والمستديرتان اللامعتان، واللتان تتناقصان تدريجياً نحو الركبتين، كأعمدة جديرة بدعم ذلك الجسد الجميل الذي لم أستطع، دون بعض بقايا الرعب، وبعض المشاعر الرقيقة أيضاً، أن أثبت عيني على تلك الآلة الرهيبة، التي اقتحمت، قبل وقت ليس ببعيد، بغضب شديد، ومزقت، وكادت أن تدمر تلك الأجزاء الرقيقة والحساسة من جسدي، والتي لم تكن قد انتهت بعد من الشعور بالألم من آثار غضبها؛ ولكن انظر إليها الآن! قمتها ساقطة، ورأسها القرمزي نصف المغطى بعباءة مستلقي على إحدى فخذيه، هادئة، ومرنة، وعلى ما يبدو غير قادرة على الأذى والقسوة التي ارتكبتها. ثم إن نمو الشعر الجميل، في تجعيدات قصيرة وناعمة حول جذوره، وبياضه، وعروقه المتفرعة، ونعومة ساقه المرنة، كما لو كان قصيرًا، ملفوفًا ومنكمشًا في سمك مكتنزة، مترهلًا، ومرفوعًا من بين فخذيه، بواسطة زائدته الكروية، تلك الحقيبة الرائعة من كنوز الطبيعة، التي تلتف حوله، وتتجمع في التجاعيد الوحيدة المعروفة بإرضاء النفس، أكملت المنظر، وشكلت مجتمعة أكثر الصور المتحركة إثارة للاهتمام في الطبيعة، وهي بالتأكيد تتفوق بشكل لا نهائي على تلك العري التي يقدمها الرسامون أو النحاتون أو أي فن آخر، والتي تُشترى بأسعار باهظة؛ في حين أن رؤيتها في الحياة الواقعية لا يتذوقها إلا القليل ممن وهبتهم الطبيعة نار الخيال، التي توجهها حقيقة الحكم بحرارة إلى منبع الجمال، وأصوله، وتكوين الطبيعة الذي لا مثيل له، فوق كل تقليد الفن، أو القدرة على دفع ثمنها.

لكن لكل شيء نهاية. حركة قام بها هذا الشاب الملائكي، في خمول ما بعد النوم، أعاد قميصه وملابس فراشه في وضعية أغلقت ذلك الكنز عن الأنظار لفترة أطول.

استلقيتُ حينها، ووضعتُ يديّ على ذلك الجزء من جسدي الذي بدأت فيه الأشياء التي رأيتها للتو تُثير فيه تمرداً تغلب على ألمها، فانفتحت أصابعي الآن بسهولة؛ ولكن لم يكن لديّ وقتٌ طويلٌ لأتأمل الفرق الشاسع بين الفتاة والمرأة التي أصبحت الآن جاهزة، قبل أن يستيقظ تشارلز، ويلتفت نحوي، ويسألني بلطف كيف استرحت؟، وبالكاد يمنحني الوقت للإجابة، طبع على شفتيّ إحدى قبلاته الحارقة، التي أشعلت لهيباً في قلبي، ومن هناك أشعّ إلى كل جزء مني؛ وبعد قليل، كما لو كان ينوي الانتقام بفخرٍ لإطلالتي الخفية على جميع حسناواته العارية، خلع أغطية الفراش، وربط قميصي لأعلى ما يمكن، وأخذ دوره ليُمتع عينيه بكل ما أنعمت به الطبيعة على جسدي؛ كما تجولت يداه المشغولتان بعنف على كل جزء مني. كانت قسوة صدري النامي غير الناضج، وبياض بشرتي

وتماسكها، ونضارة ملامحي وانتظامها، وتناسق أطرافي، كلها أمورٌ تُؤكد له رضاه عن صفقته؛ ولكن عندما انتابه الفضول لاستكشاف ما أحدثه من دمارٍ في قلب هجومه الشرس، لم يكتفِ بتوجيه يديه إلى هناك، بل وضع وسادةً تحتي، وأجلسني في وضعٍ يُسهّل عليه غرضه الشهواني في الفحص. حينها، من يستطيع وصف بريق عينيه وتوهج يديه! بينما كانت تنهدات اللذة وصيحات الإعجاب الرقيقة هي كل ما استطاع قوله من كلمات إطراء. في هذه الأثناء، رفعت آلته نحوي بصلابة، فسمحت لي برؤيتها في أوج قوتها وجمالها. لمسها بنفسه، وبدا مسرورًا بحالتها، وبابتسامةٍ حانيةٍ رقيقة، أمسك بإحدى يديّ، وحملها برفقٍ إلى هذا الجمال الطبيعي، وإلى أروع تحفةٍ فنيةٍ فيه.

وأنا أكافح بصعوبة، لم أستطع إلا أن أشعر بما لم أستطع الإمساك به، عمود من العاج الأبيض الناصع، تتخلله عروق زرقاء بديعة، ويحمل، دون غطاء، رأسًا بلون قرمزي نابض بالحياة: لا يوجد قرن أصلب أو أقسى منه؛ ومع ذلك لا يوجد مخمل أنعم أو ألذ ملمسًا. بعد قليل، أرشد يدي إلى أسفل، إلى ذلك الجزء الذي تحفظ فيه الطبيعة والمتعة مخزونهما بتناغم، مثبتين ومعلقين ببراعة على جذر آلتهما الأولى وخادمهما، حتى أنه يمكن وصفه، عن حق، بحامل محفظتهما أيضًا: هناك جعلني أشعر بوضوح، من خلال غطائهما الناعم، بالمحتويات، زوج من الكرات المستديرة، بدت وكأنها تلعب في الداخل، وتفلت من كل ضغط، إلا أرقها، من الخارج.

لكن الآن، هذه اللمسة الناعمة الدافئة من يدي، على تلك المناطق الحساسة، أشعلت فيّ غضبًا جامحًا، متجاهلًا كل مقدمات، ومستغلًا وضعيتي المريحة، جعل العاصفة تهب حيث لم أتوقعها بصبر، وحيث كان متأكدًا من أنها ستتنزل: بعد قليل، شعرت بالتقاطع الصلب بين شفتي الجرح المتشققتين، المفتوحتين الآن مدى الحياة؛ حيث لم يعد الضيق يسبب لي ألمًا لا يطاق، ولم يسبب لحبيبي أي صعوبة أكثر مما زاد من متعته، في العناق المحكم لذلك الغلاف الرقيق الدافئ، حول الأداة التي تم ضبطها بدقة، والتي استقرت الآن، وأغرقتني بالمتعة، حتى أنها خنقتني تمامًا وأخذت أنفاسي؛ ثم الطعنات القاتلة! القبلات التي لا تعد ولا تحصى! كل واحدة منها كانت فرحة لا توصف؛ وتلك الفرحة ضاعت في حشد من النعيمات الأكبر! لكن هذا كان اضطرابًا عنيفًا للغاية بطبيعته بحيث لا يدوم طويلًا: فالأواني، التي تم تحريكها وتسخينها بشدة، سرعان ما فاضت، وأخمدت النار في ذلك الوقت؛ وفي الوقت نفسه، استهلك كل هذا اللهو والمرح الصباح حتى الآن، لدرجة أنه أصبح من الضروري دمج وجبتي الإفطار والغداء في وجبة واحدة.

في لحظات هدوئنا، روى تشارلز عن نفسه ما يلي، وكل كلمة فيه صحيحة. كان الابن الوحيد لأبٍ كان يشغل وظيفة متواضعة في مصلحة الضرائب، وكان يُسرف في الإنفاق، ولم يُوفر لهذا الشاب تعليمًا يُذكر. لم يُربِّه على مهنةٍ مُعينة، بل كان يُخطط لتأمين مستقبله في الجيش بشراء رتبة ملازم له، أي بشرط أن يتمكن من تدبير المال، أو الحصول عليه عن طريق الفائدة، وكلا الشرطين كان أقرب إلى التمني منه إلى الرجاحة. مع ذلك، لم يكن هذا أفضل حالًا، فقد سمح والده المُبذر لهذا الشاب، الشاب الواعد، أن يعيش حتى سن الرشد، أو ما يقاربها على الأقل، في خمولٍ مُفرط. ولم يُعرِّفه، علاوة على ذلك، حتى أبسط التحذيرات من رذائل المدينة، ومخاطرها المُتنوعة التي تُحدق بالجاهل وغير المُدرك. كان يعيش في المنزل، ويتمتع بحرية التصرف مع والده الذي كان بدوره على علاقة بعشيقة. أما فيما عدا ذلك، فطالما لم يطلب تشارلز منه مالًا، كان والده لطيفًا معه بتساهل: كان بإمكانه الكذب متى شاء، وأي عذر كان يكفيه، وحتى توبيخاته كانت طفيفة لدرجة أنها بدت وكأنها تواطؤ معه في الخطأ أكثر من كونها رقابة أو إجبارًا جادًا. ولكن، لتلبية احتياجاته المالية، كان لتشارلز، الذي توفيت والدته، جدة بجانبها، كانت تعشقه. كانت لديها معاش سنوي كبير تعيش عليه، وكانت تنفق بانتظام كل شلن تستطيع توفيره على هذا الحبيب، مما كان يثير حفيظة والده بشدة؛ الذي لم يكن منزعجًا لأنها، بهذه الطريقة، كانت تغذي إسراف ابنه، بل لأنها كانت تفضل تشارلز عليه. وسنرى قريبًا إلى أي مدى يمكن أن تؤثر هذه الغيرة الأنانية على قلب الأب.

ومع ذلك، تمكن تشارلز، بفضل حنان جدته المفرط، من الاحتفاظ بعشيقة، راضية بسهولة كما جعلني حبي لها؛ وقد وضعني حظي السعيد، كما يجب أن أسميه دائماً، في طريقه، بالطريقة المذكورة أعلاه، تماماً كما كان يبحث عن واحدة.

أما عن طبعه، فقد جعلته حلاوته المتوازنة يبدو وكأنه خُلق للسعادة الأسرية: رقيق، مهذب بالفطرة، ولطيف الأخلاق؛ لا يمكن أن يكون ذنبه أبدًا، إذا ما أزعجت خلافات أو عداوات هدوءه الذي كان مؤهلًا تمامًا للحفاظ عليه أو استعادته. فبدون تلك الصفات العظيمة أو البراقة التي تُشكل عبقرية، أو التي تؤهله لإحداث ضجة في العالم، كان يمتلك كل تلك الصفات المتواضعة التي تُشكل الجدارة الاجتماعية الرقيقة: حس سليم بسيط، ممزوج بكل رقة التواضع وحسن الخلق، جعله، إن لم يكن مُعجبًا به، فهو أسعد بكثير: محبوبًا ومُقدّرًا من الجميع. ولكن، بما أن جماله فقط هو ما جذب انتباهي في البداية وأثّر فيّ بشدة، لم أكن حينها أدرك جدارته الداخلية، التي أتيحت لي الفرصة لاكتشافها لاحقًا، والتي ربما، في تلك الفترة من المرح والبهجة، لم تكن لتؤثر في قلبي كثيرًا، لو كانت في شخص أقل بهجة لعيني، ومعبودًا لحواسي. ولكن لنعد إلى موضوعنا.

بعد العشاء، الذي تناولناه في السرير في فوضى شهوانية للغاية، نهض تشارلز، وودعني بحرارة لبضع ساعات، وذهب إلى المدينة، حيث تشاور مع محامٍ شاب ذكي، وذهبا معًا إلى منزل سيدتي الراحلة الموقرة، التي هربت منها في اليوم السابق، والتي كان مصممًا على تصفية الحسابات معها، بطريقة من شأنها أن تقطع كل الحسابات اللاحقة من ذلك الجانب.

وعليه ذهبوا؛ ولكن بالمناسبة، رأى صديقه، وهو من فرسان الهيكل، بعد التفكير في معلومات تشارلز، سبباً لإعادة النظر في زيارتهم، وبدلاً من تقديم الرضا، المطالبة به.

فور دخولي، التفّت فتيات المنزل حول تشارلز، الذي كنّ يعرفنه، وبسبب سرعة هروبي، وجهلهنّ التام بأنه رآني من قبل، وعدم وجود أدنى شك لديهنّ في تورطه في هروبي، كنّ يحاولن، بطريقتهنّ الخاصة، التقرب منه؛ أما رفيقه، فظنّنه على الأرجح مجرماً جديداً. لكنّ الفارس الهيكلي سرعان ما كبح جماحهنّ، فسأل عن السيدة العجوز، وقال لها، بوجهٍ جاد، إن لديه بعض الأمور التي يريد تسويتها.

تم استدعاء السيدة على الفور، وعندما طُلب من السيدات إخلاء الغرفة، سألها المحامي بصرامة عما إذا كانت تعرف، أو لم تكن قد استدرجت، تحت ذريعة توظيف خادمة، فتاة صغيرة، قادمة من البلاد، تدعى فرانسيس أو فاني هيل، ووصفتني بالتفصيل قدر استطاعته من وصف تشارلي.

من سمات الرذيلة أن ترتعد خوفًا من تحقيقات العدالة؛ والسيدة براون، التي لم يكن ضميرها مرتاحًا تمامًا بسببي، لعلمها بخبايا المدينة وقدرتها على التهرب من مخاطر مهنتها، لم يسعها إلا أن تشعر بالذعر من الأسئلة، خاصةً عندما شرع في الحديث عن قاضي الصلح، وسجن نيوجيت، ومحكمة أولد بيلي، وتهم إدارة بيت دعارة، وعمود التشهير، ونقل البضائع، وكل ما شابه ذلك. هي، التي يُحتمل أنها ظنت أنني قدمت بلاغًا ضد منزلها، بدت في غاية الذهول، وبدأت في تقديم ألف احتجاج وعذر. على أي حال، باختصار، أخذوا صندوق أغراضي منتصرين، والذي لولا خوفها لكانت جادلتهم فيه. ليس هذا فحسب، بل كان الأمر يتطلب أيضًا تسوية جميع المطالبات على المنزل، مقابل ثمن لا يتجاوز وعاءً من مشروب الأراك، والذي عُرض عليه، إلى جانب حرية اختيار وسائل الراحة المنزلية، لكنه رُفض. طوال الوقت، تصرف تشارلز كرفيق عابر للمحامي الذي أحضره إلى هناك، لأنه كان يعرف المنزل، ولم يبدُ مهتمًا بالموضوع على الإطلاق؛ لكنه حظي بمتعة جانبية بسماع كل ما أخبرته به مؤكدًا، بقدر ما سمحت مخاوف القوادة لها بالدخول في قصتي، والتي، كما يُمكن للمرء أن يستنتج من سهولة انخراطها فيها، لم تكن قصيرة.

فيبي، معلمتي اللطيفة فيبي، كانت في ذلك الوقت خارج المنزل، ربما كانت تبحث عني، أو ربما لم تكن قصتهم المختلقة قد مرت بسلاسة.

استغرقت هذه المفاوضات بعض الوقت، الذي كان سيبدو لي أطول بكثير، وأنا في منزل غريب، لولا أن صاحبة المنزل، وهي امرأة حنونة كالأم، والتي أوصى بها تشارلز لي بسخاء، صعدت لتؤنسني. شربنا الشاي، وساعدنا حديثها على تمضية الوقت بشكل ممتع للغاية، إذ كان هو محور حديثنا؛ ولكن مع حلول المساء، وانقضاء الساعة المحددة لعودته، لم أستطع تبديد كآبة نفاد الصبر، والمخاوف الرقيقة التي تجمعت بي، والتي يميل جنسنا الخجول إلى الشعور بها بقدر ما يحب.

لكني لم أعانِ طويلاً: فقد أسعدني منظره كثيراً؛ أما اللوم الخفيف الذي كنت قد أعددته له، فقد تلاشى قبل أن يصل إلى شفتي.

كنت لا أزال في السرير، ومع ذلك لم أكن قادرة على استخدام ساقي إلا بشكل أخرق، فطار تشارلز نحوي، وأمسك بي بين ذراعيه، ورفع ذراعي ومدها ليقابل عناقه الدافئ، وأخبرني، متقطعًا بالعديد من القبلات الحلوة، عن نجاح إجراءاته.

لم أستطع كبح ضحكتي من هول الفزع الذي أصاب العجوز، والذي لم يمنعني جهلي، بل وعدم براءتي، من التعبير عنه. يبدو أنها ظنت أنني هربت من المأوى إلى أحد أقاربي في المدينة، بسبب كرهي لتصرفاتهم ومعاملتهم لي، وأن هذا الطلب جاء من هناك؛ فكما لاحظ تشارلز بحق، لم يرَ أي جار، في تلك الساعة الهادئة، هروبي إلى العربة، أو على الأقل لم يلحظه أحد؛ ولم يشك أحد في المنزل ولو للحظة في أنني تحدثت إليه، فضلاً عن أنني أبرمت صفقة مفاجئة مع شخص غريب تمامًا، لذا فإن أكثر الاحتمالات استبعادًا ليس دائمًا ما يجب أن نشك فيه أكثر.

تناولنا العشاء بكل بهجة مخلوقين شابين في قمة رغباتهما؛ وبما أنني قد سلمت لتشارلز مسؤولية سعادتي المستقبلية بالكامل، لم أفكر في شيء يتجاوز المتعة الرائعة لامتلاكه.

لقد ذهب إلى الفراش في الوقت المناسب؛ وفي هذه الليلة الثانية، بعد أن زال الألم إلى حد كبير، تذوقت، بكل جوارحي، كل متع المتعة الكاملة: سبحت، واستحممت في النعيم، حتى غلبنا النعاس، من خلال النتائج الطبيعية لإشباع الرغبات، وتهدئة اللهيب؛ ولم نستيقظ إلا على نشوة متجددة.

وهكذا، مستغلين الحب والحياة على أكمل وجه، مكثنا في هذا المسكن في تشيلسي حوالي عشرة أيام؛ وخلال ذلك الوقت حرص تشارلز على إضفاء طابع إيجابي على رحلاته من المنزل، والحفاظ على علاقته بجدته المحبة والمتسامحة، التي كان يحصل منها على إمدادات ثابتة وكافية مقابل المبلغ الذي كنت أدفعه له، والذي كان زهيدًا للغاية، مقارنة بمساره السابق الأقل انتظامًا في الاستمتاع.

ثم نقلني تشارلز إلى مسكن خاص مُؤثث بالكامل في شارع د...، سانت جيمس، حيث كان يدفع نصف جنيه إسترليني أسبوعيًا مقابل غرفتين وخزانة ملابس في الطابق الثاني، وهو مسكن كان يبحث عنه منذ فترة، وكان أكثر ملاءمة لتردد زياراته من المنزل الذي وضعني فيه في البداية، والذي غادرته بأسف شديد، فقد كان عزيزًا على قلبي للغاية بسبب وجود تشارلز فيه، ولأنني فقدت هناك تلك الجوهرة التي لا تُفقد مرتين. أما صاحب المنزل، فلم يكن لديه سبب للشكوى من أي شيء سوى كرم تشارلز المفرط الذي جعله يندم على خسارتنا.

عند وصولنا إلى مكان إقامتنا الجديد، أتذكر أنني اعتقدت أنه رائع للغاية، على الرغم من أنه عادي بما فيه الكفاية، حتى بهذا السعر؛ ولكن، لو كان المكان الذي اصطحبني إليه تشارلز عبارة عن زنزانة، لكان وجوده قد جعله قصر فرساي صغيرًا.

استقبلتنا صاحبة المنزل، السيدة جونز، في شقتنا، وبفصاحة لسانها، شرحت لنا جميع مزاياها: "أن خادمتها الخاصة ستخدمنا... وأن أفضل الناس قد أقاموا في منزلها... وأن الطابق الأول مؤجر لسكرتير سفارة أجنبية وسيدته... وأنني أبدو كسيدة طيبة القلب للغاية..." عند سماع كلمة "سيدة"، احمرّ وجهي خجلاً من فرط غروري: كان هذا شعوراً قوياً بالنسبة لفتاة في وضعي؛ فمع أن تشارلز اتخذ الحيطة اللازمة بإلباسي ملابس أقل ابتذالاً وتفاخراً من تلك التي هربت بها إليه، وتظاهر بأنني زوجته التي تزوجتها سراً، وأخفت الأمر (القصة القديمة) بسبب أصدقائه، إلا أنني أقسم أن هذا بدا ملفقاً للغاية لامرأة تعرف المدينة جيداً مثلها؛ لكن هذا كان آخر ما يشغل بالها: فمن المستحيل أن تكون أقل وسوسة منها؛ وبما أن ميزة تأجير غرفها هي هدفها الوحيد، فإن الحقيقة نفسها كانت ستصدمها أو تنقض اتفاقها.

إن تقديم لمحة عن صورتها وتاريخها الشخصي سيمكنك من شرح الدور الذي ستلعبه في شأني.

كانت في السادسة والأربعين من عمرها تقريبًا، طويلة القامة، نحيلة، ذات شعر أحمر، بوجه عادي من تلك الوجوه المألوفة التي تصادفها في كل مكان، وتمر دون أن يلتفت إليها أحد أو يذكرها. في شبابها، كانت تعيش مع رجل نبيل، ترك لها عند وفاته أربعين جنيهًا إسترلينيًا سنويًا طوال حياتها، مقابل ابنة أنجبتها منه. هذه الابنة، في سن السابعة عشرة، باعتها، بمبلغ زهيد، لرجل نبيل

كان مسافرًا في مهمة دبلوماسية إلى الخارج، وأخذ ثمنها معه، حيث عاملها بمنتهى الرقة، ويُعتقد أنه تزوجها سرًا. لكنه كان يحرص دائمًا على ألا تُراسل أمها، التي كانت وضيعة لدرجة أن تُتاجر بابنتها. ومع ذلك، ولأنها لم تكن تملك طبيعة، ولا أي شغف سوى المال، لم يُسبب لها هذا الأمر أي قلق إضافي، إذ خسرت بذلك بعض الهدايا السخية، أو غيرها من المزايا اللاحقة، نتيجةً لهذه الصفقة. كانت، بحكم طبيعتها، غير مبالية بأي متعة أخرى سوى زيادة ثروتها بأي وسيلة كانت، فبدأت نوعًا من القوادة الخاصة، وهو عملٌ كانت مؤهلة له تمامًا بفضل مظهرها الرصين والمهذب، وكانت أحيانًا تقوم بأعمال التوفيق بين الأزواج؛ باختصار، لم يكن هناك شيء بدا لها وكأنه مكسب إلا وكانت مستعدة للقيام به. كانت تعرف معظم طرق المدينة، ليس فقط لأنها كانت على دراية بها، بل لأنها كانت على اطلاع دائم بتعزيز الوئام بين الجنسين، وفي مجال الرهن الخاص، وغيرها من الأسرار المربحة. كانت تؤجر المنزل الذي تسكنه، وتستغله على أكمل وجه، بتأجيره كمسكن؛ على الرغم من أن ثروتها كانت تقارب ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه إسترليني، إلا أنها لم تكن تسمح لنفسها حتى بتأمين ضروريات الحياة، وكانت تعتمد في معيشتها كليًا على ما تستطيع انتزاعه من مستأجريها.

عندما رأت مثل هذا الزوج الشاب يدخل تحت سقفها، كانت أفكارها الفورية، بلا شك، هي كيف يمكنها أن تجني أكبر قدر من المال منا، بكل الوسائل التي يمكن من خلالها جني المال، والتي، كما رأت بحق، ستوفر لها ظروفنا وقلة خبرتنا فرصًا لذلك قريبًا.

في هذا الملاذ الآمن، وتحت براثن هذه المرأة البغيضة، نصبنا خيمتنا. لن يكون من المفيد لك، أو الممتع لي، الخوض في تفاصيل كل الأساليب والوسائل الدنيئة التي كانت تستخدمها لنهبنا؛ كل ذلك اختار تشارلز أن يتحمله بكسل، بدلاً من أن يكلف نفسه عناء التخلص منه، إذ لم يكترث لفرق التكلفة بين شاب لا يعرف معنى البخل أو حتى الاقتصاد، وفتاة ريفية ساذجة لا تفقه شيئاً في الأمر.

هنا، تحت جناح حبيبي الذي لا يُضاهى، انقضت أمتع لحظات حياتي؛ كان تشارلز لي، وفيه كل ما يتمناه قلبي. كان يصطحبني إلى المسرحيات والأوبرات والحفلات التنكرية وكل ما يُمتعني في المدينة؛ كل ذلك أسعدني حقًا، بل أسعدني أكثر بوجوده معي، وشرحه لي كل شيء، وربما استمتاعه بمشاعر الدهشة والإعجاب الطبيعية التي تُثيرها هذه المشاهد، في البداية، في فتاة ريفية حديثة العهد بمتعتها؛ لكنها بالنسبة لي، أثبتت بوضوح قوة وسيطرة شغفي الوحيد عليّ، شغفٌ تمركزت فيه الروح والجسد، ولم يترك لي مجالًا لأي متعة أخرى في الحياة سوى الحب.

أما الرجال الذين رأيتهم في تلك الأماكن، أو في أي مكان آخر، فقد عانوا كثيراً من المقارنة التي أجرتها عيناي بينهم وبين أدونيس المثالي، لدرجة أنني لم أجد في نفسي أدنى شك أو لوم بسببه. لقد كان هو الكون بالنسبة لي، وكل ما عداه لا قيمة له عندي.

باختصار، كان حبي مفرطًا لدرجة أنه قضى على أي تلميح أو شرارة غيرة؛ لأن فكرة واحدة فقط، تميل إلى ذلك الاتجاه، سببت لي عذابًا شديدًا، لدرجة أن حبي لذاتي، وخوفي من شيء أسوأ من الموت، جعلني أنبذها وأتحدىها إلى الأبد: ولم يكن لدي، في الواقع، سبب لذلك؛ لأنه لو دخلت هنا في سرد العديد من الحالات التي ضحى فيها تشارلز من أجلي بنساء ذوات أهمية أكبر بكثير مما أجرؤ على التلميح إليه (وهو أمر، بالنظر إلى هيئته، لم يكن مفاجئًا)، لكان بإمكاني، في الواقع، أن أقدم لكم دليلًا كاملًا على إخلاصه الثابت لي؛ لكن ألن تتهموني بأنني أستعد لوليمة كان ينبغي أن يرضي غروري بها منذ زمن طويل؟

في فترات انقطاعنا عن المتعة الفعلية، صوّر تشارلز نفسه كمعلم، يُعلّمني، بقدر ما وصل إليه نوره، في العديد من جوانب الحياة التي كنتُ، نتيجةً لعدم تعليمي، جاهلاً بها تماماً: ولم أسمح لكلمة واحدة أن تخرج عبثاً من فم معلمي الحبيب: كنتُ أستمع باهتمام لكل مقطع لفظي ينطق به، وأستقبل كل ما يقوله كأنه وحي؛ وبينما كانت القبلات هي المقاطعة الوحيدة التي لم أستطع فيها مقاومة متعة الاعتراف، من شفاه تتنفس حلاوة تفوق حلاوة العربية، تمكنتُ في وقت قصير، بفضل التقدم الذي أحرزته، من إثبات التقدير العميق الذي أوليته لكل ما قاله لي: كررتُه له كلمة بكلمة تقريباً؛ ولأُظهر

أنني لم أكن مجرد ببغاء، بل كنتُ أفكر، وأنني دخلتُ في الأمر، أضفتُ تعليقاتي الخاصة، وسألته أسئلة للتوضيح.

بدأت لكنتي الريفية، وبساطة مشيتي، وسلوكي، وتصرفاتي، تتلاشى بشكل ملحوظ: فقد كانت ملاحظتي سريعة للغاية، ورغبتي في أن أصبح كل يوم أكثر جدارة بقلبه فعالة للغاية.

أما بالنسبة للمال، فقد كان يُحضر لي باستمرار كل ما يتلقاه، حتى أنه كان يجد صعوبة في إقناعي بإفساح المجال له في خزانتي؛ أما ملابسي، فلم يكن ليُقنعني بقبولها إلا إذا كان ذلك لإرضائه بأناقة ملابسي، وهو أمر لم أكن أطمح إليه. كنتُ لأستمتع بأعظم الأعمال الشاقة، وأعمل بجدٍّ وسعادة لأُعيله: تخيّلوا إذن، لو أنني فكرتُ ولو للحظة أنني أُثقل عليه، وكان هذا الكرم في داخلي عفويًا جدًا، نابعًا من صميم قلبي، لدرجة أن تشارلز لم يستطع إلا أن يشعر به: وإذا لم يكن يُحبني بقدر ما أُحبه (وهو الأمر الوحيد الذي كان يُثير بيننا خلافًا لطيفًا دائمًا)، فقد استطاع على الأقل أن يُشعرني بالرضا، مُعتقدًا أنه من المستحيل أن يكون هناك إنسان أرقّ منه، أو أصدق منه، أو أوفى منه.

كانت صاحبة المنزل، السيدة جونز، تصعد إلى شقتي باستمرار، ولم أكن أغادرها قطّ تحت أي ذريعة دون تشارلز. ولم يمضِ وقت طويل حتى كشفت، دون عناء يُذكر، سرّ تحايلنا على الكنيسة في إتمام مراسم الزواج، وبالتالي على شروط سكننا المشترك. وهو أمر لم يزعجها على الإطلاق، بالنظر إلى نواياها تجاهي، والتي، للأسف، ستتاح لها الفرصة لتنفيذها قريبًا. ولكن في غضون ذلك، مكّنتها خبرتها في الحياة من إدراك أن أي محاولة، مهما كانت غير مباشرة أو مُقنّعة، لتشتيت انتباهنا أو كسر روابطنا القوية، على الأقل في الوقت الراهن، لن تؤدي إلا إلى خسارة نزيلين، كانت قد استغلتهما خير استغلال، إذا ما حاول أيٌّ منا استغلال عمولتها، التي حصلت عليها من أحد زبائنها، إما لإغوائي أو لتهريبي من صاحب المنزل على أي حال.

لكن قسوة قدري سرعان ما أنقذتها من مهمة تفريقنا. كنت قد أمضيت أحد عشر شهرًا مع هذا الطفل الذي كان بمثابة حياتي، والذي مرّ في سيل متواصل من السعادة، لكن لم يدم شيء بهذه القسوة. كنت حاملاً منه في الشهر الثالث تقريبًا، وهو ظرف كان سيزيد من حنانه لو أنه ترك لي مجالًا لأؤمن بإمكانية إضافة المزيد، حين حلت بنا فجأةً صدمة الفراق. سأتجاوز التفاصيل التي ما زلت أرتجف لمجرد التفكير فيها، ولا أستطيع حتى الآن أن أقنع نفسي كيف أو بأي وسيلة يمكنني أن أتجاوزها.

مرّت عليّ أيامٌ كاملةٌ دون أن أسمع منه شيئًا، أنا التي أتنفس، أنا التي لا وجود لي إلا فيه، ولم يسبق لي أن رأيت أربعًا وعشرين ساعةً تمرّ دون أن أراه أو أسمع عنه. في اليوم الثالث، بلغ بي القلق حدًّا كبيرًا، وبلغت مخاوفي حدًّا جعلني أتقيأ تمامًا؛ ولما لم أعد أحتمل الصدمة، انهرت على الفراش، وناديت على السيدة جونز، التي لم تُخفّف عني شيئًا في قلقي، فجاءت إليّ، وبالكاد كان لديّ ما يكفي من النفس والروح لأتوسّل إليها، إن كانت ستنقذ حياتي، أن تجد وسيلةً لمعرفة مصير سندي الوحيد ومصدر راحتي. أشفقَت عليّ بطريقةٍ زادت من معاناتي بدلًا من أن تُخفّفها، وخرجت لتنفيذ هذه المهمة.

لم يكن عليها سوى الذهاب إلى منزل تشارلز، الذي كان يسكن على مسافة قريبة، في أحد الشوارع المؤدية إلى كوفنت غاردن. وهناك دخلت حانة، ومن ثم أرسلت في طلب خادمة، كنت قد أعطيتها اسمها، باعتبارها الأنسب لإبلاغها.

حضرت الخادمة على الفور، وعندما سألتها السيدة جونز عن مصير السيد تشارلز، أو ما إذا كان قد غادر المدينة، أخبرتها على الفور بمصير ابن سيدها، وهو أمر لم يكن خافيًا على الخدم في اليوم التالي. لقد اتخذ السيد جونز إجراءات صارمة لمعاقبة ابنه بأقسى العقوبات لاهتمامه بجدته أكثر منه، رغم أنه تظاهر بحجة مقنعة للتخلص منه بهذه الطريقة السرية المفاجئة، خوفًا من أن يمنعه تعلق جدته بها من مغادرة إنجلترا والقيام برحلة كان قد رتبها له؛ وكانت هذه الحجة هي ضرورة تأمين ميراث كبير آل إليه بوفاة تاجر ثري (شقيقه) في أحد مصانع جزر المحيط الهادئ الجنوبية، والذي كان قد تلقى بشأنه نصيحة مؤخرًا، بالإضافة إلى نسخة من الوصية.

ونتيجة لهذا القرار، بإرسال ابنه بعيدًا، قام، دون علمه، بالتحضيرات اللازمة لتجهيزه، وعقد صفقة مع قبطان سفينة، ضمن تنفيذه الدقيق لأوامره، من خلال مصالحه مع مالكيه الرئيسيين وراعيه؛ وباختصار، نسق إجراءاته بسرية وفعالية، بحيث بينما كان الابن يعتقد أنه ذاهب إلى النهر، وهو ما سيستغرق منه بضع ساعات، تم إيقافه على متن سفينة، ومنعه من الكتابة، ومراقبته بشكل أكثر صرامة من مجرم دولة.

وهكذا انتُزع مني صنم روحي، وأُجبر على رحلة طويلة، دون أن يودع صديقاً واحداً، أو يتلقى كلمة عزاء واحدة، باستثناء شرح جاف وتعليمات من والده حول كيفية التصرف عندما يصل إلى الميناء المقصود، مرفقاً بها بعض رسائل التوصية إلى وكيل هناك: كل هذه التفاصيل لم أتعلمها بدقة إلا بعد فترة من الزمن.

وأضافت الخادمة في الوقت نفسه أنها كانت متأكدة من أن هذا الاستخدام من قبل سيدها الشاب اللطيف سيكون سبب وفاة جدته، كما ثبت بالفعل؛ لأن السيدة العجوز، عند سماعها الخبر، لم تعش شهراً كاملاً، ولأن ثروتها كانت عبارة عن معاش سنوي لم تدخر منه أي مدخرات، لم تترك شيئاً يستحق الذكر لحبيبها الذي يحسدها عليه بشدة، بل رفضت تماماً رؤية والده قبل وفاتها.

عندما عادت السيدة جونز، ولاحظت نظراتها، بدت غير مبالية، بل وشبه مسرورة، حتى أنني ظننت أنها ستريح قلبي المعذب بأخبار سارة؛ لكن هذا، في الحقيقة، كان وهماً قاسياً للأمل: فقد طعنني ذلك الرجل، بكل برود أعصاب، في قلبي، حين أخبرني باختصار أنه أُرسل بعيداً، على الأقل، في رحلة تستغرق أربع سنوات (وهنا بالغت في الكلام بخبث)، وأنه لا يمكنني، منطقياً، أن أتوقع رؤيته مرة أخرى: وكل هذا في ظل ظروف بالغة الأهمية، لدرجة أنني لم أستطع إلا أن أصدقها، لأنها كانت، في الواقع، صحيحة تماماً!

لم تكد تنتهي من تقريرها حتى أغمي عليّ، وبعد عدة نوبات متتالية، كنت خلالها في حالة هستيرية وغير واعية، فقدت عهد حب تشارلز العزيز؛ لكن البائسين لا يموتون عندما يكون الموت في أحلك الظروف، والنساء يعشن حياة قاسية! كما يقول المثل.

إن العناية القاسية والمتأنية التي بذلت لإنقاذي أنقذت حياة بغيضة: والتي، بدلاً من السعادة والبهجة التي كانت تزهر فيها، لم تعد تقدم لي فجأة أي شيء سوى عمق البؤس والرعب وأشد أنواع المعاناة.

وهكذا مكثتُ ستة أسابيع، في صراع الشباب والقوة، في مواجهة الموت الذي كنتُ أستغيث به باستمرار طلباً للنجاة، لكنه كان أضعف من أن يُلبي رغبتي. تعافيتُ في النهاية، ولكن في حالة من الذهول واليأس، كادت تُهددني بفقدان عقلي، وبدخولي مصحة عقلية.

لكن مع مرور الوقت، ذلك المُعزّي العظيم في الحياة اليومية، بدأ يُخفف من حدة معاناتي، ويُخدر شعوري بها. عادت إليّ صحتي، مع أنني ما زلت أحمل مسحة من الحزن والكآبة والخمول، والتي، بعد أن اختفت من بشرتي الوردية، جعلتها أكثر رقةً وتأثيراً.

لقد كانت صاحبة المنزل طوال هذه المدة توفر لي كل ما أحتاجه، ولم تكن تنقصني أي حاجة. وما إن رأتني أستعيد عافيتي وأصبح بإمكاني تلبية غرضها، حتى هنأتني ذات يوم، بعد أن تناولنا العشاء معًا، على شفائي، ونسبت الفضل لنفسها بالكامل، وكان كل هذا بمثابة مقدمة لخاتمة مروعة ومقززة: "أنتِ الآن، يا آنسة فاني، بصحة جيدة إلى حد ما، ومرحبًا بكِ جدًا للبقاء في هذه المسكن ما شئتِ! كما ترين، لم أطلب منكِ شيئًا طوال هذه المدة، ولكن في الحقيقة لديّ مبلغ من المال يجب سداده." ثم قدمت لي فاتورة متأخرة عن الإيجار، والطعام، وأتعاب الصيدلي، والممرضة، وغيرها، بإجمالي ثلاثة وعشرين جنيهاً وسبعة عشر شلناً وستة بنسات. لم يكن لديّ في العالم (وهو ما كانت تعلمه جيداً) أكثر من سبعة جنيهات، متبقية لي صدفةً من أموال تشارلز العزيز. وفي الوقت نفسه، طلبت مني أن أخبرها كيف سأدفع. فانفجرت في البكاء، وأخبرتها بحالي: أنني سأبيع ما تبقى لديّ من ملابس، وأنني سأدفع لها الباقي في أقرب وقت ممكن. لكن محنتي، التي بدت في صالحها، لم تزدها إلا قسوةً.

قالت لي ببرود شديد: "إنها تشعر بالأسف حقًا لمصائبي، لكن يجب عليها أن تحقق العدل لنفسها، على الرغم من أن إرسال مثل هذه المخلوقة الشابة الرقيقة إلى السجن سيؤلمها بشدة...". عند سماع

كلمة "سجن!"، تجمد كل دمي، وأثر خوفي عليّ بشدة، حتى أنني أصبحت شاحبًا وضعيفًا مثل مجرم عند أول رؤية لمكان إعدامه، وكنت على وشك الإغماء. بدأت صاحبة المنزل، التي لم تكن ترغب إلا في إخافتي إلى حدٍ معين، لا أن تدفعني إلى حالة جسدية لا تتوافق مع نواياها، في تهدئتي من جديد، وقالت لي بنبرةٍ تحمل المزيد من الشفقة واللطف: "سيكون خطئي لو اضطرت إلى اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات؛ لكنها تؤمن بوجود صديقٍ في هذا العالم سيُصلح الأمور بما يُرضينا، وأنها ستُحضره لشرب الشاي معنا في ذلك اليوم بالذات، حيث تأمل أن نتوصل إلى تفاهمٍ صحيح في شؤوننا". لم أنطق بكلمةٍ واحدةٍ رداً على كل هذا؛ جلستُ صامتاً، مرتبكاً، مرعوباً.

لكن السيدة جونز، بحكمتها الصائبة، رأت أن الوقت قد حان للتحرك بينما كانت الانطباعات قوية للغاية عليّ، فتركتني لنفسي ولكل أهوال الخيال، الذي جُرح حتى الموت بفكرة الذهاب إلى السجن، ومن منطلق مبدأ الحفاظ على الذات، كنت أتشبث بكل بصيص أمل للخلاص منه.

في تلك الحالة، جلستُ قرابة نصف ساعة، غارقًا في الحزن واليأس، حين دخلت صاحبة المنزل، ولاحظت كآبةً شديدةً على وجهي، فشرعت في تنفيذ خطتها، وتظاهرت بالشفقة، وحثتني على التفاؤل قائلةً: "الأمور لن تكون إلا صديقتي". ثمّ أخبرتني أنها أحضرت رجلاً نبيلاً ليشرب الشاي معي، وسيقدم لي أفضل النصائح للتخلص من جميع مشاكلي. عندئذٍ، ودون انتظار ردّ، خرجت، وعادت مع هذا الرجل النبيل، الذي كانت هي نفسها وسيطته في هذه المناسبة، كما في مناسبات أخرى.

عند دخوله الغرفة، انحنى لي الرجل بانحناءة مهذبة للغاية، لم أكن أملك القوة أو التركيز الكافيين لأردّ عليه بالمثل؛ ثم قامت صاحبة المنزل، متطوعةً لاستقبالي (إذ لم أكن قد رأيت الرجل من قبل على حدّ علمي)، بوضع كرسي له وآخر لنفسها. طوال هذا الوقت، لم ينبس أيٌّ منا ببنت شفة؛ لم أستطع سوى التحديق بذهول في هذه الزيارة الغريبة.

أُعدّ الشاي، ولاحظت صاحبة المنزل، التي لم ترغب على ما يبدو في إضاعة أي وقت، صمتي وخجلي أمام هذا الغريب تمامًا، فقالت بأسلوبٍ ودودٍ فظّ ونبرةٍ آمرة: "هيا يا آنسة فاني، ارفعي رأسكِ يا صغيرتي، ولا تدعي الحزن يُفسد وجهكِ الجميل. ما هذا! الأحزان مؤقتة؛ هيا، كوني حرة، ها هو رجلٌ نبيلٌ سمع بمصائبكِ، وهو على استعدادٍ لخدمتكِ؛ يجب أن تتعرفي عليه أكثر، لا تُضيّعي وقتكِ الآن في التفكير في أمورٍ تافهة، بل استمتعي بوقتكِ ما دمتِ قادرةً على ذلك".

في خضم هذا الخطاب الرقيق والبليغ، لاحظ الرجل أنني أبدو خائفة ومذهولة، بل وعاجزة عن الرد، فوبخها على إنهاء الأمور بهذه الطريقة المفاجئة، التي صدمتني بدلًا من أن تدفعني إلى قبول الخير الذي كان ينوي تقديمه لي. ثم خاطبني قائلًا: "إنه على دراية تامة بقصتي، وكل تفاصيل محنتي التي أقرّ بأنها كانت قفزة قاسية لفتاة في مثل سني وجمالي... وأنه كان معجبًا بي منذ فترة طويلة، ولذلك طلب من السيدة جونز، التي كانت حاضرة؛ ولكن عندما وجدني مخطوبة لشخص آخر، فقد كل أمل في النجاح، إلى أن سمع بالانقلاب المفاجئ الذي طرأ على حياتي، والذي دفعه إلى إصدار أوامر خاصة لصاحبة المنزل التي أسكن فيها بأن تضمن ألا ينقصني شيء؛ وأنه لو لم يُجبر على السفر إلى لاهاي لأمور لم يستطع رفضها، لكان قد اعتنى بي بنفسه خلال مرضي... وأنه عند عودته، في ذلك اليوم... قبل ذلك، عندما علم بشفائي، طلب من صاحبة المنزل أن تتوسط لتعريفه بي، وكان غاضباً، على الأقل بقدر ما كنت مصدومة، من الطريقة التي تصرفت بها لتحقيق هذه السعادة له؛ ولكن، لكي يُظهر لي مدى استهزائه بأسلوبها، ومدى ابتعاده عن استغلال وضعي بشكل غير كريم، وعن مطالبته بأي ضمان مقابل امتناني، فإنه سيُسدد ديني بالكامل لصاحبة المنزل، ويُعطيني إيصالها كاملاً؛ وبعد ذلك سأكون حرة في رفض طلبه أو قبوله، لأنه كان أسمى من أن يُجبرني على شيء.

بينما كان يُفصح لي عن مشاعره، تجرأتُ على النظر إليه، ولاحظتُ هيئته، رجلاً وسيماً، مفتول العضلات، في الأربعين من عمره تقريباً، يرتدي بدلة بسيطة، وخاتم ألماس كبير في أحد أصابعه، كان بريقه يتلألأ في عينيّ وهو يُلوّح بيده أثناء حديثه، مما زاد من إحساسي بأهميته. باختصار، كان يُمكن اعتباره رجلاً أسود وسيماً، يتمتع بهالة من التميز الطبيعي لمولده ومكانته.

ومع ذلك، لم أجب على جميع خطاباته إلا بالدموع التي انهمرت بغزارة مما أراحني، واختنق صوتي، مما أعفاني من الكلام، ولحسن الحظ، لأنه ما كنت لأعرف ماذا أقول.

لكن هذا المنظر أثر فيه بشدة، كما أخبرني لاحقًا، وبشكل لا يقاوم، ولإعطائي سببًا لأكون أقل تأثرًا، أخرج محفظته، وطلب قلمًا وحبرًا، وهو ما كانت صاحبة المنزل مستعدة له، ودفع لها كل قرش من طلبها، بغض النظر عن مكافأة سخية كانت ستتبع ذلك دون علمي، وأخذ إيصالًا كاملاً، وأجبرني بلطف شديد على الاحتفاظ به، من خلال توجيه يدي التي كان قد أدخلها فيها، حتى أضعها بشكل سلبي في جيبي.

ومع ذلك، بقيت في حالة من الغباء، أو اليأس الكئيب، حيث لم تستطع روحي بعد أن تتعافى من الصدمات العنيفة التي تلقتها؛ وقد غادرت صاحبة المنزل المتعاونة الغرفة بالفعل، وتركتني وحدي مع هذا الرجل الغريب، قبل أن ألاحظ ذلك، ثم لاحظته دون خوف، لأنني كنت الآن بلا حياة، وغير مبالٍ بكل شيء.

لكن الرجل، الذي لم يكن غريباً على مثل هذه الأمور، اقترب مني، وتظاهر بمواساتي، فمسح دموعي بمنديله وهي تنهمر على وجنتيّ، ثم تجرأ على تقبيلي، دون مقاومة أو استسلام. بقيتُ جامدة في مكاني، أنظر إلى نفسي وكأنني قد اشتريتُ بالمال الذي دُفع أمامي.

لم أُبالِ بما سيؤول إليه جسدي البائس: ولأنني كنت أفتقر إلى الحياة والروح والشجاعة لمقاومة أدنى مقاومة، حتى مقاومة حياء جنسي، فقد تحملتُ باستسلام كل ما يشاء ذلك الرجل؛ الذي كان ينتقل بلا وعي من مكان إلى آخر، مُدسًا يده بين منديلي وصدري، الذي كان يُحركه بحذر: ولما لم يجد أي مقاومة، ولأن كل شيء كان يُساعده على تحقيق رغباته، حملني بين ذراعيه، وحملني بلا حياة أو حركة إلى الفراش، حيث وضعني برفق، واتخذ الوضعية التي يُريدها، ولم أكن أعرف ما الذي يفعله، حتى أفاقت من غيبوبة اللاوعي، فوجدته مدفونًا في داخلي، بينما كنت مستلقية سلبية وبريئة من أدنى إحساس بالمتعة: بالكاد يمكن لجثة باردة كالموت أن تكون أقل حياة أو إحساسًا. ما إن هدأ غضبي الذي لم يكترث لحالتي، حتى نهض، وبعد أن رتب ملابسي المبعثرة، انكبّ بأقصى درجات الرقة على تهدئة نوبات الندم والجنون التي انتابتني، والتي أعترف أنني تأخرت في تصديقها، فبعد أن عانيت على ذلك الفراش، بين أحضان غريب، مزقتُ شعري، وعصرتُ يديّ، وضربتُ صدري كالمجنونة. ولكن عندما حاول سيدي الجديد، الذي كنت أنظر إليه بتلك النظرة، تهدئتي، إذ كان غضبي كله موجهاً نحو نفسي، ولم أكن أظن أن لي الحق في توجيهه نحوه، توسلت إليه بخضوع أكثر من الغضب أن يتركني وشأني، لأستمتع على الأقل بمعاناتي في هدوء. لكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً، خوفاً، كما ادعى، من أن أؤذي نفسي. فالعواطف الجامحة نادراً ما تدوم طويلاً، وعواطف النساء هي الأقل دواماً. أعقب هذه العاصفة هدوء تام، وانتهت بسيل من الدموع.

لو أخبرني أحدٌ قبل لحظاتٍ قليلة أنني سأعرف رجلاً غير تشارلز، لبصقتُ في وجهه، ولو عُرض عليّ مبلغٌ من المال يفوق بكثير ما دُفع لي، لرفضتُ العرض بدمٍ بارد. لكن فضائلنا ورذائلنا تعتمد كثيراً على ظروفنا؛ فمع أنني كنتُ مُحاصرةً بشكلٍ غير متوقع، وخانني عقلٌ أضعفه مرضٌ طويلٌ وقاسٍ، ومذهولةً من رعب الهدف، فإن هزيمتي ستبدو أكثر عذراً، لأنني بالتأكيد لم أكن حاضرةً فيها، أو طرفاً فيها بأي شكلٍ من الأشكال. ومع ذلك، ولأن المتعة الأولى حاسمة، ولأنه كان قد تجاوز الخط، ظننتُ أنه لم يعد لي الحق في رفض مداعبات من حصل على تلك الميزة عليّ، مهما كانت الطريقة التي حصل بها عليها؛ فامتثلتُ لهذا المبدأ، واعتبرتُ نفسي تحت سيطرته تماماً، لدرجة أنني تحملتُ قبلاته وعناقه دون أن أتظاهر بالمقاومة أو الغضب. ليس الأمر أنه، حتى الآن، قد منحني أي متعة، أو تغلب على نفور روحي من الاستسلام لأي إحساس من هذا القبيل؛ ما عانيته، عانيته بدافع نوع من الامتنان، وكأمر طبيعي لما حدث.

مع ذلك، كان شديد الحرص لدرجة أنه لم يحاول إعادة إثارة تلك المشاعر المتطرفة التي دفعتني، قبل قليل، إلى تلك الاضطرابات العنيفة؛ بل، وقد اطمأن إلى امتلاكي، اكتفى بتهدئتي تدريجيًا، منتظرًا ثمار كرمه ومغازلته مع مرور الوقت، والتي لطالما لام نفسه على جمعها قبل أوانها، حين استسلم لعجزه عن مقاومته، وغلبته رغباته، فأفرغ جام غضبه على جسدٍ هامدٍ بلا روح، فاقدٍ لكل

معنى للفرح، لأنه بما أنه لم يأخذ شيئًا، فمن المفترض أنه عاجز عن منحه. هذا أمرٌ مؤكد؛ لم يغفر له قلبي أبدًا الطريقة التي وقعت بها في حبه، مع أنني، من باب المصلحة، وقعت في حبه، وكان لي سببٌ للشعور بالسرور لأنه وجد فيّ ما يمنعه من تركي بسهولة كما فعل بي.

في هذه الأثناء، كان المساء قد تقدم كثيراً، حتى أن الخادمة دخلت لتضع المفرش للعشاء، عندها أدركت بفرح أن صاحبة المنزل، التي كان وجودها سماً بالنسبة لي، لن تكون معنا.

بعد ذلك تم تقديم عشاء أنيق ومرتب، ووضعت زجاجة من نبيذ بورغندي، مع الضروريات الأخرى، على مصعد الطعام.

بعد أن غادرت الخادمة الغرفة، أصرّ الرجل، بحنانٍ بالغ، على أن أجلس على الكرسي بجانب المدفأة وأشاهده وهو يأكل، إن لم أستطع أن آكل بنفسي. أطعتُه بقلبٍ يملؤه الحزن، لما فيه من مقارنة بين تلك *الأحاديث الودية* الجميلة مع طفولتي العزيزة، وبين هذا الموقف القسري، وهذا المشهد الجديد المحرج، الذي فرض عليّ ضرورةً قاسية.

على العشاء، وبعد الكثير من الحجج التي استخدمها لتهدئتي ومصالحتي مع مصيري، أخبرني أن اسمه...H ، شقيق إيرل...L ، وأنه بعد أن قادته اقتراحات صاحبة المنزل لرؤيتي، وجدني مناسبة تمامًا لذوقه، وأعطاها مهمة الحصول علي بأي ثمن، وأنه نجح في النهاية، بقدر ما كان يتمنى بشدة أن يكون ذلك مُرضيًا لي، مضيفًا، مع بعض التطمينات المُغرية، بأنه لن يكون لدي أي سبب للندم على معرفتي به.

كنت قد تناولت الآن ما لا يقل عن نصف طائر حجل، وثلاثة أو أربعة أكواب من النبيذ، والتي أجبرني على شربها كوسيلة لإعادة التوازن إلى جسدي، ولكن سواء كان هناك شيء غير عادي في النبيذ، أو ما إذا كان لا حاجة للمزيد لإحياء الدفء الطبيعي لجسمي، وإعادة الحيوية إلى حياتي، فقد توقفت عن النظر إلى السيد هـ... بتلك النظرة القسرية، إن لم تكن بالتظاهر، التي كنت أنظر بها حتى الآن، ولكن مع ذلك، لم يكن هناك ذرة من الحب مختلطة بهذا اللين في مشاعري: أي رجل آخر كان سيعاملني بنفس معاملة السيد هـ...، لو كان في نفس الظروف، وفعل من أجلي، ومعي، ما فعله.

لا توجد، على الأرض على الأقل، أحزان أبدية؛ أحزاني، إن لم تكن قد انتهت، فقد توقفت مؤقتًا على الأقل: قلبي، الذي أثقلته الكآبة والضيق طويلًا، بدأ يتسع وينفتح على آخر بصيص من التسلية أو المرح. بكيت قليلًا، وخففت دموعي عني؛ تنهدت، وبدا أن تنهداتي تخفف عني عبئًا ثقيلًا؛ أصبح وجهي، إن لم يكن مبتهجًا، فعلى الأقل أكثر هدوءًا وانفتاحًا.

السيد هـ...، الذي كان يراقب، وربما كان هو من تسبب في هذا التغيير، أدرك جيدًا أنه لا يجب أن يفوّته: دفع الطاولة برفق من بيننا، وأحضر كرسيه ليواجهني، وسرعان ما بدأ، بعد أن هيأني بكل عبارات الطمأنينة والتأكيدات، يمسك بيديّ، ويقبلني، ثم يعبث بصدري مرة أخرى، الذي كان، وقد تحرر تمامًا من فوضى ثوبه الفضفاض، يلهث وينبض، ليس من الغضب بقدر ما هو من الخوف والخجل، من أن يستخدمه غريب بهذه الألفة. لكنه سرعان ما منحني فرصة أكبر للصراخ، عندما انحنى وأدخل يديه فوق جواربي؛ ومن ثم حاول استعادة تلك الفتحة، التي وجدها من قبل مكشوفة وغير محمية؛ لكنه الآن لم يستطع فكّ تشابك فخذيّ؛ اشتكيت بلطف، وتوسلت إليه أن يتركني وشأني؛ وأخبرته أنني لست على ما يرام. ومع ذلك، فقد رأى أن مقاومتي كانت شكلية أكثر منها جدية صادقة. وضع شروطه للتوقف عن ملاحقته، وهي أن أُجبر على الذهاب إلى الفراش فورًا، بينما يُصدر بعض الأوامر لصاحبة المنزل، وأنه سيعود بعد ساعة، على أمل أن يجدني أكثر تقبلاً لرغبته بي مما كنت عليه الآن. لم أوافق ولم أرفض، لكن تصرفاتي وطريقة استقبالي لعرضه أوحت له بأنني لا أعتبر نفسي سيدةً كافيةً لأرفضه.

وعليه خرج وتركني، وبعد دقيقة أو دقيقتين، وقبل أن أستعيد رباطة جأشي للتفكير، دخلت الخادمة ومعها أدوات سيدتها، وإبريق فضي صغير لما أسمته حلوى العروس، وطلبت مني أن آكلها وأنا ذاهبة إلى الفراش، وهو ما فعلته بالفعل، وشعرت على الفور بحرارة، نار تسري كصيحة في كل جزء من جسدي؛ كنت أحترق، وأتوهج، ولم أعد أرغب في أي رجل.

بمجرد أن استلقيت، أخذت الخادمة الشمعة، وتمنت لي ليلة سعيدة، ثم خرجت من الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

لم تكد تنزل الدرج حتى فتح السيد هـ باب غرفتي بهدوء، ودخل وقد خلع ملابسه، مرتدياً قميص نومه وقبعته، ومعه شمعتان مضاءتان، وأغلق الباب بإحكام، مما أثار فيّ، رغم أنني كنت أتوقعه، نوعاً من القلق. اقترب مني على أطراف أصابعه، وهمس بلطف: "أرجوكِ يا عزيزتي، لا تفزعي... سأكون لطيفاً معكِ للغاية". ثم خلع ملابسه بسرعة، وقفز إلى السرير، تاركاً لي، أثناء خلعه، فرصة كافية لأتأمل بنيته القوية، وأطرافه المفتولة، وصدره الخشن الكثيف الشعر.

اهتز السرير مرة أخرى عندما تلقى هذا الحمل الجديد. استلقى على حافته، حيث أبقى الشموع مشتعلة، لا شك لإشباع كل حواسي، فما إن قبلني حتى أنزل أغطية السرير، وبدا وكأنه في حالة ذهول لرؤية جسدي كاملاً، والذي غمره بوابل من القبلات، ولم يترك جزءًا مني إلا وداعًا. ثم، وهو جاثٍ على ركبتيه بين فخذي، رفع قميصه، وكشف عن فخذيه المشعرتين، وجذعه المنتصب، وقميصه الأحمر، وشعره المجعد المتشابك الذي غطى بطنه بالكامل، وأعطاه مظهرًا كأنه فرشاة لحم؛ وسرعان ما شعرت به يلامس جسدي، عندما دق المسمار حتى رأسه، ولم يترك أي فاصل سوى الشعر المتوسط على كلا الجانبين.

لقد امتلكته الآن، وشعرت به الآن، وبدأت بالقيادة، وسرعان ما أطلق على الطبيعة نداءً قوياً إلى مساكنها المفضلة، بحيث لم يعد بإمكانها رفض العودة إلى هناك؛ ثم اندفعت جميع أرواحي الحيوانية بشكل آلي إلى مركز الجذب هذا، وبعد فترة وجيزة، وقد سخنت داخلياً، وتحركت كما لو كنت فوق طاقتي، فقدت كل ضبط للنفس، واستسلمت لقوة العاطفة، وأطلقت، كامرأة عادية، تلك التدفقات من المتعة، التي كنت أتمنى، في صرامة الحب المخلص، أن أحتفظ بها.

ومع ذلك، يا له من فرق هائل شعرت به بين هذا الانطباع عن متعة حيوانية بحتة، ناتجة عن تصادم الجنسين، بفعل تأثير جسدي سلبي، وبين تلك الغضبة الحلوة، ذلك الغضب من البهجة النشطة التي تتوج متع الحب المتبادل، حيث يتحد قلبان، متحدان برقة وصدق، لرفع مستوى الفرح، ومنحه روحًا ونفسًا تتحدى تلك الغاية التي تنتهي إليها الرغبات اللحظية عادةً، عندما تموت من فرط الإشباع!

السيد هـ...، الذي لم تبدُ عليه أي تمييزات من هذا القبيل، لم يمنح نفسه أو لي فرصة لالتقاط الأنفاس منذ اللقاء الأخير، بل كما لو أنه كلف نفسه بإثبات أن مظاهر قوته لم تكن مجرد علامات معلقة عبثًا، ففي غضون دقائق قليلة كان في حالة تسمح له بتجديد الهجوم؛ والذي، بعد أن استهله بعاصفة من القبلات، انطلق بنفس المسار كما في السابق، بحماس لا يلين؛ وهكذا، في لقاءات متكررة، أبقاني في حالة تمرين مستمر، حتى فجر الصباح، وخلال كل ذلك الوقت جعلني أدرك تمامًا مزايا بنية أطرافه القوية، وكتفيه المربعين، وصدره العريض، وعضلاته القوية المتماسكة، باختصار نظام رجولة، يمكن اعتباره صورة جيدة لباروناتنا القدماء الأشداء، الذين أصبح نسلهم الآن مصقولًا تمامًا ومهترئًا في الهيكل الأكثر رقة وحداثة لأبنائنا ذوي الأعصاب الرقيقة، الذين هم شاحبون، وجميلون، وذكوريون تقريبًا مثل أخواتهم.

أما السيد هـ...، فقد كان راضياً، مع ذلك، بأن ينبثق النهار بعد انتصاره، وتركني أستمتع بالراحة التي كنا نرغب بها كلانا، وسرعان ما غرقنا في نوم عميق.

على الرغم من أنه كان مستيقظًا قبلي ببعض الوقت، إلا أنه لم يعرض إزعاج الراحة التي منحني إياها كثيرًا؛ ولكن عند أول استيقاظ لي، والذي لم يكن حتى بعد الساعة العاشرة، اضطررت إلى تحمل اختبار آخر لرجولته.

في حوالي الحادية عشرة، دخلت السيدة جونز ومعها وعاءان من أشهى أنواع الحساء، الذي دفعها خبرتها في هذه الأمور إلى تحضيره. أتجاوز هنا المجاملات المبالغ فيها، وعبارات الوساطة المحترمة التي رحبت بها بنا؛ ولكن على الرغم من أن دمي ثار عند رؤيتها، إلا أنني كتمت مشاعري، ووجهت كل اهتمامي إلى التفكير في عواقب هذا الارتباط الجديد.

لكن السيد هـ...، الذي استوعب قلقي، لم يدعني أعاني منه، وأخبرني أنه بعد أن شعر بمودة صادقة تجاهي، سيبدأ بإعطائي علامة واضحة على ذلك، وهي إخراجي من منزل لا بد أنه، لأسباب عديدة، مزعج وغير سار بالنسبة لي، إلى مسكن مناسب، حيث سيعتني بي بكل ما يمكن تصوره؛ ولأنه لم يرغب في الدخول في أي نقاشات مع صاحبة المنزل، أو أن يكون غير صبور حتى عودته، ارتدى ملابسه وخرج، تاركًا لي محفظة بها جنيهان وعشرون جنيهاً، وهو كل ما كان معه، كما قال، ليملأ جيبي أكثر.

ما إن رحل، حتى شعرتُ بالنتيجة المعتادة لأول انزلاق في الرذيلة (إذ لم يظهر لي تعلقي بتشارلز قط بتلك الصورة). جرفني التيار فجأةً دون أن أعود إلى الشاطئ. تضافرت احتياجاتي المُلحة، وامتناني، وقبل كل شيء، لأكون صريحة، التبذير والعبث اللذان بدأتُ أجدهما في هذه المعرفة الجديدة، من الأفكار السوداء المُدمرة التي كان قلبي فريسةً لها منذ رحيل تشارلز الحبيب، لتُطغى على كل أفكاري المُعاكسة. إذا ما فكرتُ الآن في حبيبي الأول، حبيبي الوحيد، فما زلتُ أفكر فيه برقة وندم أشد الحب، ممزوجين بمرارة إدراكي أنني لم أعد أستحقه. كان بإمكاني أن أتسول قوت يومي معه في أي مكان في العالم، ولكن يا لبؤسي! لم تكن لديّ الفضيلة ولا الشجاعة اللازمتان للبقاء بعد فراقنا.

ومع ذلك، لو لم يكن قلبي مرتبطًا مسبقًا، لكان السيد هـ... ربما هو السيد الوحيد له؛ لكن المكان كان ممتلئًا، وقوة التخمينات وحدها هي التي جعلته يمتلكني؛ سحري، بالمناسبة، كان هدفه الوحيد وشغفه، وبالطبع لم يكن أساسًا لحب رقيق أو دائم.

لم يعد حتى الساعة السادسة مساءً ليأخذني إلى مسكني الجديد؛ وسرعان ما تم حزم أمتعتي ونقلها في عربة أجرة، ولم أشعر بأسف كبير لمغادرة صاحبة المنزل التي كنت أعتقد أن لدي الكثير من الأسباب لعدم الإعجاب بها؛ أما من جانبها، فلم يكن لها أي تأثير على بقائي أو رحيلي، إلا ما يتعلق بالربح الذي تحقق.

سرعان ما وصلنا إلى المنزل المخصص لي، والذي كان منزل تاجر بسيط، كان، من أجل المصلحة، خاضعاً تماماً لإخلاص السيد هـ...، والذي كان يؤجر له الطابق الأول، المفروش بشكل أنيق للغاية، مقابل جنيهين في الأسبوع، وكنت أنا سيدة المنزل، مع خادمة لخدمتي.

بقي معي ذلك المساء، وتناولنا العشاء من حانة مجاورة، وبعدها، وبعد كأس أو كأسين من الشراب، أوصلتني الخادمة إلى الفراش. ثم لحق بي السيد هـ... بعد قليل، وعلى الرغم من إرهاق الليلة السابقة، لم أجد منه أي رحمة أو تسامح: فقد تظاهر، كما أخبرني، بأنه يستمتع بتولي أمر شقتي الجديدة.

مع تقدم الصباح، وصلنا إلى الإفطار؛ وانكسر الجليد، وبدأ قلبي، الذي لم يعد غارقًا في الحب، يرتاح، ويستمتع بمثل هذه الأشياء التافهة. دفعه كرم السيد هـ... إلى التباهي المعتاد لدى النساء . حرير، دانتيل: أقراط، عقد لؤلؤ، ساعة ذهبية، باختصار، كل الحلي والملابس أُغدق عليّ بسخاء؛ شعورٌ، إن لم يُقابل بالحب، فقد فرض نوعًا من المودة الممتنّة، أشبه بالحب: تمييزٌ من شأنه أن يُفسد متعة تسعة أعشار حُراس المدينة، وهو، على ما أظن، السبب الوجيه وراء قلة من يُدركونه.

لقد أصبحت الآن سيدة محترمة، تتمتع بمنزل أنيق، وسكن جيد، ودخل كافٍ للغاية، وتتألق بكل بريق الملابس.

ظل السيد هـ... لطيفًا وحنونًا معي؛ ومع ذلك، مع كل هذا، كنت بعيدًا كل البعد عن السعادة: فإلى جانب ندمي على شبابي العزيز، الذي، على الرغم من أنه غالبًا ما يتم تعليقه أو تحويله، إلا أنه لا يزال يعود إلي في لحظات معينة من الكآبة بعنف مضاعف، كنت أرغب في المزيد من الاختلاط، والمزيد من اللهو.

أما السيد هـ... فقد كان متفوقًا عليّ في كل شيء، لدرجة أنني شعرت بذلك أكثر من اللازم، مما قلل من امتناني له. وهكذا نال تقديري، مع أنه لم يستطع أن يرتقي بذوقي؛ لم أكن مؤهلًا لأي نوع من الحديث معه، إلا نوعًا واحدًا، وهو نوع من الرضا يترك فترات مملة، إن لم يملأها الحب أو غيره من وسائل التسلية.

السيد هـ...، الخبير والمتعلم في طرق التعامل مع النساء، واللاتي مر عدد كبير منهن بين يديه، لا شك أنه سرعان ما أدرك هذا الانزعاج، ودون أن يوافقني أو يحبني أكثر بسبب ذلك، كان لديه التسامح الكافي ليسمح لي بذلك.

كان يقيم لي العشاء في مكان إقامتي، حيث كان يحضر معه العديد من رفاقه في ملذاته، مع عشيقاتهم؛ وبهذه الطريقة دخلت في دائرة من المعارف، سرعان ما جردتني من كل ما تبقى من الخجل والحياء الذي ربما كان لا يزال موجودًا من تربيتي الريفية، والذي كان، ربما، أعظم ما يميزني.

لقد تبادلنا الزيارات شكلاً وصورة، وقلّدنا، قدر استطاعتنا، كل البؤس والحماقات والوقاحة التي تتسم بها النساء نوعياً، والتي يضيعن وقتهن فيها، دون أن يدركن أبداً أنه لا يوجد على وجه الأرض شيء أكثر سخافة، وأكثر سطحية، وأكثر تفاهة، وأكثر انعداماً للقيمة، مما هو عليه نظام حياتهن بشكل عام: بل يجب عليهن معاملة الرجال كطغاة، حقاً! لو أنهن حكمن عليهم بذلك.

لكن مع ذلك، من بين العشيقات اللاتي كنت أعيش معهن (وكنت أعرف الآن الكثيرات منهن، بالإضافة إلى بعض السيدات المتعاونات اللاتي يعشن على علاقاتهن بهن)، لم أكن أعرف واحدة منهن لا تكره أصحابها كراهية شديدة، وبالطبع لا تبالي بأي خيانة يمكنها القيام بها بأمان، لم يخطر ببالي بعد أن أظلم عشيقتي: فإلى جانب أن أي علامة من علامات الغيرة من جانبه لم تلمح لي، أو تستفزني لألعب معه خدعة من هذا القبيل، وأن كرمه الدائم وأدبه واهتمامه الرقيق بإرضائي، أجبرني على احترامه، وهو ما ضمن له إخلاصي دون أن يؤثر على قلبي، لم يظهر بعد أي شيء يمكن أن يتغلب على الإعجاب المعتاد الذي كنت أكنه له، وكنت على وشك الحصول، من تصرفات كرمه الطوعي، على نفقة متواضعة للحياة، عندما وقع حادث حطم كل التدابير التي اتخذها لصالحي.

كنت قد عشت قرابة سبعة أشهر مع السيد هـ...، وفي أحد الأيام، عدتُ إلى مسكني من زيارةٍ في الحيّ، حيث كنتُ أعتاد المبيت لفترة أطول، فوجدتُ باب الشارع مفتوحًا، وخادمة المنزل واقفةً عنده تتحدث مع بعض معارفها، فدخلتُ دون أن أطرق الباب، وبينما كنتُ أمرّ، أخبرتني أن السيد هـ... في الطابق العلوي. نمتُ في الطابق العلوي في غرفتي، ولم يكن في بالي سوى خلع قبعتي وما إلى ذلك، ثم خدمته في غرفة الطعام، التي كان لغرفة نومي بابٌ يؤدي إليها، كما هو شائع. وبينما كنتُ أفكّ رباط قبعتي، تخيلتُ أنني سمعتُ صوت خادمتي حنة ونوعًا من الضجيج، مما أثار فضولي. تسللت بهدوء إلى الباب، حيث تم فك عقدة في الخشب، مما أتاح لي فتحة رؤية واسعة للغاية للمشهد الذي كان آنذاك مضطرباً، والذي كان ممثلوه منشغلين للغاية لدرجة أنهم لم يسمعوا فتحي لبابي الخاص، من مكان هبوط الدرج، إلى غرفة نومي.

أول ما لفت انتباهي كان السيد هـ... وهو يسحب ويجر هذا العربة الريفية الخشنة نحو أريكة كانت تقف في زاوية غرفة الطعام؛ لم تبدِ الفتاة سوى مقاومة محرجة، وصرخت بصوت عالٍ لدرجة أنني، الذي كنت أستمع من الباب، بالكاد استطعت سماعها: "أرجوك يا سيدي، لا... دعني وشأني... لستُ في انتظار دورك... لا يمكنك، بالتأكيد، أن تُهين نفسك بجسد ضعيف مثلي... يا سيدي! يا سيدي، قد تعود سيدتي إلى المنزل... لا يجب عليّ حقًا... سأصرخ..." كل هذا لم يمنعها من الاستسلام دون وعي لتُقاد إلى أسفل الأريكة، حيث دفعتها دفعة خفيفة جدًا لتسقط بسهولة بالغة، وبعد أن رفع الرجل يديه إلى قبضته القوية على جسدها، لا شك أنها اعتقدت أن الوقت قد حان للتخلي عن الجدال، وأن كل دفاع آخر سيكون عبثًا: فألقى الرجل بملابسها الداخلية على وجهها، الذي كان الآن أحمر كالقرمزي، ليكشف عن زوج من الأفخاذ الممتلئة والسميكة، والبيضاء إلى حد ما؛ أحاط نفسه بهم، ثم خرج بسلاحه المسلول، وغرزه في فتحة الشرج، حيث بدا أنه وجد مدخلاً أسهل مما كان يظن (فهذه الفتاة، بالمناسبة، قد تركت مكانها في الريف من أجل ابن غير شرعي)، وبالفعل، أظهرت جميع حركاته أنه كان طليقًا تمامًا. بعد أن انتهى، نهضت حبيبته، وألقت بتنورتها الداخلية، وسوّت مئزرها ومنديلها. بدا السيد هـ... أحمقًا بعض الشيء، فأخرج بعض المال، وأعطاها إياه، ببرود تام، آمرًا إياها أن تكون فتاة مطيعة، وألا تتكلم.

لو كنتُ أحب هذا الرجل، لما كان من طبيعتي أن أتحلى بالصبر لأرى المشهد برمته حتى النهاية: لكنتُ اقتحمتُ المكان ولعبتُ دور الأميرة الغيورة بكل قوة. لكن لم يكن الأمر كذلك: لقد جُرحت كبريائي فقط، ولم يُجرح قلبي، وكان من الأسهل عليّ أن أقنع نفسي بأن أرى إلى أي مدى سيذهب، حتى لا يبقى في ضميري أي شك.

بعد أن انتهى أقل الأمور حساسية من هذا القبيل، انسحبتُ بهدوء إلى خزانتي، حيث بدأتُ أفكر فيما يجب عليّ فعله. كانت خطتي الأولى، بطبيعة الحال، هي الاندفاع إليهم وتوبيخهم؛ وهذا، في الواقع، كان سيُرضي مشاعري وانزعاجي الحالية، لأنه كان سيُتيح لي متنفساً فورياً لها؛ ولكن، بعد التفكير ملياً، ولأنني لم أكن متأكداً تماماً من العواقب التي قد تترتب على مثل هذه الخطوة، بدأتُ اكتشافي في وقتٍ أكثر أماناً، عندما يكون السيد هـ... قد أتمّ التسوية التي عرضها عليّ، والتي لم أكن أعتقد أن مثل هذا التفسير العنيف، الذي لم أكن قادراً على إدارته، يمكن أن يُحقق تقدماً، بل قد يُدمره. من ناحية أخرى، بدا الاستفزاز فاحشاً للغاية، صارخاً للغاية لدرجة أنه أثار فيّ بعض أفكار الانتقام؛ ومجرد التفكير في هذه الفكرة أعادني إلى هدوئي التام. وبينما كنتُ مسرورةً بالخطة المُربكة التي تدور في رأسي، كنتُ مُسيطرةً على نفسي بما يكفي لأُبقي على جزء الجهل الذي فرضته على نفسي؛ وما إن انتهت دوامة الأفكار هذه فجأةً، حتى تسللتُ على أطراف أصابعي إلى باب الممر، وفتحته بصوتٍ عالٍ، مُتظاهرةً بأنني عدتُ إلى المنزل في تلك اللحظة؛ وبعد توقفٍ قصير، كما لو كنتُ أخلع أغراضي، فتحتُ باب غرفة الطعام، حيثُ وجدتُ الرجلَ المُهمل يُشعل النار، وراعيّ الأمين يتجول في الغرفة، ويُصفر، هادئًا وغير مُبالٍ كما لو لم يحدث شيء. أعتقدُ، مع ذلك، أنه لم يكن لديه الكثير ليتباهى به لتفوقه عليّ في التظاهر: فقد حافظتُ، بنبل، على شخصية جنسنا في الفن، وتوجهتُ إليه بنفس الصراحة والوضوح اللذين استقبلته بهما دائمًا. مكثَ قليلًا، وقدّم عذرًا لعدم قدرته على البقاء معي طوال المساء، وخرج.

أما الفتاة، فقد أصبحت مدللة، على الأقل بالنسبة لخادمي؛ وما هي إلا ثماني ساعات وأربعون دقيقة حتى أثارت وقاحتها، بسبب ما دار بينها وبين السيد هـ...، فضولي، فأعطيتها فرصة سانحة لصدّها فورًا، ولو لم أفعل لكان ذلك عجيباً؛ فلم يكن بوسعه أن يستنكر ذلك، ولا أن يجد فيه أدنى شك في دوافعي الأصلية. لا أعلم ما حلّ بها بعد ذلك؛ ولكن على الرغم من كرم السيد هـ...، فإنه بلا شك قد عوضها؛ مع أنني أظن أنه لم يعد يتعامل معها من هذا النوع؛ إذ إن انحداره إلى تلك اللقمة البذيئة لم يكن إلا نزوة عابرة من الشهوة، حين رأى فتاة ريفية جميلة ممتلئة الجسم، وليس أغرب من الجوع، أو حتى من شهية عابرة تتناول وجبة سريعة من لحم الرقبة، كتغيير في النظام الغذائي.

لو أنني نظرت إلى مغامرة السيد هـ... على هذا النحو فقط واكتفيت بطرد تلك الفتاة، لكنت فكرت وتصرفت بشكل صحيح؛ ولكن، كما كنت غارقًا في مظالم وهمية، لكنت اعتبرت السيد هـ... مخطئًا، لو لم أدفع انتقامي إلى أبعد من ذلك، وأرد له الصاع صاعين قدر استطاعتي، من أجل روحي، بنفس العملة.

لم يتأخر هذا العمل العادل الجديد بالثناء طويلاً: فقد كان هاجسي الأكبر. قبل نحو أسبوعين، استعان السيد هـ... بابن أحد المستأجرين، الذي قدم لتوه من الريف، شاب وسيم للغاية، لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، نضر كالوردة، مفتول العضلات وذو بنية قوية: باختصار، عذر وجيه لأي امرأة، حتى وإن كان الانتقام مستبعداً؛ أي امرأة، أقول، متحررة من الأحكام المسبقة، وتملك من الذكاء والحيوية ما يكفي لتفضيل المتعة على الكبرياء.

السيد هـ... كان قد ألبسه زيًا رسميًا؛ وكانت مهمته الرئيسية، بعد أن يُريَني مسكني، جلب الرسائل بيني وبين سيده؛ ولأن وضع جميع السيدات المدللات ليس مناسبًا لإثارة الاحترام، حتى لدى أحطّ الناس، وربما أقل من ذلك لدى أكثرهم جهلًا، لم يسعني إلا أن ألاحظ أن هذا الفتى، الذي كان، على ما أظن، على دراية بقرابتي بسيده من خلال زملائه الخدم، كان ينظر إليّ بتلك النظرة الخجولة المرتبكة، الأكثر تعبيرًا، والأكثر تأثيرًا، والأكثر جاذبية لجنسنا، من أي تصريح آخر على الإطلاق: يبدو أن هيئتي قد أثارت إعجابه، وعلى الرغم من تواضعه وبراءته، لم يكن يعلم أن المتعة التي شعر بها وهو ينظر إليّ كانت حبًا أو رغبة؛ لكن عينيه، اللتين كانتا بطبيعتهما شهوانيتين، والآن مشتعلتين

بالعاطفة، تحدثنا أكثر بكثير مما كان يتخيل. حتى الآن، في الواقع، لم أكن ألاحظ سوى جمال الشاب، ولكن دون أدنى نية: كان كبريائي وحده سيحميني من التفكير في ذلك، لولا أن تصرف السيد هـ... بتواضع مع خادمتي، حيث لم يكن هناك نصف الإغراء، من حيث الشخص، جعلني مثالاً خطيراً؛ لكنني الآن بدأت أنظر إلى هذا الشاب على أنه بكل الطرق أداة لذيذة لانتقامي المخطط له من السيد هـ... من دين كنت سأضحي من أجله بضميري.

ولتمهيد الطريق لإنجاز خطتي، في المرتين أو الثلاث التي جاءني فيها الشاب برسائل، تمكنتُ، أو دون تكلف، من إدخاله إلى جواري، أو إحضاره إليّ إلى غرفة ملابسي؛ وبإظهار صدري له، أو السماح له بذلك دون قصد أو تخطيط، أحيانًا بشكل أكثر وضوحًا مما ينبغي؛ وأحيانًا شعري، الذي كان كثيفًا وجميلًا، منسدلًا بانسيابية أثناء تمشيطه؛ وأحيانًا ساقي الأنيقة، التي انزلق رباطها للأسف، والتي لم أتردد في ربطها أمامه، أعطيته انطباعات مواتية لهدفي، والتي كنت ألاحظ بريقها في عينيه، وتوهج وجنتيه: ثم ضغطات خفيفة على يدي، وأنا أتلقى منه الرسائل، كانت كافية لتحقيق غايته تمامًا.

عندما رأيته متأثراً ومتحمساً لغرضي، أشعلت فيه ناراً أكبر، من خلال طرح عدة أسئلة موجهة عليه، مثل: "هل كانت لديه عشيقة؟... هل كانت أجمل مني؟... هل كان بإمكانه أن يحب فتاة مثلي؟..." وما شابه ذلك؛ فأجابني الأحمق الخجول على كل ما أردته، بنبرة طبيعية مثالية، وبراءة كاملة غير منحرفة، ولكن بكل خرق وبساطة التربية الريفية.

عندما ظننت أنني قد هيأته بما يكفي للغرض النبيل الذي كنت أقصده، وفي أحد الأيام التي كنت أنتظره فيها في ساعة محددة، حرصت على أن يكون المكان خالياً لاستقباله الذي خططت له؛ وبينما كنت أخطط، أتى إلى باب غرفة الطعام، وطرق عليه، وعندما دعوته للدخول، دخل وأغلق الباب خلفه. طلبت منه حينها أن يغلقه من الداخل، متظاهراً بأنه لن يُغلق لولا ذلك.

كنتُ حينها مستلقيةً أخيرًا على تلك الأريكة نفسها، مسرحَ أفراح السيد هـ... المهذبة، بملابسٍ فضفاضةٍ زاهيةٍ، في فوضى مغريةٍ للغاية: لا مشدّ، لا طوق...، لا شيء يعيقني. من جهةٍ أخرى، كان يقف على مسافةٍ قصيرةٍ، أتاحت لي رؤيةً كاملةً لشابٍ ريفيٍّ وسيمٍ، رشيقٍ، يتمتع بصحةٍ جيدة، يتنفس عبير الشباب النضر؛ شعره الأسود اللامع ينسدل على وجهه في تجعيداتٍ جانبيةٍ طبيعية، ومصففٌ بثنياتٍ أنيقةٍ من الخلف؛ سروالٌ جديدٌ من جلد الغزال، ضيقٌ، يُظهر شكل فخذٍ ممتلئٍ وجميل؛ جواربٌ بيضاء، ولباسٌ مزينٌ برباطٍ، وعقدةٌ على الكتف، كل ذلك شكّل هيئةً من لحمٍ ودمٍ خالصين، ولم يبدُ عليه أيّ عيبٍ من بساطة ملابسه، التي بدت أنيقةً ومرتبةً بشكلٍ خاص.

أمرته بالاقتراب مني وإعطائي رسالته، وفي الوقت نفسه ألقيت، بلا مبالاة، كتابًا كان في يدي. احمرّ وجهه، واقترب مني ليُسلّمني الرسالة، التي مدّها إليّ، بطريقةٍ غير متقنة، لأخذها، وعيناه مثبتتان على صدري، الذي كان، بسبب الفوضى المتعمدة لمنديلي، مكشوفًا بما فيه الكفاية، وليس مخفيًا.

ابتسمت في وجهه، وأخذت الرسالة، وأمسكت بكم قميصه على الفور، وجذبته نحوي، وقد احمر وجهه خجلاً، وكاد يرتجف؛ فمن المؤكد أن خجله الشديد وقلة خبرته استدعت، على الأقل، كل هذه الخطوات لتشجيعه: كان جسده الآن مائلاً نحوي بشكل ملائم، وهززت ذقنه الخالي من اللحية برفق، وسألته: "هل كان يخاف من سيدة؟..." ومع ذلك أخذت الرسالة، ووضعت يديه على صدري، وضغطت عليها برفق. لقد كانوا الآن مزينين بشكل فاخر، وجسديين، بحيث كانوا يلهثون من الرغبة، ويرتفعون وينخفضون، في حركات سريعة، تحت لمسته: عند هذا، بدأت عينا الصبي تتوهجان بكل نيران الطبيعة الملتهبة، واحمرت وجنتاه بلون قرمزي داكن: عاجزًا عن الكلام من شدة الفرح والنشوة والخجل، لم يستطع الكلام، ولكن نظراته، وانفعاله، أقنعتني بما فيه الكفاية بأن قطاري قد انطلق، وأنه ليس لدي ما أخشاه من خيبة أمل.

شفتاي، اللتان ألقيتهما في طريقه ليُجبر على تقبيلهما، ثبتتا عليه، وأشعلتا فيه الحماس، وشجعتاه. ثم، وأنا أُلقي نظرة خاطفة على ذلك الجزء من ثوبه الذي يُغطي موضع المتعة الأساسي، اكتشفتُ بوضوح الانتفاخ والاضطراب هناك. ولأنني كنت قد تجاوزت مرحلة التوقف بهذه الطريقة اللطيفة،

ولم أعد قادرة على كبح جماح نفسي، أو انتظار تقدم خجله البطيء (إذ بدا كذلك، وكان كذلك بالفعل)، دسستُ يديّ على فخذيه، حيث رأيتُ وشعرتُ بجسد صلب متصلب، مُقيد بسرواله، لم تجد أصابعي له نهاية. بدافع الفضول، ورغبةً في كشف هذا اللغز المُخيف، كنتُ ألعب، كما لو كنتُ ألعب، بأزراره التي كانت على وشك الانفجار من القوة الكامنة بداخله، فانفتحت أزرار حزامه وغطاء صدره بلمسة واحدة، وخرج منها شيء ما. والآن، وقد انفصل عن قميصه، رأيتُ، بدهشة ودهشة، ماذا؟ لم يكن مجرد لعبة صبي، ولا سلاح رجل، بل كان عمودًا ضخمًا، لو رُوعيت أبعاده، لظننتُ أنه يعود لعملاق صغير. ومع ذلك، لم أستطع، دون سرور، أن أنظر، بل وأجرؤ على لمس، ذلك الطول، ذلك العرض من العاج الحي! منحوت ومصقول بإتقان، وصلابته الفخورة تبرز من خلال جلده، الذي قد ينافس صقله الناعم وملمسه المخملي نعومة أكثر نساء جنسنا رقة، وبياضه الناصع يزداد جمالًا بفضل خصلة من الشعر الأسود المجعد حول قاعدته: ومن خلال تلك الخصلات، كان الجلد الأبيض يتألق كما لو كنت ترى في أمسية صافية الضوء الساطع من خلال أغصان الأشجار البعيدة التي تعلو قمة تل: ثم ذلك اللون الأزرق العريض للرأس، والخطوط الزرقاء المتعرجة لعروقه، شكلت معًا أروع مزيج من الشكل والألوان في الطبيعة. باختصار، كان مصدرًا للرعب والبهجة في آن واحد.

لكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن صاحب هذه الغرابة الطبيعية، بسبب قلة المناسبات في صرامة تربيته المنزلية، والوقت القصير الذي قضاه في المدينة لم يمنحه فرصة لذلك؛ كان حتى الآن غريباً تماماً، عملياً على الأقل، عن استخدام كل تلك الرجولة التي كان يمتلكها بنبل؛ والآن وقع عليّ أن أخوض تجربته الأولى معها، إذا استطعت أن أقرر تحمل مخاطر عدم تناسبها مع ذلك الجزء الرقيق مني، الذي كانت مثل هذه الآلة الضخمة مناسبة جداً لتدميره.

لكن الوقت قد حان للتفكير ملياً، ففي هذه الأثناء، كان الشاب قد أثقلته الرغبة الجامحة، وأصبح من الصعب كبح جماحه بالحياء والرهبة اللذين كانا يقيدانه حتى الآن، فغامر، مدفوعاً بدافع قوي وإلهام من الطبيعة وحدها، أن يدس يديه المرتعشتين من شدة الرغبة تحت تنورتي الداخلية؛ ولما رأى، على ما أظن، أن نظراتي لم تكن قاسية بما يكفي لإيقافه أو إحباطه، تحسس، ثم أمسك برفق بمركز شهوته. آه! لقد حسمتني لمسته النارية، وتلاشت مخاوفي أمام حرارته اللافحة، فانكشفت فخذي من تلقاء نفسها، واستسلمت تماماً ليده: والآن، بحركة موفقة رفعت تنورتي الداخلية، أصبح الطريق واضحاً وجذاباً للغاية بحيث لا يمكن تفويته. ها هو ذا فوقي: كنت قد وضعت نفسي تحته بحركة مفاجئة، في وضع مريح ومفتوح قدر الإمكان لمحاولاته، التي كانت غير متوقعة بما يكفي، إذ أن عضوه، الذي لم يجد منفذًا، كان يخترقني ويضربني بعنف في دفعات عشوائية، تارةً من الأعلى، وتارةً من الأسفل، وتارةً بجانب رأسه؛ حتى، وقد نفد صبري من لمساته المزعجة، وجهت يدي برفق، هذا العضو المتهور إلى حيث سيتلقى مبتدئي الصغير درسه الأول في المتعة. وهكذا، في النهاية، شقّ الفتحة الدافئة والضيقة؛ لكنه لم يجد ثغرة مستحيلة، ففتحتي، على الرغم من دخوله المتكرر، كانت لا تزال بعيدة كل البعد عن أن تكون واسعة بما يكفي لاستيعابه بسهولة.

لكن بتوجيهي، كان رأس آلته الضخمة مدببًا للغاية، لدرجة أنني شعرت به يلامس فتحتي الحساسة، فاستجابت بحركة مناسبة لدفعه في الوقت المناسب، مما أدى إلى اتساع شفتي الآلة بقوة، فاستسلمت لاندفاعه المدعوم بهذه الحركة، حتى شعرنا كلانا بأنه قد استقر. ثم تابع طريقه، وسرعان ما دفع نفسه بقوة، وبدفعات حادة مؤلمة للغاية بالنسبة لي، حتى أصبح مطمئنًا إلى حد ما لدخوله: هنا علق، وشعرت حينها بمزيج من اللذة والألم لا يمكن وصفه. كنت أخشى على حد سواء أن يمزقني أكثر، أو أن ينسحب؛ لم أستطع تحمل البقاء معه أو الفراق. إلا أن الشعور بالألم، الذي كان طاغياً بسبب حجمه الهائل وصلابته، والذي كان يؤثر عليّ في تلك الدفعات السريعة المتواصلة، والتي سعى بها بشراسة إلى اختراقي، جعلني أصرخ برفق: "يا عزيزي، لقد آذيتني!" كان هذا كافياً لكبح جماح ذلك الفتى الرقيق المحترم حتى في منتصف حياته المهنية؛ وسرعان ما كشف عن السبب الحقيقي لشكواي، بينما عبرت عيناه بوضوح، على الفور، عن حزنه لإيذائي، وعن تردده في الابتعاد عن تلك الأماكن، التي منحته دفئها وقربها نفحة من المتعة، والتي كان الآن يتوق بشدة

لإشباعها، ومع ذلك فهو لا يزال مبتدئاً للغاية بحيث لا يخشى أن أمنعه من إراحته، بسبب الألم الذي سببه لي.

لكنني لم أكن راضيةً على الإطلاق عن اهتمامه المفرط بتعبيراتي الرقيقة؛ فقد ازداد شغفي بالشيء الذي أمامي، والذي كان لا يزال منتصبًا بشدة، مكشوف الرأس، عارضًا رأسه القرمزي العريض، فقبلت الشاب قبلةً مُشجعة، فردّ عليّ بحرارةٍ بدت وكأنها شكرٌ لي، وإغراءٌ لي في آنٍ واحد؛ وسرعان ما اتخذت وضعيةً لاستقبال الغزو المتجدد، مهما كانت المخاطرة، والذي لم يُؤخّره لحظةً واحدة: فما إن اعتلى جسدي حتى شعرتُ مرةً أخرى بالغضروف الصلب الأملس وهو يُجبرني على الدخول، وهو ما حققه بسهولةٍ أكبر من ذي قبل. ومع ذلك، ورغم ألمي من جهوده للحصول على دخولٍ كامل، والذي كان لطيفًا جدًا لدرجة أنه تمكّن من تحقيقه تدريجيًا، فقد حرصتُ على عدم الشكوى. في هذه الأثناء، يلين الممر الضيق الناعم تدريجياً، ويستسلم، ويتمدد إلى أقصى حد ممكن، بفعل المحرك السميك المدفوع بالعصا، والذي شعر على الفور بالمتعة المذهلة للشعور وألم التمدد، مما سمح له بالدخول إلى منتصف الطريق تقريبًا، عندما لم تكسبه كل الجهود العصبية التي بذلها الآن لزيادة اختراقه بوصة واحدة من هدفه: لأنه بينما كان يتردد هناك، تغلبت عليه ذروة المتعة، وسحب الضغط الشديد للتدفق الدافئ المحيط منه التدفق النشوي، حتى قبل أن أكون مستعدًا لمواجهته، والذي استمر بسبب الألم الذي تحملته أثناء الاشتباك، من الحجم الذي لا يطاق لسلاحه، على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز نصف طوله بعد.

توقعتُ حينها، دون أن أرغب بذلك، أن يسحب، لكنني خاب أملي بسرور: لأنه لم يكن ليُترك هكذا. كان الشاب مفعمًا بالحيوية، متقدًا حماسًا، ومتوردًا بالحيوية، مستعدًا تمامًا ليُعرّفني على سائقي. وما إن توقف قليلًا، وكأنه استيقظ من غيبوبة اللذة (التي بدت فيها كل حواسه مفقودة لبرهة، بينما كان يُقدّم جزيته الأولى وعيناه مغمضتان، ويتنفس بسرعة)، حتى ظلّ في مكانه، غير مكتفٍ من المتعة، مستمتعًا بهذه المتع الجديدة؛ إلى أن استعاد صلابته، التي بالكاد خفّت، والتي لم يسحب غمدها ولو لمرة واحدة، شرع من جديد في شقّ نفسه وفتح لنفسه مدخلًا كاملًا فيّ، وهو ما سهّله عليه كثيرًا الحقن البلسمي الذي كان قد رطب به للتوّ كامل الجزء الداخلي من الممر. ثم ضاعف طاقة دفعاته النشطة، مدعومة بشهية حركاتي المتأججة، فلم تعد الحواجز الناعمة المدهونة بالزيت قادرة على مقاومة هذا القفل الفعال، بل استسلمت وفتحت له مدخلاً. والآن، بتواطؤ من طبيعتي، وبجهودي الحثيثة لمساعدته، اخترق، وتسلل، وفي النهاية، شق طريقه شبراً شبراً، ودخل بالكامل، وأخيراً، دفع بقوة ليغطي الحاجز؛ وعندها، من شدة الالتصاق بين أجسادنا (حتى أن شعر كلا الجانبين كان متشابكاً ومتداخلاً تماماً)، لمعت عينا الشاب المذهول ببريق أكثر بهجةً، وأقرت جميع نظراته وحركاته بفيض من المتعة، والتي بدأت أشاركها الآن، لأنني شعرت به في أعماقي! لقد كنت مريضاً من شدة اللذة! ارتجفت من الداخل إلى درجة لا تُطاق، وشبعت تماماً. وهكذا استلقيتُ ألهثُ وأتنفس بصعوبة تحته، حتى أن أنفاسه المتقطعة، ولهجته المتلعثمة، وعيناه تلمعان بنارٍ رطبة، واندفاعاته الأكثر شراسة، وتصلبه المتزايد، جعلتني أُعلن اقتراب المرحلة الثانية: لقد أتت... واختفى ذلك الشاب الرقيق، وقد غمرته النشوة، بين ذراعي، مُذيبًا فيضًا اندفع بدفءٍ لطيف إلى أعماق جسدي؛ كل قناةٍ فيه، مُكرسة لتلك المتعة، كانت تتدفق لتختلط بها. وهكذا استمررنا للحظات، تائهين، لاهثين، فاقدين الإحساس بكل شيء، وفي كل جزءٍ منا إلا تلك الأجزاء المُفضلة من الطبيعة، حيث تركز كل ما استمتعنا به من الحياة والإحساس الآن تمامًا.

عندما انقضت لحظة من نشوتنا المتبادلة، وبعد أن سحب الشاب ذلك الجهاز اللذيذ الذي أغرق به كل أفكار الانتقام، بمعنى المتعة الحقيقية، عاد من الممر المتّسع المجروح سيلٌ من سائل لؤلؤي، تدفق على فخذيّ، ممزوجًا بخطوط من الدم، آثار تلك الآلة الوحشية التي انتصرت الآن على نوع من العذرية الثانية. لكنني سرقتُ منديلًا ووضعته على تلك المناطق، ومسحتها قدر استطاعتي، بينما كان يُعيد ترتيب ملابسه ويُزرّر أزراره.

أجلسته بجانبي، ولأنه استجمع شجاعته من هذه العلاقة الحميمة العميقة، غمرني بفيض من اللذة، في لحظة طبيعية من الامتنان والفرح، لما كشفته له من مشاهد جديدة من النعيم: مشاهد جديدة تمامًا، إذ لم يكن له أدنى معرفة بتلك العلامة الغامضة، ذلك الختم المشقوق الذي يميز المرأة، مع أنه لا أحد

أقدر منه على الغوص في أعماقها، أو إبراز جمالها الحقيقي. ولكن عندما لاحظت، من خلال حركات معينة، وقلق في يديه، لم يكن تجولهما عبثًا، أنه يتوق لإشباع فضول طبيعي، لرؤية ولمس تلك الأجزاء التي تجذب وتستحوذ على أقصى درجات الخيال، وقد سحرتني، كما كنت، أي فرصة لإرضاء رغباته الشابة، تركته يمضي كما يشاء، دون رادع أو رقابة، حتى يشبعها.

بكل سهولة، إذ قرأ في عينيّ موافقتي الكاملة على كل رغباته، لم يكن هو أكثر سعادة مني؛ فبعد أن دس يده تحت تنورتي الداخلية وقميصي، أزاح تلك الحواجز عن الأنظار، رافعًا إياها بخفة، مُغدقًا عليّ بألف قبلة، ظننّها ضرورية ربما لتشتيت انتباهي عما كان يفعله. وقد رُفعت جميع أثوابي حتى خصري، فألقيت بنفسي على الأريكة في وضعية كشفت له، بوضوح تام، عن كل ما يُثير لذتي، وعن كل ما يحيط بها من جمال. التهم الشاب المُنتشي كل شيء بعينيه، وحاول بأصابعه أن يكشف له المزيد من أسرار ذلك العمق المظلم واللذيذ: فتح شفتيه المطويتين، اللتين تُسهّلان دخول أي شيء صلب، ثم يُطبقهما حوله، ويُخفيانه عن الأنظار. وبمزيد من التحسس، صادفت نتوءًا لحميًا ناعمًا، كان مرنًا ومسترخيًا بعد المتعة الأخيرة، ثم نما الآن، تحت لمسة وفحص أصابعه النارية، أكثر فأكثر صلابة وكبرًا، حتى جعلتني حرارة ذلك الجزء الحساس أتنهد، كما لو أنه آذاني؛ عندها سحب أصابعه الفضولية المتفحصة، طالبًا مني الصفح، كما لو كان ذلك في قبلة زادت من لهيب تلك المنطقة.

دائمًا ما تترك الأشياء الجديدة أقوى الانطباعات، وخاصة في الملذات؛ فلا عجب إذن أنه انغمس في نشوة الإعجاب بأشياء مثيرة للاهتمام بطبيعتها، يراها ويلمسها لأول مرة. أما أنا، فقد نلتُ جزاءً باهظًا على المتعة التي منحتها له، متعة فحص قوة تلك الأشياء التي تُركت له، عاريةً وحرةً تحت تصرفه، على ذلك الشاب البريء الفطري: عيناه تشتعلان نارًا، ووجنتاه تتوهجان بلون أحمر فاقع، وتنهداته الحارة المتكررة، بينما كانت يداه تعصران وتفتحان وتضغطان على شفتي وجوانب ذلك الجرح العميق، أو تحركان الطحلب المتنامي برفق؛ وكل ذلك يُعلن عن الإفراط، عن فيض من البهجة، في إشباع رغباته الجامحة بهذه الطريقة. لكنه لم يطيل في استنزاف صبري، لأن الأشياء التي أمامه قد أفقدته كل ما لديه، وخرج بآلته الهائلة تلك، وأطلق العنان لغضبه، ووجهها مباشرة إلى فمه ذي الشفاه المتدلية، الذي كان يتحدى بصمت، وضغط على رأسه، واندفع بغضب متجدد، واقتحم، وسد الممر بأكمله لأنبوب المتعة الناعم هذا، حيث جعل كل شيء يهتز مرة أخرى، وأثار، مرة أخرى، كل ما بداخلي في ضجة لا يمكن لأي شيء أن يهدئها، سوى فيضان جديد من محرك تلك النيران، وكذلك من جميع الينابيع التي تطفو بها الطبيعة خزان الفرح هذا، عندما يرتفع إلى مستوى الفيضان.

كنتُ منهكًا تمامًا، مُثقلًا بالجراح، مُستنزفًا من هذه المواجهة غير المتكافئة، حتى أنني بالكاد أستطيع الحركة أو النهوض، بل بقيتُ مُستلقيًا ينبض قلبي بشدة، إلى أن هدأت حدة مشاعري تدريجيًا، وعندما حانت الساعة التي اضطررت فيها إلى توديع شابّي، أخبرته برفق بضرورة الفراق؛ شعرتُ حينها بضيقٍ مماثلٍ لضيقه، الذي بدا مُتحمّسًا للاستمرار في المعركة، والبدء في معركة جديدة. لكن الخطر كان كبيرًا جدًا، وبعد بعض القبلات الحارة للوداع، ونصائح بالسرية والتكتم، أجبرتُ نفسي على إرساله، مع تأكيداتٍ على رؤيته مرة أخرى، وللغرض نفسه، في أقرب وقت ممكن، وأعطيته جنيهًا إسترلينيًا: لا أكثر ولا أقل، فوجود المال في يدي قد يُثير الشكوك أو يُكشف أمري؛ إذ كان لديّ كل ما أخشاه من تهوّر ذلك العمر الخطير، حيث يكون الشباب في غاية الجاذبية والسحر، لولا ذلك الخطأ الفادح الذي يجب أن نحذر منه.

رغم نشوتي وسكري بتلك الجرعات المُشبعة من اللذة، بقيتُ مستلقيًا على الأريكة، مُتمددًا على ظهري، غارقًا في خمول لذيذ يُغمر جميع أطرافي، أُعانق نفسي لأني انتقمتُ كما أشبعتُ قلبي، وبطريقة مُطابقة تمامًا، وفي نفس المكان الذي تلقيتُ فيه الأذى المزعوم. لم تُشغلني أي فكرة عن العواقب، ولم أُعاتب نفسي ولو لمرة واحدة على دخولي، بهذه الخطوة، مهنةً مُستنكرة أكثر من كونها مهجورة. كان عليّ أن أعتبر الندم على اللذة التي نلتها جحودًا لها؛ وبما أنني كنتُ الآن فوق الحاجز، فكرتُ، بغمر رأسي وأذني في التيار الذي جرفني بعيدًا، أن أغرق كل شعور بالخجل أو التفكير.

بينما كنتُ أُهيّئ نفسي لهذه الاستعدادات الجديرة بالثناء، وأتمتم لنفسي بنوع من العهد الضمني بعدم ضبط النفس، دخل السيد هـ... ازداد وعيي بما كنتُ أفعله، وتعمق احمرار وجنتيّ، المتوردتين بحرارة الفعل الأخير، والذي، بالإضافة إلى رائحة ملابسي الداخلية النفاذة، استدعى من السيد هـ... إطراءً على مظهري، والذي كان يُؤكد صدقه بالأدلة، وبحركة سريعة جعلتني أرتجف خوفًا من انكشاف حال تلك الأجزاء من جراء التعامل القاسي الأخير: الفتحة متسعة وملتهبة، والشفتان منتفختان بشكل غير عادي، والتجعيدات مضغوطة ومسحقة ومتفرقة بسبب الرطوبة المتدفقة التي بللت كل شيء حولها؛ باختصار، من الصعب أن يمر هذا الشعور المختلف وحالة الأشياء دون تفسير من دقة وخبرة السيد هـ... إلا بالسبب الحقيقي. لكن هنا أنقذتني المرأة: تظاهرتُ باضطراب شديد في رأسي، وحمى شديدة، مما جعلني غير قادرة على تقبّل عناقه. فوافق على ذلك، وتوقف عن ذلك بطيبة قلب. وبعد ذلك بقليل، دخلت سيدة عجوز، فكانت هذه المرة مناسبة تمامًا لحالتي المضطربة، وبعد أن طلب مني السيد هـ... أن أعتني بنفسي، ونصحني بالراحة، غادرني وأنا أشعر براحة كبيرة واطمئنان لغيابه.

وفي ختام المساء، حرصت على تحضير حمام دافئ لي من الأعشاب العطرية والحلوة؛ وبعد أن اغتسلت فيه تماماً واسترحت، خرجت منه منتعشة جسدياً وروحياً.

في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً بعد ليلة من الراحة والهدوء التامين، ولم يخلُ الأمر من بعض الخوف والقلق عندما فكرت في الابتكار الذي ربما يكون نظامي الرقيق والحساس قد تحمله من صدمة آلة مصممة لتدميره.

انتابني هذا القلق، فكادت أن أتردد في مد يدي إلى هناك لأطلع على حالة الأمور ووضعها.

لكن سرعان ما تخلصت من مخاوفي بشكل مريح.

الشعر الحريري الذي كان يغطي الحواف، والذي تم تنعيمه وإعادة تقليمه، قد استعاد تجعيده المعتاد وتناسقه؛ الشفاه الممتلئة المتدلية التي تحملت وطأة العلاقة الحميمة، لم تعد منتفخة أو غارقة بالرطوبة؛ ولم تظهر عليها، ولا على الممر الذي انفتحت فيه، والذي عانى من اتساع كبير، أي تغيير، ظاهريًا أو باطنيًا، حتى لأكثر الأبحاث غرابة، على الرغم من الارتخاء الذي يتبع بشكل طبيعي الحمام الدافئ.

إن استمرار ذلك الانقباض الممتن الموجود فينا، بالنسبة للرجال، هو مصدر متعتهم، يعود، على ما يبدو، إلى عادة جسدي السعيدة، الممتلئة، والغنية، والمجهزة، بالنسبة لنسيج تلك الأجزاء، بامتلاء من اللحم الناعم المرن، الذي يستجيب بشكل كافٍ، كما يفعل، لأي تمدد تقريبًا، سرعان ما يستعيد نفسه لكي يعيد شد ذلك الضغط الصارم لأغشيته وثنياته، التي تشكل جوانب الممر، والتي من خلالها يحتضن ويثبت أي جسم غريب يدخل فيه، مثل إصبعي المستكشف آنذاك.

بعد أن وجدت كل شيء على ما يرام، تذكرت مخاوفي، لكنني سخرت منها في نفسي. والآن، وقد أصبحتُ سيدةً لا تُقهر، منتصرةً في تحقيق هدفي المزدوج من المتعة والانتقام، استسلمتُ تمامًا لأفكار اللذة التي غمرتني. استلقيتُ ممددةً، مفعمةً بالحيوية، أتوق بشدة إلى تجديد أفراحٍ أفرطتُ فيها؛ ولم يخبُ شوقي، ففي حوالي العاشرة صباحًا، وكما توقعت، جاء ويل، حبيبي الجديد، برسالة من سيده، السيد هـ...، ليسأل عن حالي. كنتُ قد حرصتُ على إرسال خادمتي في مهمة إلى المدينة، كنتُ متأكدةً من أنها ستستغرق وقتًا كافيًا؛ ولم يكن لديّ ما أخشاه من أهل المنزل، فهم أناس طيبون، وحكماء بما يكفي لعدم التدخل في شؤون الآخرين إلا بما يريحهم.

ثم اتخذت جميع الترتيبات، ولم أنسَ أمر الاستلقاء في السرير لاستقباله، وعندما دخل باب غرفة نومي، وهو مزلاج كنت أتحكم به بواسطة سلك، نزلت وأغلقته.

لم يسعني إلا أن ألاحظ أن خادمي الشاب كان أنيقاً بقدر ما يمكن توقعه من شخص في وضعه: رغبة في إرضاء الآخرين لم تكن لتتجاهلها بالنسبة لي، لأنها أثبتت أنني أرضيته؛ وهو أمر، أؤكد لكم، لم أكن أمانع في وضعه في الاعتبار.

شعره المصفف بعناية، وملابسه الكتانية النظيفة، وقبل كل شيء، مظهره الريفي الصحي والوردي، جعله يبدو كقطعة لحم جميلة للغاية بالنسبة للنساء، وكنت سأعتبر أي شخص فاقدًا للذوق،

لا يستطيع أن يجعل من مثل هذه اللقمة وجبة دسمة، والتي يبدو أن الطبيعة قد صممتها لأعلى مستويات المتعة.

ولماذا أكتم هنا السرور الذي غمرني من هذا المخلوق اللطيف، وأنا أتأمل كل نظرة عفوية، وكل حركة تنم عن طبيعة نقية لا تشوبها شائبة، تكشفها عيناه الشهوانيتان؛ أو أُظهر بوضوح تدفق الدم وتوهجه من خلال بشرته النضرة الصافية، حتى أن قبضته الريفية القوية لم تخلُ من سحرها الخاص؟ آه! لكن، قد تقولون، إنه شاب من طبقة اجتماعية متدنية لا تستحق كل هذا التباهي. ربما يكون الأمر كذلك: ولكن هل كانت مكانتي، لو نظرنا إليها بتمعن، أسمى منه ولو قليلًا؟ أم أنني، لو كنت حقًّا أرفع منه شأنًا، ألم تكن قدرته على منح مثل هذه المتعة الرائعة كافية لرفعه ونبله، في نظري على الأقل؟ من ذا الذي يُقدّر ويُجلّ ويُكافئ فن الرسام والنحات والموسيقي، بقدر ما يُسعده؟ أما أنا، ففي سني هذا، ومع ميلي الفطري للمتعة، وهو ميلٌ متأصلٌ فيّ، فإن موهبة الإرضاء، التي وهبتها الطبيعة للإنسان الوسيم، تُشكّل في نظري أسمى الفضائل؛ مقارنةً بها، فإن الأحكام المسبقة المبتذلة المؤيدة للألقاب والمكانة والتكريمات وما شابهها، تحتل مرتبةً متدنيةً للغاية. وربما لن يُنظر إلى جمال الجسد على أنه رخيصٌ إلى هذا الحد، لو كان يُشترى ويُقدّم. ولكن بالنسبة لي، الذي تكمن فلسفتي الطبيعية في مركز الحواس المُفضّل، والذي تحكمه غريزته القوية في الاستمتاع بالمتعة، لما استطعت أن أختار خيارًا أنسب لغايتي.

إن مؤهلات السيد هـ... الأسمى من حيث النسب والثروة والعقل، وضعتني تحت نوع من الخضوع والتقييد، وهو أمر بعيد كل البعد عن تحقيق الانسجام في عزف الحب؛ وربما لم يرَني جديرة بتخفيف تلك التفوقية من أجله؛ ولكن مع هذا الشاب، كنت أقرب إلى المستوى الذي يسعد به الحب.

قد نقول ما يحلو لنا، لكن أولئك الذين نستطيع أن نكون معهم بسهولة وحرية هم دائماً أولئك الذين نحبهم، ناهيك عن أن نقول إنهم يحبوننا أكثر من غيرهم.

مع هذا الشاب، الذي كان الحب فنه بحد ذاته، استطعتُ، دون أي رهبة أو قيد، أن أطلق العنان له، وأن أنفذ كل ما يخطر ببالي من مغامرات غرامية، وكان هو، بكل معنى الكلمة، رفيقًا رائعًا. والآن، تكمن متعتي الكبرى في مجاراة كل نزواته، وكل لهوه الجامح، كشاب حديث العهد بالصيد، متلهف لرائحة صيده، لكنه لم ينقطع عن ممارسة هذه الرياضة: ولأكمل الصورة، من يستطيع قراءة الغابة أفضل منه، أو أن يكون أقدر على تجسيد روح الصيد؟

ثم تقدم إلى جانب سريري، وبينما كان يتلعثم في رسالته، استطعت أن ألاحظ احمرار وجهه وإشراق عينيه فرحاً، لرؤيتي في وضع ملائم لرغباته الجامحة، كما لو أنه قد كتب المسرحية خصيصاً.

ابتسمتُ، ومددتُ يدي نحوه، فجثا عندها (أدبٌ تعلّمه من الحب وحده، ذلك المُعلّم العظيم له) وقبّلني بشغف. بعد تبادل بعض الأسئلة والأجوبة المُربكة، سألته إن كان سيُشاركني الفراش، في الوقت القصير الذي أستطيع فيه إبقائه. كان هذا أشبه بطلبٍ من شخصٍ يحتضر جوعًا أن يتناول أشهى ما في الدنيا. وبناءً على ذلك، ودون تردد، خلع ملابسه في لحظة؛ ثم، وقد ازداد خجله من هذه الحرية الجديدة، انزلق تحت أغطية الفراش التي رفعتها لاستقباله، ليجد نفسه في الفراش مع امرأة لأول مرة في حياته.

وهنا بدأت المقدمات الرقيقة المعتادة، والتي ربما تكون لذيذة مثل ذروة المتعة نفسها؛ والتي غالباً ما تولد نفاد الصبر، مما يجعل المتعة مدمرة لنفسها، من خلال التسرع في الفترة النهائية، وإغلاق مشهد النعيم هذا، حيث يكون الممثلون عادةً راضين جداً عن أدوارهم، لدرجة أنهم يتمنون لها الخلود.

عندما تدرجنا بما فيه الكفاية نحو الهدف الرئيسي، من خلال المداعبة والتقبيل واللمس، ولمس ثديي المستديرين الممتلئين، والشعور بذلك الجزء مني الذي يمكنني تسميته بفم الفرن، من الحرارة الشديدة الهائلة التي أشعلتها لمساته النارية هناك، قام رياضيي الشاب، وقد تشجع بالحرية التي كان يتمناها، بأخذ يدي بشكل عشوائي، ووضعها على تلك الآلة الضخمة خاصته، التي كانت منتصبة

بصلابة! صلابة! انحناءة للأعلى! والتي، مع تدليها، وانتفاخ جواهر السيدات الذي لا يقدر بثمن، شكلت عرضًا رائعًا للممتلكات حقًا! ثم كادت أبعادها، التي تسخر من الإمساك بها أو مداها، أن تجدد رعبي.

لم أستطع أن أتصور كيف أو بأي وسيلة أستطيع أن أتخلص من هذا الجسم الضخم. داعبته برفق، فبدا ذلك المتمرد وكأنه ينتفخ ويكتسب مزيدًا من الشراسة والوقاحة؛ فلما رأيت أنه لم يعد من الممكن الاستهانة به، استعددت للضرب بجدية.

ثم وضعت وسادة تحتي لأمنحه أفضل فرصة، ووجهت بيدي هذا العضو الضخم، الذي يشبه رأسه الياقوتي القلب، نحو هدفه الصحيح، الذي كان مرتفعًا كما نشاء؛ وركاي مرفوعتان وفخذي في أقصى امتدادهما، والدفء المتلألئ المنبعث منه جعله يشعر وكأنه عند مدخل التيار، واندفع للأمام نحو اليمين، فاستقبلته شفتا تلك القناة المتعطشة للمتعة. تردد قليلاً؛ ثم استقر في الممر، وشق طريقه صعودًا في أجزائه المستقيمة، بصعوبة لا تعدو كونها ممتعة، متسعًا كلما تقدم حتى يمد كل أخدود ناعم وينعمه: متعتنا تزداد بشكل لذيذ، بما يتناسب مع ازدياد نقاط التلامس المتبادل في ذلك الجزء الحيوي مني الذي أخذته الآن، مدفوعًا بالكامل، ومغلقًا تمامًا؛ والتي، رغم اكتظاظها، امتدت حتى كادت تنفجر، فأعطتها بكل امتنان مساحةً مستقيمة! طيةٌ صارمة! شفطٌ قوي! منحني وأخذ لذةً لا توصف. كنا قد وصلنا الآن إلى أقرب نقطة اتحاد؛ ولكن عندما أومأ ليقترب أكثر، كما لو أنني تحركت بخوف من فقدانه، في ذروة غضبي، لففت ساقي حول خصره العاري، الذي كان لحمه، المتماسك والمرن عند اللمس، يرتجف مرة أخرى تحت الضغط؛ والآن كنت قد أحطته من كل جانب؛ وبعد أن جذبته إليّ، أبقيته هناك، كما لو أنني كنت أسعى لتوحيد أجسادنا عند تلك النقطة. أدى هذا إلى توقف مؤقت، توقف للذة، بينما ذلك الشره الرقيق، فمي السفلي، الممتلئ قدر استطاعته، استمر في تذوق، بشهية رائعة، اللقمة التي التهمته بكل لذة. لكن الطبيعة لم تستطع تحمل لذة أثارتها بشدة دون إشباعها: فسعياً وراء غايتها المنشودة، استأنفت الحركة بجهد مضاعف؛ ولم أستلقِ على جانبي بلا حراك، بل واجهته بكل اندفاع الحركة الذي كنت أتقنه، فكان قماش حصاننا الناعم الآن ذا فائدة حقيقية في تخفيف حدة التأرجح؛ وسرعان ما أثارت تلك الحركة الشديدة، والإلحاح الحلو لهذا الاحتكاك ذهاباً وإياباً، رغبتي إلى ذروتها؛ حتى وجدت نفسي على وشك الرحيل، وكرهت ترك شريك متعتي الرقيق خلفي، فاستخدمت كل الحركات والحيل التي أوحت لي بها خبرتي، لأجعله يرافقني حتى نهاية رحلتنا. لم أكتفِ حينها بتضييق محيط المتعة حول ساكني المضطرب، بواسطة زنبرك سري من الاحتكاك والضغط الذي يطيع الإرادة في تلك الأجزاء، بل سرقتُ يدي برفق إلى كيس مخزن حلويات الطبيعة الأولية، الملتصق بشكل ممتع بأنبوبه الموصل، الذي نتلقى منه هذه الحلويات؛ هناك، شعرتُ، وبأقصى درجات اللطف، وأنا أضغط على تلك الخزانات الكروية الرقيقة، كان للمسة السحرية تأثير فوري، وتسارعت،وأثار ذلك الحافز أعراض ذلك العذاب اللذيذ، لحظة الذوبان والانحلال، حين يموت اللذة بلذة أخرى، وتتغلب آلية اللذة الغامضة على الإثارة التي أثارتها في تلك الأجزاء، بإغراقها بتيار من سائل دافئ، هو في حد ذاته أسمى أنواع الإثارة، والذي تعبّر عنه تلك الأجزاء بعطش وتمتصه كالعلقة ذات الطبيعة الحارة، التي، لتبرد نفسها، تستخلص بعناد كل الرطوبة داخل نطاق عملها. ثم رنّت إليّ، بموافقة رائعة، بينما كنت أذوب، حقنته الزيتية البلسمية، تمتزج بشكل لذيذ مع التدفقات المتدفقة مني، تغلف وتخفف كل وخزات اللذة، بينما يسيطر علينا خمول شهواني، ويبقينا بلا حراك، ومتشابكين بإحكام في أحضان بعضنا البعض. يا للأسف! أن هذه المتع لن تدوم بعد الآن؛ في تلك اللحظة، أصبحت لذة اللحظة، بلا توتر، وكل تلك الأحاسيس المتدفقة التي غمرتنا، تُسلمنا إلى هموم الحياة الرتيبة. انفصلتُ عن حضنه، وأوضحتُ له أسباب رحيله عني؛ فارتدى ملابسه على مضض، لكن ببطء شديد، مُقاطعًا نفسه بين الحين والآخر بقبلات ولمسات وعناقات لم أستطع مقاومتها. عاد سعيدًا إلى سيده قبل أن يُفتقد؛ لكن عند الوداع، أجبرته (لأنه كان يملك من المشاعر ما يكفي لرفض ذلك) على أخذ مبلغ كافٍ لشراء ساعة فضية، تلك القطعة الثمينة من زينة الطبقة العاملة، والتي قبلها في النهاية كتذكار حرص على الاحتفاظ به من مشاعري.عند المغادرة، أجبرته (لأنه كان لديه مشاعر كافية لرفض ذلك) على قبول مبلغ كافٍ لشراء ساعة فضية، تلك القطعة الرائعة من زينة الضباط، والتي قبلها في النهاية كتذكار كان

حريصًا على الاحتفاظ به من مشاعري.عند المغادرة، أجبرته (لأنه كان لديه مشاعر كافية لرفض ذلك) على قبول مبلغ كافٍ لشراء ساعة فضية، تلك القطعة الرائعة من زينة الضباط، والتي قبلها في النهاية كتذكار كان حريصًا على الاحتفاظ به من مشاعري.

وهنا، سيدتي، ربما ينبغي عليّ أن أعتذر لكِ عن هذه التفاصيل الدقيقة التي رسخت في ذاكرتي بقوة، بعد أن تركت أثراً عميقاً؛ ولكن، إلى جانب أن هذه المؤامرة قد أحدثت ثورة عظيمة في حياتي، وهو ما تقتضي الحقيقة التاريخية ألا أتخلى عنه، ألا يحق لي أن أفترض أن مثل هذه المتعة السامية لا ينبغي نسيانها أو كبتها من قبلي، لمجرد أنني وجدتها في شخصية من الطبقة الدنيا؛ حيث، بالمناسبة، غالباً ما تُصادف، وأنقى، وأبسط، من تلك الموجودة بين مظاهر الرقي الزائفة والمضحكة التي يسمح العظماء لأنفسهم بأن يُخدعوا بها غشاً فاحشاً بسبب كبريائهم: العظماء! الذين لا يوجد بينهم، ممن يسمونهم بالعامة، إلا قليل ممن هم أكثر جهلاً بفن العيش، أو أقل إتقاناً له؛ أولئك، أقول، الذين يخطئون دائماً في فهم الأشياء الأكثر غرابة عن طبيعة المتعة نفسها؛ هدفهم المفضل هو الاستمتاع بالجمال، أينما وُجدت تلك الموهبة النادرة التي لا تقدر بثمن، دون تمييز بين المولد أو المكانة الاجتماعية.

كما لم يكن للحب نصيبٌ قط، كذلك لم يعد للانتقام أيّ دورٍ في علاقتي بهذا الشاب الوسيم. أصبحت لذة المتعة الوحيدة هي الرابط الذي يربطني به: فمع أن الطبيعة قد أنعمت عليه بجمالٍ فائق، ولا سيما في تلك القطعة الرائعة من الأثاث التي أغدقت عليه بها بسخاء؛ ومع أنه كان مؤهلاً لإمتاع الحواس بأروع ما يكون، إلا أن هناك شيئًا ما ينقصني لأخلقه في داخلي، ويُجسّد شغف الحب. ومع ذلك، كان لدى ويل صفاتٌ حميدةٌ أيضًا: لطيف، مطيع، وقبل كل شيء، ممتن؛ صامت، حتى أنه كان يُفرط في الصمت: كان يتحدث قليلًا في كل الأوقات، لكنه يُعوّض ذلك بأفعاله؛ ولإنصافه، لم يُعطني أبدًا أدنى سببٍ للشكوى، سواءً من ميله إلى التعدي على حرياتي التي سمحتُ له بها، أو من تهوّره في البوح بها. إذن، هناك قدرٌ محتومٌ في الحب، وإلا لكنتُ أحببته. لأنه كان حقاً كنزاً، وشيء يليق بذوق دوقة رفيعة؛ ولأكون صادقة، كان إعجابي به شديداً لدرجة أنه كان من اللطيف جداً أن أنكر أنني أحببته.

لكن سعادتي معه لم تدم طويلاً، بل انتهت بسبب إهمالي غير الحكيم. فبعد أن اتخذتُ احتياطاتٍ زائدة حتى عن الحدّ، شجعني نجاحنا في لقاءاتنا المتكررة على التغاضي عن الاحتياطات التي بالكاد كانت ضرورية. بعد حوالي شهر من أول لقاء حميم بيننا، في صباحٍ مشؤوم (في ذلك الفصل الذي نادراً ما كان السيد هـ... يزورني فيه، أو ربما لم يزرني أبداً)، كنتُ في خزانتي، حيث كانت أدوات الزينة، لا أرتدي سوى قميص نومي وروب نوم وقميص داخلي. كان ويل معي، وكنا نميل دائماً إلى تفويت أي فرصة. أما أنا، فقد استولت عليّ نزوة، لعبة جامحة، وتحديت رجلي أن ينفذها على الفور، والذي لم يتردد في تلبية رغبتي: كنت جالسة على الكرسي ذي الذراعين، وقميصي الداخلي مرفوع، وفخذي متباعدتان على ذراعي الكرسي، مما جعلني هدفًا سهلاً لسلاح ويل المسلول، والذي كان على وشك غرسه فيّ، عندما نسي السيد هـ إغلاق باب الغرفة، وباب الخزانة المفتوح جزئيًا، فتسلل إلينا قبل أن ندرك ذلك، ورآنا بالضبط في هذه الأوضاع المدانة.

أطلقتُ صرخةً مدويةً، وأسقطتُ تنورتي الداخلية: وقف الفتى المصعوق بالصاعقة يرتجف شاحباً، ينتظر حكم الإعدام. نظر السيد هـ... تارةً إلى أحدهما، وتارةً إلى الآخر، بمزيج من السخط والازدراء؛ ثم استدار على عقبيه وخرج دون أن ينبس ببنت شفة.

رغم ارتباكي الشديد، سمعته بوضوح وهو يدير المفتاح ويغلق باب الغرفة علينا، فلم يكن هناك مفر إلا من خلال غرفة الطعام، حيث كان هو نفسه يتجول بخطوات مضطربة، ويدوس بقدميه في احتكاك كبير، ولا شك أنه كان يفكر فيما سيفعله بنا.

في هذه الأثناء، كان ويليام المسكين مرعوبًا حدّ الجنون، وبقدر حاجتي الماسة للأرواح، اضطررتُ لاستخدامها كلها لأُبقيه متماسكًا بعض الشيء. المصيبة التي جلبتها عليه زادته تعلقًا بي، وكنتُ لأتحمل بسعادة أي عقاب لم يُصبه. رويتُ بدموعي بغزارة وجه الشاب المذعور، الجالس عاجزًا عن الوقوف، باردًا كالجثة الهامدة كتمثال.

ثم دخل علينا السيد هـ.. مرة أخرى، وجعلنا نتقدم أمامه إلى غرفة الطعام، ونحن نرتجف ونخشى ما سيحدث، جلس السيد هـ... على كرسي بينما كنا نقف كالمجرمين تحت الاستجواب؛ وبدأ بي، وسألني بنبرة صوت ثابتة وحازمة، لا هي ناعمة ولا قاسية، بل قاسية وغير مبالية، ماذا يمكنني أن أقول عن نفسي، بعد أن أسأت إليه بهذه الطريقة غير اللائقة، مع خادمه أيضًا، وكيف استحق مني هذا؟

دون أن أزيد من ذنب خيانتي، أو ذنب دفاعي الجريء عنها، على طريقة الخادمات المدللات، كان جوابي متواضعًا، وكثيرًا ما قاطعته دموعي، وكان مضمونه كالتالي: "لم يخطر ببالي قط أن أظلمه" (وهذا صحيح)، "حتى رأيته يتجاوز حدوده مع خادمتي" (وهنا احمرّ وجهه بشدة)، "وأن استيائي من ذلك، الذي عجزت عن التعبير عنه بالشكوى أو التبرير له، دفعني إلى سلوك لا أدّعي تبريره؛ أما بالنسبة للشاب، فهو بريء تمامًا؛ لأنني، بهدف جعله أداة انتقامي، أغويته صراحةً إلى ما فعله؛ ولذلك كنت آمل، مهما قرر بشأني، أن يميّز بين المذنب والبريء؛ وأنني، فيما عدا ذلك، تحت رحمته تمامًا".

السيد هـ.... عندما سمع ما قلته، خفض رأسه قليلاً؛ لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه، وقال لي، على حد ما أستطيع تذكره، للغرض التالي:

سيدتي، أشعر بالخجل من نفسي، وأعترف أنكِ قلبتِ الطاولة عليّ. ليس من شأن شخص مثلكِ، ذي أصول ومشاعر رقيقة، أن أمنحكِ كل هذا المنطق، رغم اختلاف دوافعكِ. يكفي أن أدخل في نقاش حول هذا الموضوع لأغير قراري، نظرًا لما تلومينني عليه. وأعترف أيضًا أن طردكِ لذلك الوغد كان تصرفًا عادلًا ونزيهًا منكِ. لا أستطيع تجديد عقدي معكِ، فالإهانة بالغة. أنهيكِ أسبوعًا كاملًا لمغادرة هذا المسكن. كل ما قدمته لكِ يبقى لكِ، وبما أنني لا أنوي رؤيتكِ مجددًا، سيدفع لكِ صاحب المنزل خمسين شلنًا على حسابي، ومع كل دين سددته، آمل أن تُدركي أنني لا أتركك في وضع أسوأ مما استقبلتكِ فيه، أو مما تستحقينه مني. لومي نفسكِ فقط لأن وضعكِ ليس أفضل.

ثم، ودون أن يمنحني فرصة للرد، توجه إلى الشاب قائلاً:

"من أجلك يا صغيري، سأعتني بك من أجل والدك: فالمدينة ليست مكاناً مناسباً لشخص ساذج مثلك؛ وغداً ستنطلق برفقة أحد رجالي، الذي أوصي به والدك باسمي، حتى لا تعود وتُفسد هنا".

عند سماعه هذه الكلمات، خرج بعد محاولتي الفاشلة لمنعه، حيث ألقيت بنفسي عند قدميه. نفضني عنه، رغم أنه بدا متأثراً للغاية أيضاً، وأخذ ويل معه، الذي أقسم أنه شعر بأنه خسر الكثير.

وجدتُ نفسي مرة أخرى تائهة، متروكة لمصيري، من رجلٍ لا أستحقه بتاتًا. وكلّ ما بذلته من جهدٍ في الرسائل والوسائل والأصدقاء والتوسلات خلال أسبوع الراحة في مسكني، لم يُجدِ نفعًا في إقناعه برؤيتي ثانيةً. لقد حكم عليّ بالهلاك نهائيًا، ولم يكن أمامي سوى الاستسلام له. وبعد فترة وجيزة، تزوج من سيدةٍ من عائلةٍ عريقةٍ وثريّة، وقد سمعتُ أنه كان زوجًا مثاليًا لها.

أما بالنسبة لويل المسكين، فقد أُرسل على الفور إلى الريف إلى والده، الذي كان مزارعًا سهلاً، ولم يمضِ على وجوده هناك أربعة أشهر حتى أعجبت به أرملة شابة ممتلئة الجسم، من أصحاب النزل، ذات أصول جيدة جدًا، سواء من الناحية المالية أو التجارية، وربما كانت على دراية مسبقة بمزاياه الخفية، وتزوجته: وأنا متأكد من أنه كان هناك، على الأقل، أساس جيد واحد لعيشهما معًا بسعادة.

مع أنني كنت سأسعد برؤيته قبل رحيله، إلا أن أوامر السيد هـ اتخذت إجراءات جعلت ذلك مستحيلاً؛ وإلا لكنت سأبذل قصارى جهدي لإبقائه في المدينة، ولن أدخر جهداً ولا مالاً لأحظى بمتعة بقائه معي. لقد كان له تأثير قوي على ميولي يصعب التخلص منه أو استبداله؛ أما بالنسبة لقلبي، فكان الأمر مستحيلاً تماماً: ومع ذلك، كنت سعيداً من أعماق قلبي، لأنه لم يكن ليحدث له ما هو أسوأ، وكما اتضح، لم يكن ليحدث له ما هو أفضل.

أما بالنسبة للسيد هـ...، فرغم أن دوافع المصلحة دفعتني في البداية إلى بذل قصارى جهدي لاستعادة ودّه، إلا أنني كنتُ ساذجة وغير مبالية بما يكفي لأتقبل فشلي بسهولة أكبر مما ينبغي؛ ولكن بما أنني لم أحبه قط، ولأن رحيله عني منحني نوعًا من الحرية التي طالما تمنيتها، فقد شعرتُ

بالراحة سريعًا؛ ولأنني كنتُ أخدع نفسي بأن مخزون الشباب والجمال الذي سأتاجر به لن يفشل في تأمين رزقي، فقد رأيتُ نفسي مضطرة لتجربة حظي معهما، بل بمتعة وبهجة، بدلاً من أدنى فكرة عن اليأس.

في هذه الأثناء، سارع بعض معارفي من الراهبات، ممن علمن بمصيبتي، إلى التوافد عليّ ليُهنّني بمواساتهنّ الخبيثة. لطالما حسدنني على الثراء والبذخ اللذين كنت أعيش فيهما؛ ورغم أنه لم يكن هناك إلا واحدة منهنّ تستحق على الأقل أن تكون في مكاني، وربما ستصل إلى ذلك عاجلاً أم آجلاً، إلا أنه كان من السهل ملاحظة، حتى في شفقتهنّ المصطنعة، لذتهنّ الخفية لرؤيتي أُهمَل على هذا النحو، وحزنهنّ الخفيّ لأن وضعي لم يكن أسوأ. يا له من حقدٍ لا يُفسَّر في قلوب البشر! وهو حقد لا يقتصر على طبقتهنّ الاجتماعية.

لكن مع اقتراب موعد اتخاذ قرار بشأن مصيري، وبينما كنت أفكر في المكان الذي أنتقل إليه، جاءت السيدة كول، وهي امرأة في منتصف العمر تتسم بالرزانة، والتي عرفتني عن طريق إحدى الآنسات اللاتي زرنني، وعندما علمت بوضعي، عرضت عليّ نصائحها وخدماتها الودية؛ ولأنني كنت دائمًا أميل إليها أكثر من أي امرأة أخرى أعرفها، فقد استمعت إلى مقترحاتها بسهولة أكبر. وكما اتضح، لم أكن لأجد في لندن كلها من هو أسوأ منها أو أفضل منها: أسوأ منها، لأنها تدير بيت دعارة، ولم تكن هناك حدود للفجور إلا ونصحتني بها، امتثالًا لزبائنها؛ لم تكن هناك خطط أو ملذات أو حتى انحلال أخلاقي لا حدود له إلا وكانت تستمتع بتشجيعه؛ وأفضل منها، لأنه لم يكن هناك من هو أكثر خبرة منها في الجانب المظلم من المدينة، وكان أكثر أهلية لنصحي وحمايتي من أسوأ مخاطر مهنتنا. وما كان نادرًا في أمثالها، أنها اكتفت بربح معقول من عملها وجهودها، ولم تكن تحمل في قلبها جشعًا أو استغلالًا. كانت في الحقيقة سيدة نبيلة، ولدت وترعرعت في بيئة راقية، ولكن سلسلة من الظروف قادتها إلى هذا المسار، الذي سلكته بدافع الضرورة جزئيًا، وبدافع الاختيار جزئيًا، إذ لم تكن هناك امرأة أكثر سعادة منها في تشجيع ازدهار التجارة، من أجل التجارة نفسها، أو فهم أسرارها وخباياها؛ حتى أنها كانت في قمة مهنتها، ولم تتعامل إلا مع عملاء مميزين: ولتلبية طلباتهم، كانت توظف باستمرار عددًا من بناتها (هكذا كانت تسمي من رشحتها لهن صغر سنهن وجمالهن الشخصي لتبنيهن وإدارتهن: وقد نجح العديد منهن، بفضلها وتعليمها وإرشادها، نجاحًا باهرًا في الحياة.(

هذه السيدة اللطيفة المفيدة التي ألقيت بنفسي تحت حمايتها الآن، ولأسبابها الخاصة، واحترامها للسيد هـ... لعدم ظهورها كثيراً في الأمر بنفسها، أرسلت صديقة لها، في اليوم المحدد لانتقالي، لتصطحبني إلى مسكني الجديد عند صانع فرش في شارع إي، كوفنت غاردن، بجوار منزلها مباشرة، حيث لم يكن لديها وسائل الراحة لإيوائي بنفسها: مسكن كان، لكونه قد استأجرته لعدة أجيال من سيدات المتعة، كان مالكه على دراية بعاداتهن؛ وطالما تم دفع الإيجار، كان كل شيء آخر سهلاً ومريحاً كما يمكن للمرء أن يرغب.

بعد أن استلمتُ الخمسين جنيهاً التي وعدني بها السيد هـ... عند فراقنا، ووضعتُ جميع ملابسي وأمتعتي في صناديق، والتي كانت قيمتها لا تقل عن مئتي جنيه، نقلتها إلى عربة، حيث لحقتُ بهم بعد أن ودّعتُ صاحب المنزل وعائلته، الذين لم أكن أعرفهم معرفةً كافيةً تجعلني أشعر بالندم على الرحيل؛ ومع ذلك، فإن مجرد فكرة الرحيل هذه كانت تُبكيني. تركتُ أيضاً رسالة شكر للسيد هـ...، الذي قررتُ، كما كنتُ في الواقع، الانفصال عنه نهائياً.

لقد طردت خادمتي في اليوم السابق، ليس فقط لأنني كنت قد أخذتها من السيد هـ...، ولكن لأنني كنت أشك في أنها كانت بطريقة أو بأخرى سبباً في اكتشافه لي، ربما انتقاماً مني لعدم ثقتي بها معه.

سرعان ما وصلنا إلى مسكني، الذي لم يكن مفروشًا بأناقة ولا فخمًا كالمسكني الذي تركته، ولكنه كان مريحًا تمامًا، وبنصف السعر، رغم أنه يقع في الطابق الأول. وُضعت حقائبي بأمان في شقتي، حيث كانت جارتي، التي أصبحت الآن حاكمة، السيدة كول، مستعدة مع مالك العقار لاستقبالي، وقد حرصت على تقديمي بأفضل صورة ممكنة، كشخص يُتوقع منه دفع الإيجار بانتظام: فكل الصفات الحميدة التي نُسبت إليّ، ما كانت لتضاهي قوة تلك التوصية وحدها.

لقد استقرت الآن في مسكن خاص بي، وتركت لتصرفاتي الخاصة، وأطلقت العنان لي في المدينة، لأغرق أو أنجو، حسبما أستطيع التعامل مع تيارها؛ وما كانت العواقب، إلى جانب عدد المغامرات التي حلت بي في ممارسة مهنتي الجديدة، ستشكل موضوع رسالة أخرى: لأنه بالتأكيد قد حان الوقت لوضع حد لهذا!

أنا أكون،

سيدتي،

مع تحياتي، إلخ، إلخ، إلخ.

نهاية الرسالة الأولى

الرسالة الثانية

سيدتي،

إذا كنت قد أخرت الجزء الثاني من تاريخي، فذلك فقط لأمنح نفسي بعض الوقت للتنفس، مع بعض الآمال، بأنه بدلاً من الضغط عليّ للاستمرار، كنت ستعفيني من مهمة السعي وراء الاعتراف، الذي خلاله تعاني ثقتي بنفسي من جروح كثيرة.

لقد تصورتُ، في الواقع، أنك ستشعر بالملل والضجر من رتابة المغامرات والتعبيرات، التي لا تنفصل عن موضوع من هذا القبيل، والذي، بحكم طبيعة الأشياء، واحدٌ أزليًا، مهما تنوعت أشكال وأنماط المواقف، فلا مفر من تكرار الصور والشخصيات والتعبيرات نفسها تقريبًا، مع ما يترتب على ذلك من إزعاج إضافي إلى جانب النفور الذي يُسببه، وهو أن كلمات مثل "الأفراح" و"الشغف" و"النشوة" و"الابتهاج" وبقية تلك المصطلحات المبتذلة التي تُناسب ممارسة المتعة وتُستقبل بها، تفقد الكثير من روحها وطاقتها بسبب تكرارها الضروري في سرد تُشكل تلك الممارسة أساسه بالكامل. لذلك، يجب عليّ أن أثق في صراحة حكمك، لتفهمك للوضع غير المواتي الذي أعاني منه بالضرورة في هذا الصدد. وإلى خيالك وحساسيتك، مهمة إصلاحها الممتعة، من خلال إضافاتهم، حيث تضعف أوصافي أو تفشل: فالأولى ستضع الصور التي أقدمها أمام عينيك بسهولة؛ والأخرى ستمنح الحياة للألوان حيث تكون باهتة أو بالية من كثرة الاستخدام.

إن ما تقوله أيضاً، على سبيل التشجيع فيما يتعلق بالصعوبة البالغة للاستمرار لفترة طويلة في نمط واحد، باعتدال وذوق رفيع، بين بشاعة التعبيرات الفظة والوقحة والمبتذلة، وسخرية الاستعارات المبتذلة والعبارات المتكلفة، هو أمر منطقي للغاية، فضلاً عن كونه لطيفاً، لدرجة أنك تبرر لي كثيراً امتثالي لفضول يجب إشباعه على حسابي الخاص.

أعود الآن إلى حيث توقفت في حديثي الأخير، وأود أن أذكر لكم أنه لم يصل إلى مسكني إلا في وقت متأخر من المساء، وقد أمضت السيدة كول، بعد أن ساعدتني في ترتيب أغراضي وتأمينها، المساء كله معي في شقتي، حيث تناولنا العشاء معًا، وقدمت لي أفضل النصائح والإرشادات فيما يتعلق بالمرحلة الجديدة من مهنتي التي كنت سأدخلها الآن؛ والانتقال بذلك من شخص متفانٍ في المتعة إلى شخص متفانٍ في المتعة العامة، ليصبح منفعة عامة، مع كل المزايا اللازمة لاستخدام شخصيتي، سواء من أجل المصلحة أو المتعة، أو كليهما. "لكنها لاحظت، بما أنني كنت غريبة عن المدينة، فقد كان من المتعارف عليه، بل ومن عادات المهنة، أن أتظاهر بأنني فتاة وأتصرف على هذا الأساس في أول فرصة سانحة، دون أن أمانع في أي نزوة قد تراودني في هذه الأثناء؛ لأنه لا يوجد من هو أشد منها عدوًا لإضاعة الوقت. وهي ستبذل قصارى جهدها في هذه الأثناء للعثور على شخص مناسب، وستتولى أمري في هذه المسألة الحساسة، إذا قبلت مساعدتها ونصائحها القيّمة، بحيث أعوض فقدان عذريتي الوهمية بكل مزايا العذرية الحقيقية".

بما أن الحساسية المفرطة للمشاعر لم تكن من سمات شخصيتي آنذاك، أعترف، على حساب نفسي، أنني ربما تسرعت في إنهاء الأمر باقتراحٍ أثار في نفسي بعض النفور بسبب صراحتي وذكائي، لكن ليس لدرجة أن يُعارض نية من كنتُ قد تخليتُ عنها تمامًا. فالسيدة كول، لا أدري كيف، إلا من خلال إحدى تلك المشاعر القوية التي لا تُفسر، والتي مع ذلك، ومن خلال أقوى

الروابط، وخاصة روابط الصداقة النسائية، استطاعت أن تستحوذ عليّ تمامًا. من جانبها، ادّعت أن الشبه الكبير، الذي توهمت أنها رأته فيّ، بابنتها الوحيدة التي فقدتها في مثل سني، كان الدافع الأول وراء تعلقها بي بهذا الشكل. قد يكون الأمر كذلك: فهناك دوافع ضعيفة للتعلق، تكتسب قوتها من العادة والمودة، وغالبًا ما أثبتت أنها أكثر صلابة وديمومة من تلك القائمة على أسباب أقوى بكثير. لكنني أعلم يقيناً أنه على الرغم من أنني لم أكن أعرفها إلا من خلال رؤيتها في مسكني، عندما كنت أعيش مع السيد هـ...، حيث كانت تقوم ببعض الحاجات لبيع بعض أدوات الخياطة، إلا أنها استطاعت تدريجياً أن تكسب ثقتي حتى ألقيت بنفسي بين يديها دون تردد، وصرتُ في النهاية أُكنّ لها كل الاحترام والمحبة والطاعة المطلقة. ولإنصافها، لم ألمس منها إلا صدقاً وحناناً واهتماماً بمصلحتي، وهو أمر نادر في أمثالها. افترقنا في تلك الليلة بعد أن اتفقنا اتفاقاً تاماً لا تشوبه شائبة، وفي صباح اليوم التالي جاءت السيدة كول، وأخذتني معها إلى منزلها لأول مرة.

هنا، من النظرة الأولى، وجدت أن كل شيء ينبض بجو من اللياقة والتواضع والنظام.

في الصالون الخارجي، أو بالأحرى المتجر، جلست ثلاث شابات، يعملن بتواضع في صناعة القبعات، كغطاء لتجارة سلع أكثر قيمة؛ لكن بالكاد يمكن رؤية ثلاث فتيات أجمل منهن. اثنتان منهن كانتا شديدتي البياض، أكبرهن لم تتجاوز التاسعة عشرة؛ والثالثة، في مثل عمرها تقريبًا، كانت سمراء جذابة، عيناها السوداوان المتألقتان، وتناسق ملامحها وقوامها المثالي، لم يتركا لها مجالًا للحسد بين رفيقاتها الأكثر بياضًا. أما ملابسهن، فكانت تحمل نقوشًا أكثر مما تبدو عليه، إذ كانت تعكس ذوقًا موحدًا في الأناقة والبساطة. هؤلاء هن الفتيات اللواتي شكلن قطيع المنزل الصغير، الذي درّبته مربيتي بنظام وإدارة مذهلين، بالنظر إلى تهور الفتيات الصغيرات بمجرد خروجهن عن القانون. لكنها لم تُبقِ أيًا منهن في منزلها، ممن وجدتهن، بعد فترة تدريب مناسبة، عصيات على الانقياد، أو غير راغبات في الالتزام بقواعده. وهكذا شكلت دون وعي عائلة صغيرة من الحب، وجد فيها أفرادها مكانتهم بشكل واضح، في تحالف نادر من المتعة والمصلحة، ومن اللياقة الخارجية الضرورية، مع حرية سرية غير محدودة، لدرجة أن السيدة كول، التي اختارتهم لطباعهم بقدر ما اختارتهم لجمالهم، حكمتهم بسهولة لنفسها ولهم أيضاً.

قدّمتني لهؤلاء التلميذات اللواتي كانت قد درّبتهنّ، بصفتي نزيلة جديدة، ومُرحّبة بي فورًا في جميع أرجاء المنزل. أبدت هؤلاء الفتيات الساحرات ترحيبًا حارًا، بل وأبدين إعجابهنّ الشديد بجسدي، وهو ما كنت أتوقعه من أي فتاة من جنسي. لقد تمّ غرس فكرة التضحية بالغيرة أو التنافس على الجمال في مصلحة مشتركة لديهنّ، واعتبرنني شريكة لا تُضيف أيّ شيء غير لائق إلى أعمال المنزل. تجمّعن حولي، ونظرن إليّ من جميع الجهات. وبما أن انضمامي إلى هذه المجموعة المرحة أضفى جوًا من البهجة، فقد تمّ التخلي عن مظاهر العمل. وبعد أن أوصتني السيدة كول، بتوصية خاصة، بلمساتهنّ وتسليتهنّ، انصرفت إلى شؤون المنزل المعتادة.

سرعان ما أدى تشابه جنسنا وعمرنا ومهننا وآرائنا إلى خلق حرية وألفة مطلقة، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. أخذوني وأروني المنزل، وشققهم المجهزة بكل وسائل الراحة والرفاهية؛ وفوق كل ذلك، غرفة جلوس واسعة، حيث كانت تجتمع عادةً مجموعة مختارة من السمر في حفلات مرحة؛ الفتيات يتناولن العشاء مع أصدقائهن، ويمارسن حركاتهن المتهورة بحرية مطلقة؛ بينما كان تحدي الرهبة أو الحياء أو الغيرة قواعدهم الراسخة، والتي بموجبها، وفقًا لمبادئ مجتمعهم، أي متعة تُفقد في جانب العاطفة، يتم تعويضها بوفرة للحواس من خلال روعة التنوع، وسحر الراحة والرفاهية. كان مؤسسو ومؤيدو هذه المؤسسة السرية، في أوج مرحهم، يصفون أنفسهم بأنهم مُعيدون للعصر الذهبي وبساطة ملذاته، قبل أن تُوصم براءتهم ظلمًا بأسماء الذنب والعار.

ما إن بدأ المساء، وأُغلقت واجهة المتجر، حتى فُتحت الأكاديمية؛ وسقط قناع الحشمة الزائفة تمامًا، وانطلقت جميع الفتيات إلى ملذاتهنّ ورغباتهنّ مع رجالهنّ؛ ولم يُسمح بدخول أيٍّ منهنّ بشكلٍ عشوائي، بل فقط من كانت السيدة كول راضيةً مسبقًا عن سلوكهنّ وحكمتهنّ. باختصار، كان هذا المكان الأكثر أمانًا وتهذيبًا، وفي الوقت نفسه، الأكثر شمولًا للإقامة في المدينة: إذ لم تكن الحشمة عائقًا أمام أكثر الملذات تحررًا؛ وفي ممارستها أيضًا، وجد رواد المنزل المختارون سرًّا نادرًا

وصعبًا للغاية، وهو التوفيق بين كلّ مظاهر الرقيّ والذوق الرفيع، وأكثر إشباعًا للشهوات الجسدية وضوحًا.

بعد أن أمضيت الصباح في أحاديث ودية ونصائح قيّمة من معارفي الجدد، ذهبنا لتناول العشاء، وهناك، وبصفتها رئيسة ناديها، أعطتني السيدة كول لمحة أولى عن أسلوبها في الإدارة والتواصل، وكيف غرست في هؤلاء الفتيات حبًا واحترامًا عميقين لها. لم يكن هناك أي تكلف أو تحفظ أو تظاهر بالاستياء أو حتى بعض الغيرة، بل كان كل شيء مفعمًا بالبهجة والمرح والسهولة.

بعد العشاء، أخبرتني السيدة كول، بمساعدة الشابات، أن هناك اجتماعًا رسميًا سيُعقد تلك الليلة، بمناسبة انضمامي إلى الأخوية؛ وأنه خلاله، مع مراعاة عذريتي، سيتم إعداد مراسم خاصة لأول عضوة رسمية. كان من المقرر أن أخضع لطقوس انضمام كنّ على ثقة بأنني لن أمانعها.

بسبب انشغالي الشديد، وانبهاري بسحر رفاقي الجدد، كنتُ متحيزةً للغاية لأي اقتراحٍ يُقدمونه، لدرجة أنني لم أتردد لحظةً في الموافقة؛ ولذلك، وبكل سهولةٍ وبلا تردد، تلقيتُ منهم جميعًا سيلاً من عبارات الإطراء، تقديرًا لطاعتي وحسن طباعي. أصبحتُ حينها "فتاةً لطيفة... دخلتُ الأمور بروحٍ طيبة... لم أكن خجولةً بشكلٍ مُتصنّع... سأكون فخر البيت"، وما شابه ذلك.

بعد تسوية هذه النقطة، تركت الشابات السيدة كول لتتحدث معي وتناقش الأمور، حيث أوضحت لي أنه "سيتم تقديمي في ذلك المساء بالذات إلى أربع من أفضل صديقاتها، إحداهن، وفقًا لعادات المنزل، حظيت بتفضيل إشراكي في أول حفلة ترفيهية؛" أكدت لي في الوقت نفسه أنهم جميعًا شبانٌ ذوو هيئةٍ حسنة، لا تشوبه شائبة؛ وأنهم، متحدين ومتماسكين برباط الملذات المشتركة، يشكلون الركيزة الأساسية لمنزلها، ويقدمون هدايا سخية للفتيات اللاتي يُرضينهم ويُسعدنهم، حتى أنهم كانوا، بالمعنى الحقيقي للكلمة، مؤسسي هذا القصر الصغير ورعاته. ليس الأمر أن لديها، في أوقاتٍ مناسبة، زبائن آخرين تتعامل معهم، لم تكن تُوليهم نفس القدر من الاهتمام الذي تُوليه لهؤلاء؛ فعلى سبيل المثال، لم يكن بإمكانها أن تُحاول إيهام أحدٍ منهم بأنني خادمة؛ فهم لم يكونوا فقط أكثر درايةً، وأكثر تحضرًا من أن يقعوا في مثل هذا الفخ، بل كانوا أيضًا من المحسنين الكرماء لها، لدرجة أن مجرد التفكير في ذلك سيكون أمرًا لا يُغتفر.

وسط كل هذا الاضطراب والعاطفة التي أثارها في داخلي هذا الوعد بالمتعة، كما تصورته، احتفظت بالكثير من أنوثتي، لدرجة أنني تظاهرت بتردد كافٍ لأستحق بعض الفضل في التضحية بها لتأثير راعيتي، التي ذكرتها بدورها، وأنا لا أزال متقمصة الشخصية، بأنه ربما يكون من الصواب أن أعود إلى المنزل وأرتدي ملابسي، مراعاةً لانطباعاتي الأولى.

لكن السيدة كول، معارضةً ذلك، أكدت لي قائلةً: "إن السادة الذين سأُعرَض عليهم، بحكم مكانتهم وذوقهم، أسمى بكثير من أن تُلَوَّث بأي بريق من الملابس أو الحلي، فمثل هؤلاء النساء المتملقات يُشوشن ويُغطين جمالهن بدلاً من إبرازه؛ وأن هؤلاء المترفين يعرفون جيداً كيف يحتقرونهن: فهم الذين لا يروق لهم إلا سحر الطبيعة الخالص، والذين سيتركون في أي وقت دوقة شاحبة باهتة الوجه، من أجل فتاة ريفية ممتلئة الوجه، صحية، وذات قوام متناسق؛ أما بالنسبة لي، فقد أنعمت عليّ الطبيعة بما يكفي، لتجعلني أرفع من أن أُدين بأي فضل للفن؛" وخلصت في النهاية إلى أنه في هذه المناسبة، لا يوجد لباس أفضل من التعري.

ظننتُ أن مربيتي خبيرةٌ في هذه الأمور، لا يُمكنني بسهولةٍ أن أُخالفها الرأي. بعد ذلك، شرعت في وعظها بأسلوبٍ مؤثرٍ للغاية، مُروّجةً لمبدأ الطاعة السلبية وعدم المقاومة لكل تلك الأذواق العشوائية للمتعة، التي يُسميها البعض رقيًا، ويُسميها آخرون انحرافًا عنها. لم يكن من شأن فتاةٍ بسيطةٍ أن تستفيد من إرضاء الآخرين، وأن تُقرر، بل أن تُذعن. وبينما كنتُ أستفيد من هذه الدروس القيّمة، أُحضر الشاي، وعادت الشابات وانضممن إلينا.

بعد أحاديثٍ طويلةٍ ومرحٍ وفكاهةٍ، لاحظت إحداهنّ أن هناك متسعًا من الوقت قبل موعد التجمع، فاقترحت أن تُسلّي كل فتاة الحضورَ بسردِ تلك المرحلة الحاسمة من حياتها، حين انتقلت من حالة العزوبية إلى مرحلة الأنوثة. وُوفق على الاقتراح، مع شرطٍ واحدٍ فقط من السيدة كول، وهو أن تُعفى

هي، نظرًا لسنها، وأنا، نظرًا لكوني عذراء، على الأقل حتى أُكمل إجراءاتِ السكن. حصلْتُ على إذنٍ بذلك، وطُلب من مُروّجة هذا التسلية أن تبدأ.

كان اسمها إميلي؛ فتاة فائقة الجمال، وكانت أطرافها، إن أمكن، متناسقة بشكل مبالغ فيه، إذ أن امتلاءها كان يتعارض مع تلك الرقة المطلوبة من قبل خبراء الجمال الأكثر دقة؛ كانت عيناها زرقاوين، تفيضان بحلاوة لا توصف، ولا شيء أجمل من فمها وشفتيها، اللتين كانتا تُطبقان على صف من الأسنان المتساوية والبيضاء. وهكذا بدأت:

لا أصلِي، ولا أخطر مغامرة في حياتي، كافية لتبرئة ذمتي من أي غرور في تقديم الاقتراح الذي وافقتم عليه. كان والداي، ولا يزالان على حد علمي، مزارعين في الريف، لا يبعدان أكثر من أربعين ميلاً عن المدينة. لقد دفعتني قسوتهما عليّ، لصالح ابنهما الذي وثقا به وحده، إلى التفكير مرارًا وتكرارًا في الفرار من منزلهما والانطلاق في رحلة عبر العالم. ولكن في النهاية، أجبرني حادث على هذه المحاولة اليائسة في الخامسة عشرة من عمري. لقد كسرتُ إناءً من الخزف، كان فخرًا لهما ومعبودًا في قلبيهما. ولأن الضرب المبرح كان أقل ما يمكن أن أتوقعه منهما، وفي غمرة طيش تلك السنوات، غادرتُ المنزل، وسلكتُ طريق لندن مهما كانت الظروف. لا أدري كيف استاءا من خسارتي، إذ لم أسمع كلمة واحدة عنهما حتى هذه اللحظة. كل ما أملكه هو قطعتان عريضتان من خزف عرابتي، وبعض... شلنات، وأبازيم أحذية فضية، وكشتبان فضي. هكذا، لم أكن أرتدي سوى ملابسي العادية، وكنت أرتعب من كل خطوة أو صوت أسمعه خلفي، فسارعتُ في طريقي؛ وأقسم أنني قطعت اثني عشر ميلاً قبل أن أتوقف، من شدة التعب والإرهاق. جلستُ أخيرًا على درج، وبكيتُ بكاءً مريرًا، ومع ذلك كنتُ لا أزال أشعر بخوف متزايد بسبب هروبي؛ مما جعلني أخشى، أكثر من الموت، العودة إلى والديّ غير الشرعيين. بعد أن استعدتُ نشاطي بهذه الاستراحة القصيرة، وخفّفت دموعي من وطأة الأمر، واصلتُ سيري، عندما لحق بي فتى ريفي قوي البنية، كان ذاهبًا إلى لندن ليرى ما يمكنه فعله هناك، ومثله مثلي، أفلت من أصدقائه. لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من عمره، وكان وجهه أحمر، وملامحه جميلة، بشعر أشقر غير ممشط، وقبعة صغيرة ذات غطاء، وفستان من قماش الكيرسي، وجوارب من الصوف، باختصار، كان مثاليًا فتى فلاح. رأيته قادمًا خلفي وهو يصفر، يحمل حزمة مربوطة بطرف عصا، كانت أدوات سفره. مررنا بجانب بعضنا البعض لبعض الوقت دون أن نتحدث؛ ثم انضممنا لبعض الوقت، واتفقنا على البقاء معًا حتى نصل إلى نهاية رحلتنا؛ ما هي نواياه أو أفكاره، لا أعرف: أما براءتي فأشهد عليها بكل جدية.

مع حلول الليل، كان علينا البحث عن نُزُل أو مأوى؛ وإلى جانب ذلك، ازداد حيرتنا، إذ تساءلنا عمّا سنقوله دفاعًا عن أنفسنا إذا سُئلنا. بعد بعض التردد، طرح الشاب اقتراحًا، ظننته في غاية الروعة؛ ما هو؟ أن نتظاهر بأننا زوج وزوجة! لم يخطر ببالي أبدًا العواقب. بعد أن اتفقنا على هذه التجربة الفريدة، وصلنا إلى أحد تلك الأماكن المتواضعة المخصصة للمسافرين، حيث كانت تقف عند بابها عجوزٌ مجنونة، رأتْنا نمرّ، فدعتْنا للمبيت. فرحنا بأي مأوى، فدخلنا، وتولى رفيقي في السفر زمام الأمور، وطلب ما في المنزل، وتناولنا العشاء معًا كزوج وزوجة؛ وهو ما لا يمكن أن يُفهم منه، بالنظر إلى أجسامنا وأعمارنا، إلا أنه يبدو طبيعيًا. ولكن عندما حان وقت النوم، لم يجرؤ أيٌّ منا على دحض روايتنا الأولى عن أنفسنا؛ والمثير للدهشة أن الشاب بدا في حيرة مثلي تمامًا. لتجنب النوم معًا، وهو أمرٌ كان طبيعيًا جدًا في ظلّ الحالة التي تظاهرنا بها. وبينما كنا في هذا المأزق، أخذت صاحبة المنزل الشموع، وأضاءت لنا الطريق إلى غرفتنا عبر فناء طويل، كانت الغرفة في نهايته منفصلة عن باقي المنزل. وهكذا سمحنا لأنفسنا بأن نُقاد دون أن ننطق بكلمة اعتراض؛ وهناك، في غرفة بائسة، مع سرير لا يرقى للمستوى المطلوب، تُركنا لنقضي الليل معًا، كأمرٍ طبيعي تمامًا. أما أنا، فكنت ساذجة لدرجة لا تُصدق، فلم يخطر ببالي حتى أنني فكرت في أن النوم مع الشاب أكثر ضررًا من النوم مع إحدى عاملات الألبان لدينا؛ وربما لم تكن لديه أي أفكار أخرى غير البراءة، إلى أن زرعت هذه المناسبة الجميلة هذه الأفكار في رأسه.

قبل أن نخلع ملابسنا، أطفأ الشمعة؛ وجعلني برد الجو القارس أشعر بضرورة الذهاب إلى الفراش. فخلعت ملابسي وتسللت تحت الأغطية، حيث وجدت الشاب الصغير نائمًا، ولمسة جسده الدافئ أسعدتني أكثر مما أخافتني. كنتُ في الواقع مضطربة للغاية من غرابة وضعي لدرجة أنني لم

أستطع النوم؛ لكنني لم أفكر حينها في أي أذى. يا للعجب! ما أقوى غرائز الطبيعة! ما أقل ما ينقصها لتنشط! مرر الشاب ذراعه تحت جسدي، وجذبني نحوه برفق، كما لو كان يُدفئ نفسه وجسدي؛ وأشعلت الحرارة التي شعرت بها من تلامس صدورنا حرارة أخرى لم أشعر بها من قبل، وكنتُ حتى ذلك الحين غريبة عن طبيعتها. تشجع، على ما أظن، بسهولتي، فقبلني، ورددت القبلة دون وعي؛ دون أن أعرف عواقب ردها: لأنه في هذا بتشجيع منه، أنزل يده من صدري إلى تلك المنطقة الحساسة للغاية، حيث شعرتُ حينها بحرارة غريبة تُدغدغني، فاشتعلت فيها النيران من اللمسة. هناك، أسعد نفسه وأسعدني، حتى تجاوز حدوده معي، فأصابني بالألم وجعلني أتذمر. ثم أمسك بيدي، ووجهها، برغبة منه، إلى جانبي، بين فخذيه الدافئتين للغاية. هناك، ضغط عليها، حتى رفعها تدريجيًا، فجعلني أشعر بالفرق الشاسع بين جنسه وجنسي. شعرتُ بالخوف من هذا الأمر الجديد، وسحبتُ يدي. ومع ذلك، مدفوعةً بشعور لذة غريبة، لم أستطع إلا أن أسأله: ما هذا؟ قال لي إنه سيُريني إن سمحتُ له بذلك. ودون أن ينتظر إجابتي، التي منعها بتقبيلي بقبلات لم أكن أمانعها، اعتلى جسدي، وأدخل أحد فخذيه بين فخذي، ففتحهما. ليُفسح لنفسه الطريق، وقيّدني لغايته؛ بينما كنتُ في حالةٍ من الذهول، مُستسلمةً لقوةٍ جديدة، بين البُعد والرغبة، مُستسلمةً تمامًا، حتى أيقظني الألم الحادّ وجعلني أصرخ. لكن فات الأوان: كان مُتشبثًا بالسرج بقوةٍ شديدةٍ بحيث لم أستطع رميه، مهما حاولتُ، والتي لم يُجدِ بعضها نفعًا سوى في تعزيز غايته، وفي النهاية قتلتني دفعةٌ لا تُقاوم، وكادت أن تقتلني أنا أيضًا. ها أنا الآن شاهدةٌ داميةٌ على الضرورة المفروضة على جنسنا، لجني أول عسلٍ من الأشواك.

"لكن المتعة التي تزايدت مع انحسار الألم، سرعان ما تصالحت مع التجارب الجديدة، وقبل الصباح، لم يكن هناك شيء على وجه الأرض أغلى عليّ من هذا الذي سرق حلاوة عذريتي: لقد كان كل شيء بالنسبة لي الآن".

"كيف اتفقنا على توحيد مصائرنا: كيف صعدنا إلى المدينة معًا، حيث عشنا بعض الوقت، حتى فرقتنا الضرورة، ودفعتني إلى هذا المسار من الحياة، الذي كنت قد تفوقت عليه منذ زمن طويل ومزقته إربًا قبل أن أبلغ هذا العمر، بقدر ما كان ذلك بسبب سهولتي، بقدر ما كان بسبب ميلي، لولا لجوئي إلى هذا المنزل: هذه كلها ظروف تتجاوز الهدف الذي وضعته، لذلك تنتهي روايتي هنا".

بحسب ترتيب جلوسنا، جاء دور هارييت. من بين كل جمال النساء اللواتي رأيتهن من قبل أو من بعد، قلّما رأيتُ جمالًا يُضاهي جمالها؛ لم يكن جمالها رقيقًا فحسب، بل كان تجسيدًا للرقة، وذلك لتناسق أطرافها الصغيرة المتناسقة. بدت بشرتها، على بياضها، أكثر بياضًا بفضل عينيها السوداوين، اللتين أضفتا بريقًا على وجهها حيويةً تفوق لونه الطبيعي، والذي لم يكن يحميه من الشحوب سوى احمرار خفيف على وجنتيها، تلاشى تدريجيًا حتى اختفى تمامًا في بياض ناصع. ثم اجتمعت ملامحها الصغيرة لتُكمل حلاوة جمالها، التي لم يُخفِها مزاجها المُفعم بالكسل والخمول وملذات الحب. عندما أُجبرت على تسجيل مجموعتها، ابتسمت واحمرّ وجهها قليلاً، وبذلك استجابت لرغباتنا:

لم يكن والدي أفضل ولا أسوأ من طحان قرب مدينة يورك؛ ولما توفي هو ووالدتي وأنا رضيع، أصبحتُ تحت رعاية عمة أرملة عقيمة، مدبرة منزل السيد ن... في مقره بمقاطعة...، حيث ربتني بكل حنان. لم أبلغ السابعة عشرة، كما أنني لم أبلغ الثامنة عشرة الآن، حتى تلقيت، بسبب مظهري فقط (إذ لم أكن محظوظًا على الإطلاق)، عدة عروض زواج موفقة؛ ولكن سواءً أكانت الطبيعة بطيئة في جعلي أُدرك عاطفتها المفضلة، أو أنني لم أرَ أيًا من الجنس الآخر يُثير أدنى عاطفة أو فضول للتعرف عليها، فقد حافظتُ، حتى ذلك العمر، على براءة تامة، حتى في الفكر: بينما مخاوفي - التي لا أعرفها الآن - لم تجعلني أرغب في الزواج أكثر من رغبتي في الموت. كانت عمتي، وهي امرأة طيبة، تُحبذ خجلي، الذي كانت تعتبره عاطفة طفولية، ربما تُؤكد لها تجربتها أنها ستزول. انطلقت في الوقت المناسب، وقدمت إجابات مناسبة لخطابي.

لم تنزل العائلة إلى ذلك المنزل لسنوات، لذا فقد أُهمل، ووُكِلَ بالكامل إلى عمتي وخادمتين عجوزتين لرعايته. وهكذا امتلكتُ كامل مزايا منزل واسع منعزل وحدائق، يقع على بُعد حوالي نصف ميل من أي مسكن آخر، باستثناء ربما كوخ صغير متناثر.

هنا، في هدوء وبراءة، نشأتُ دون أي حادثة تُذكر، حتى ذلك اليوم المشؤوم الذي تركتُ فيه عمتي نائمة، كما كنتُ أفعل غالبًا من قبل، لبضع ساعات بعد العشاء؛ فلجأتُ إلى ما يشبه بيتًا صيفيًا قديمًا، على مسافة من المنزل، وحملتُ عملي معي، وجلستُ على جدول صغير، يطل عليه بابه ونافذته. هناك غفوتُ غفوةً خفيفة، تسللت إلى حواسي، التي كانت تنهار تحت وطأة حرارة ذلك الموسم في تلك الساعة؛ وكانت أريكة من القصب، مع عملي مُغطى كوسادة، كل وسائل الراحة في استراحتي القصيرة؛ إذ سرعان ما أيقظني صوتُ خرير الماء، وصوتُ ارتطام. نهضتُ لأرى ما الأمر؛ وماذا عساه يكون إلا ابن رجل من الجيران، كما اكتشفتُ لاحقًا (لأنني لم أره من قبل)، الذي ضل طريقه في ذلك الاتجاه ببندقيته، وقد أشعلته رياضته، وحرارة ذلك اليوم. لقد أغرته نضارة الجدول الصافي؛ لذلك قام على الفور بخلع ملابسه وقفز فيه على الجانب الآخر، الذي كان يحده غابة، شكلت بعض أشجارها المائلة نحو الماء ركناً ظليلاً ممتعاً، مناسباً لخلع ملابسه وتركها تحته.

كانت مشاعري الأولى عند رؤية هذا الشاب عارياً في الماء، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، مزيجاً من الدهشة والخوف؛ وبالطبع، كنت سأهرب فوراً لولا أن حيائي، الذي كان له أثره الحاسم، حال دون ذلك، إذ كان موقع الباب والنافذة يجعل من الصعب الخروج والسير على طول الضفة نحو المنزل دون أن يراني: وهو أمر لم أستطع تحمله، فقد شعرت بخجل وارتباك شديدين لرؤيته. وبعد أن حُكم عليّ بالبقاء حتى يرحل، شعرت بحرج شديد في كيفية التصرف: ترددت قليلاً بين الرعب والحياء، حتى أنني امتنعت عن النظر من النافذة، التي كانت نافذة قديمة الطراز، بدون أي ضوء خلفي، ما كان من الصعب أن تكشف وجود أحد من الداخل؛ ثم كان الباب محكم الإغلاق، بحيث لا يمكن فتحه من الخارج إلا بالعنف أو بموافقتي.

لكن الآن، ومن خلال تجربتي الشخصية، وجدتُ ذلك صحيحاً للغاية، فالأشياء التي تُخيفنا، عندما لا نستطيع الابتعاد عنها، تجذب أنظارنا بقوةٍ تُضاهي تلك التي تُسعدنا. لم أستطع مقاومة تلك الرغبة الجامحة التي دفعتني نحو هذا المنظر الجديد، دون أي رغبةٍ مني فيه؛ وقد شجعني يقيني بأنني سأكون في مأمنٍ ودون أن يراني أحد، فغامرتُ تدريجياً بإلقاء نظرةٍ على شيءٍ مُرعبٍ ومُخيفٍ لعذريتي، ألا وهو رجلٌ عارٍ.

لكن ما إن ألقيت نظرة خاطفة، حتى لفت انتباهي بريق نديّ لبشرة بيضاء ناصعة البياض، تعكس أشعة الشمس عليها بريقًا ساطعًا. في غمرة ارتباكي، لم أستطع تمييز ملامح وجهه بوضوح، سوى أنه كان ينضح بنضارة وشباب. أمتعتني حركته المرحة والمتنوعة لأطرافه المصقولة، وهي تطفو فوق سطح الماء أثناء سباحته أو لهوه فيه؛ أحيانًا كان يستلقي بلا حراك على ظهره، يطفو على الماء، ويجر خلفه خصلة شعر ناعمة، تطفو على سطح الماء ككتلة من الخصلات السوداء. حينها، كان الماء المتدفق يفصل بين صدره وبطنه الأبيض اللامع؛ وفي أسفل هذا الفصل، لم أستطع إلا أن ألاحظ فرقًا واضحًا، كخصلة سوداء مغطاة بالطحالب، ينبثق منها شيء أبيض مستدير، ناعم، ومرن، يتحرك في كل مكان. بطريقةٍ ما، مع أدنى حركة أو دوامة. لا أستطيع أن أقول إلا أن ذلك الجزء، بدافعٍ من غريزةٍ طبيعية، جذب انتباهي، وأبقاني مشدودًا، وأسرني: كان من المستحيل على كل حيائي أنْ أصرف نظري عنه؛ ولأنني لم أرَ شيئًا مرعبًا في مظهره، صرفت نظري لا شعوريًا عن كل مخاوفي: ولكن بمجرد أن تلاشت، ظهرت رغبات جديدة وأماني غريبة، وذبتُ وأنا أنظر. بدأت نار الطبيعة، التي ظلت كامنة أو مخفية لفترة طويلة، تشتعل، وجعلتني أشعر بجنسي لأول مرة. لقد غيّر الآن وضعيته، وسبح منبطحًا على بطنه، يضرب بساقيه وذراعيه؛ لم يكن من الممكن صنع نموذج أجمل منه، بينما كانت خصلات شعره العائمة تتلاعب على رقبة وكتفين أبرزت بياضهما بشكلٍ رائع. ثم انتفخ اللحم الفخم الذي ارتفع من أسفل ظهره، وينتهي بغطاء مزدوج عند نقطة التقاء الفخذين، أبهرني تمامًا واحد ببريق مائي متلألئ.

في ذلك الوقت، كنت قد تأثرت بشدة بهذا التدفق الداخلي للمشاعر، وخفّت حدّتها أمام هذا المنظر، حتى أنني، بعد أن انقلبت مشاعري فجأة من خوف شديد إلى رغبات جامحة، وجدت الأخيرة تسيطر عليّ بقوة، وربما ساهمت حرارة الجو في تأجيجها، حتى كادت الطبيعة أن تنهار تحت وطأتها. لم أكن أعرف تحديدًا ما الذي ينقصني، كل ما فكرت به هو أن مخلوقًا لطيفًا كهذا الشاب، كما بدا لي، لا يسعه إلا أن يُسعدني؛ ولكن بعد ذلك، فإن قلة احتمالية التعرف عليه، أو حتى رؤيته مرة أخرى، حطمت رغباتي وحولتها إلى عذاب. كنت لا أزال أحدق، بكل قوة بصري، في هذا الشيء الساحر، عندما سقط فجأة. كنت قد سمعت عن تشنج يصيب حتى أمهر السباحين، ويؤدي إلى غرقهم؛ وتخيلت أن هذا الكسوف المفاجئ ناتج عنه، أثار في نفسي عاطفة لا تُصدق أنجبها هذا الشاب المجهول، فملأني رعبٌ قاتل؛ لدرجة أن قلقي طار بي إلى الباب، فتحته، وركضت نحو القناة، يقودني جنون خوفي عليه، ورغبتي الجامحة في أن أكون وسيلة لإنقاذه، رغم جهلي بكيفية ذلك أو بأي وسيلة: ولكن هل كان الخوف، والعاطفة المفاجئة التي انتابتني، هي ما دفعني للتفكير! لم يستغرق كل هذا سوى لحظات. بالكاد استطعت الوصول إلى ضفاف البحيرة الخضراء، حيث كنت أبحث بجنون عن الشاب، ولم أجده، فغرقني خوفي وقلقي في غيبوبة عميقة، استمرت لبعض الوقت؛ إذ لم أستعد وعيي إلا عندما أيقظني ألمٌ حادٌ اخترقني حتى النخاع، وأيقظني على أمرٍ مُدهش: أن أجد نفسي ليس فقط بين ذراعي هذا الشاب الذي... كان حريصًا جدًا على إنقاذي، لكنه استغل ضعفي الشديد، حتى أنه توغل بي تمامًا، وكنت منهكة من الصراعات النفسية التي عانيت منها سابقًا، ومذهولة من شدة المفاجأة، فلم أكن أملك القدرة على الصراخ، ولا القوة للتحرر من عناقه العنيف، قبل أن يُصرّ على موقفه، ويقتحم جسدي، وينتزع عذريتي تمامًا، كما يرى الآن من تدفق الدم الذي أعقب انسحابه، وكما شعر هو بالصعوبات التي واجهها في إتمام اختراقه. لكن رؤية الدم، وإدراكه لحالتي، (كما أخبرني لاحقًا)، بعد أن هدأت شهوته الجامحة، أثّرا فيه بشدة، لدرجة أنه مهما كانت المخاطر، حتى أسوأ العواقب، لم يستطع أن يتركني ويهرب، وهو ما كان بإمكانه فعله بسهولة. كنت ما زلت ملقاة في حالة يرثى لها، غارقة في دمائي، وأعاني من خفقان القلب. عاجز عن الكلام، غير قادر على النزول، وخائف.وكنت أرتجف كطائر حجل جريح، وعلى وشك الإغماء مجددًا عند إدراكي لما حلّ بي. كان الشاب بجانبي، راكعًا، يقبّل يدي، وعيناه تدمعان، يتوسل إليّ أن أغفر له، ويعرض عليّ كل ما في وسعه من تعويض. من المؤكد أنني لو استطعت، لحظة استعادة وعيي، أن أصرخ أو أن أنتقم أشدّ انتقام، لما ترددت في ذلك؛ فقد كان الاعتداء مصحوبًا بظروف مشددة، مع أنه كان يجهلها، إذ إن حرصي على سلامته هو ما تسبب في هلاكي.

لكن ما أسرع تقلب المشاعر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار! وما أقل معرفةً بالقلب البشري من يجادلون فيه! لم أستطع رؤية هذا المجرم اللطيف، الذي أصبح فجأةً أول من أحببته، ثم فجأةً أول من كرهته، جاثيًا على ركبتيه، يبلل يديّ بدموعه، دون أن ألين. كان لا يزال عاريًا تمامًا، لكن حيائي كان قد جُرح بشدة، في جوهره، بحيث لم أتأثر بالصدمة التي كنت سأتأثر بها لو اقتصر الأمر على المظاهر فقط؛ باختصار، انحسر غضبي بسرعة، وعاد مد الحب بقوة، حتى شعرت أن مسامحته هي من دواعي سعادتي. همستُ بكلمات اللوم بصوت خافت، والتقت عيناي بعينيه بنظراتٍ تعبر عن فتور أكثر من استياء، حتى لا يسعه إلا أن يفترض أن مسامحته باتت قريبة؛ لكنه مع ذلك لم يتخلَّ عن وضعية الخضوع، حتى أعلنتُ عفوه رسميًا؛ وهو ما حدث بعد أشد لحظات الحماس. رغم توسلاتي واحتجاجاتي ووعودي، لم يكن بوسعي رفضها. عندها، وبكل وضوح خوفه من الإساءة مجددًا، تجرأ على تقبيل شفتي، وهو ما لم أرفضه ولم أستاء منه. ولكن عندما عاتبته بلطف على وحشية معاملته، شرح لي سرّ هلاكي، وإن لم يكن ذلك لتبرئته تمامًا، فعلى الأقل لتخفيف ذنبه كثيرًا، في نظر قاضٍ متحيز له كما كنتُ أنا.

يبدو أن ظرف غرقه، أو غرقه، الذي ظننته في جهلي الشديد شيئًا مميتًا، لم يكن سوى خدعة غوص لم أسمع بها من قبل، أو على الأقل لم أنتبه لذكرها. وقد كان مذهولًا من ذلك، لدرجة أنه في اللحظات القليلة التي ركضت فيها لإنقاذه، لم يكن قد خرج بعد، حتى سقطت في غيبوبة. وعندما نهض، ورآني ممددة على الضفة، كانت فكرته الأولى أن فتاة شابة كانت تخطط لمرح أو تسلية معه، لأنه كان يعلم أنني لا يمكن أن أكون قد نمت هناك دون أن يراني من قبل. وبناءً على هذه الفكرة التي

تجرأ على التفكير فيها، وعندما وجدني بلا علامة حياة، وما زال في حيرة من أمره بشأن ما حدث، حملني بين ذراعيه بكل ما أوتي من قوة، ودخل بي إلى المنزل الصيفي، الذي لاحظ أن بابه مفتوح. وهناك وضعني على الأريكة، وحاول، كما أكد بحسن نية، بشتى الوسائل إعادتي إلى وعيي. حتى اشتعلت فيه الرغبة، كما قال، لدرجة أنه لم يعد يحتمل رؤية ولمس أجزاء من جسدي المكشوفة له، فلم يعد قادراً على كبح جماحه؛ والأقل من ذلك، لأنه لم يكن متأكداً تماماً من أن فكرته الأولى بأن هذا الإغماء كان مجرد خدعة، لم تكن هي الحقيقة؛ فقد أغرته تلك الفكرة المغرية، وتغلبت عليه، كما وصفها، الإغراءات الخارقة للطبيعة، بالإضافة إلى العزلة والأمان الظاهري للمحاولة، فلم يكن متحكماً بنفسه بما يكفي ليتراجع. تركني حينها فقط بينما كان يغلق الباب، ثم عاد بشغف مضاعف إلى فريسته: وعندما وجدني ما زلت تحت تأثير السحر، تجرأ على وضعي كما يشاء، بينما كنت أشعر، كالميت، بما كان يفعله، حتى أيقظني الألم الذي سببه لي في الوقت المناسب لأشهد انتصاراً لم أستطع هزيمته، ولم أندم عليه الآن إلا قليلاً: لأنه بينما كان يتحدث، بدا صوته، كما ظننت، عذباً للغاية. في أذني، كان قرب شيء جديد ومثير للاهتمام يغمرني بقوة، حتى أنني، في إدراكي المتزايد للأشياء بنظرة جديدة ومبهجة، فقدت كل إحساس بالأذى الماضي. سرعان ما لاحظ الشاب علامات المصالحة في نظراتي الرقيقة، وسارع لأخذ ختمها من شفتي، فضغط عليهما برفق ليمنحني غفرانه في قبلة حارقة ذائبة، حتى أن أثرها انتقل إلى قلبي، ومن ثم إلى مركز طاقتي المكتشف حديثًا، فذابت في رقة لا تُقاوم. حينها، كان يُدير مداعباته وكلمات حنانه ببراعة، موحيًا بأكثر المواساة لطفًا للألم الماضي وأكثر التوقعات إرضاءً للمتعة المستقبلية، ولكن بينما كان الحياء يمنع عيني من رؤية عينيه، بل ويحولهما، لمحتُ لمحة من أداة الأذى التي أصبحت الآن واضحة حتى بالنسبة لي، التي لم أكن قد أتيحت لي سوى لمحات خاطفة منها.استأنف قدرته على تجديده، وأصبح مثيرًا للقلق بشكل كبير مع ازدياد حجمه، كما لو أنه حمله عمدًا بلا شك، صلبًا وقاسيًا على إحدى يدي التي أسقطتها بلا مبالاة؛ لكنه بعد ذلك استخدم مقدمة رقيقة، وتدرجات جذابة، لدرجة أن شغفي العائد بالرغبة قد تم تحفيزه بقوة الآن بسبب الظروف الجذابة لرؤية ولمس جماله العاري المتوهج، فاستسلمت في النهاية لقوة الانطباعات الحالية، وحصل من موافقتي الضمنية الخجولة على كل إشباعات المتعة المتبقية في قدرة جسدي المسكين على منحها، بعد أن قطف أثمن أزهاره، خلال فترة توقف حياتي، وقدراتي على حمايته.

هنا، وفقًا للقاعدة المتبعة، كان عليّ التوقف؛ لكنني غارقة في أفكاري لدرجة أنني لم أستطع التوقف حتى لو أردت. سأضيف فقط أنني عدت إلى المنزل دون أن يكتشف أحد ما حدث أو يشك فيه. التقيت بمغتصبي الشاب عدة مرات بعد ذلك، والذي أحببته بشدة، والذي، رغم أنه لم يبلغ السن القانونية للمطالبة بثروة صغيرة لكنها مستقلة، كان سيتزوجني؛ ولكن نظرًا لأن الحادث الذي حال دون ذلك، وعواقبه التي جعلتني محط أنظار العامة، تتضمن أمورًا مؤثرة وخطيرة للغاية لا يمكنني الخوض فيها الآن، فسأتوقف هنا.

لويزا، السمراء التي ذكرتها في البداية، حان دورها الآن لتُطلع الحضور على قصتها. لقد أشرتُ لكم سابقًا إلى جمالها الأخاذ، الذي لا يُضاهيه شيء في روعته وجاذبيته؛ أكرر، إنه جمالٌ آسر، تمييزًا له عن الجمال اللافت، الذي يكون تأثيره أقل ديمومة، ويرتبط عادةً بذوات البشرة الفاتحة؛ ولكنني أترك لكم حرية الاختيار، وسأروي لكم قصة لويزا على النحو التالي:

بحسب مبادئ الحياة العملية، كان ينبغي لي أن أفتخر بمولدي، إذ أنني مدين به لحب خالص، دون زواج؛ لكنني أعلم أنه من النادر أن يرث المرء ميلاً أقوى لهذا السبب في وجوده مما ورثته. كنتُ نتاجاً نادراً لأول محاولة لنجار متمرس، من خادمة سيده: وكانت النتيجة بطناً كبيراً، وفقدان وظيفته. لم يكن في وضع يسمح له بفعل الكثير من أجلها؛ ومع ذلك، بعد كل هذا العار، وجدت وسيلة، بعد أن تخلصت من عبئها، وباعتني لقريب فقير في الريف، لتعويض ذلك بالزواج من طاهي معجنات هنا في لندن، يملك عملاً مزدهراً؛ وسرعان ما فضلته، مستغلة تفوقه الكامل عليها، واعتبرتني طفلاً أنجبته من زوجها الأول. على هذا الأساس، أُخذتُ إلى المنزل، ولم أكن قد بلغت السادسة من عمري عندما توفي حماي، تاركاً أمي في ظروف مقبولة، ودون أي أطفال من زوجها الأول. أما والدي الحقيقي، فقد اختار البحر؛ وهناك، عندما انكشفت الحقيقة، علمتُ أنه مات، ولم يكن ثريًا كما قد

تظن، إذ لم يكن أكثر من بحار عادي. وبينما كنتُ أكبر، تحت أنظار أمي التي استمرت في العمل، لم يسعني إلا أن أرى، في مراقبتها الصارمة، آثار زلة، لم تكن تُبالي بأن تكون وراثية؛ لكننا لا نختار أهوائنا أكثر من اختيار ملامحنا أو لون بشرتنا، وكان ميلي إلى المتعة المحرمة قويًا جدًا، لدرجة أنه تغلب في النهاية على كل عنايتها وحذرها. لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمري، حتى جعلني ذلك الجزء الذي أرادت بشدة إبعاده عن الأذى، أشعر بنفاد صبره ليتم ملاحظته، وليظهر؛ لقد أظهر بالفعل علامات التقدم في برعم زغب ناعم فوقه، والذي كان يرفرف كثيرًا، ويمكنني أيضًا أن أقول إنه نما تحت لمستي وزيارتي المستمرة، فقد كنتُ مسرورًا جدًا بما اعتبرته نوعًا من حقي في بلوغ سن الرشد، تلك الحالة التي كنت أتوق إليها، لأن الملذات التي تخيلتها كانت مرتبطة بها؛ والآن، مع تزايد أهمية هذا الجانب بالنسبة لي، والأحاسيس الجديدة التي ترافقه، هدمت كل ألعابي وتسلياتي الطفولية دفعة واحدة. لقد وجهتني الطبيعة بقوة نحو تسليات أكثر جدية، بينما استقرت كل لسعات الرغبة بشدة في ذلك المركز الصغير منها، لدرجة أنني لم أكن أخطئ في تحديد المكان الذي أريد فيه رفيقًا للعب.

"لقد تجنبت الآن كل صحبة لا أمل فيها في الوصول إلى هدف رغباتي، وكنت أعزل نفسي، وأنغمس في العزلة في بعض التأمل الرقيق في المتعة التي أدركت بقوة أنها مقدمة، في الشعور وفحص ما أكدت لي الطبيعة أنه يجب أن يكون الطريق المختار، وبوابات النعيم المجهول التي كنت أتوق إليها".

لكن هذه التأملات لم تزد اضطرابي إلا سوءًا، وأجّجت النار التي كانت تلتهمني. وازداد وضعي سوءًا عندما استسلمت أخيرًا لتهيجات تلك الجنية الصغيرة التي لا تُطاق والتي كانت تُعذبني، فأمسكتها بأصابعي، وأداعبها بلا هوادة. أحيانًا، في غمرة الرغبة الجامحة، كنتُ أُلقي بنفسي على الفراش، وأُباعد بين فخذيّ، وأستلقي كما لو كنتُ أنتظر الراحة المنشودة، حتى أجد وهمي، فأُطبقهما وأضغط عليهما معًا مرة أخرى، وأنا أشعر بالحرقان والضيق. باختصار، قادني هذا الشيء الشيطاني، بأحزمته الجامحة ونيرانه المُثيرة للحكة، إلى حياة لم أستطع فيها، لا ليلًا ولا نهارًا، أن أكون في سلام معه ولا مع نفسي. ومع ذلك، بمرور الوقت، ظننتُ أنني فزتُ بجائزة عظيمة، عندما تخيلتُ أن أصابعي تُشبه ما كنتُ أتوق إليه، فدخلتُ بإحداها بحماسٍ ولذةٍ كبيرين؛ ومع ذلك، لم يكن الأمر خاليًا من الألم أيضًا عندما فضضتُ بكارتي إلى أقصى حد ممكن؛ مُستمرةً في ذلك... غضب العاطفة، في هذه اللحظة الأخيرة والمنفردة من المتعة، امتد بي في النهاية وأنا لاهث على السرير في غيبوبة عاطفية ذائبة.

"لكن مع تكرار الاستخدام الذي أدى إلى تبلد الإحساس، بدأت أدرك سريعًا أن هذا العمل لم يكن سوى وسيلة تافهة سطحية، لم تذهب بعيدًا في تخفيفي، بل أثارت لهيبًا أكثر مما يمكن أن تهدئه إثارته الجافة وغير المهمة".

كنتُ أعرف، بشكلٍ شبه غريزي، أن الإنسان وحده يملك العلاج الوحيد الذي يُمكنه تهدئة هذا الاضطراب المُتمرد؛ ولكن بينما كنتُ تحت المراقبة والتجاهل، كانت كيفية الوصول إليه هي المسألة، والتي بدت، على ما يبدو، مسألة لا تُقهر؛ ليس أنني لم أُجهد عقلي وابتكاري في كيفية التهرب من يقظة أمي، والحصول على إشباع فضولي الجامح ورغبتي في هذه المتعة العظيمة التي لم أتذوقها من قبل. في النهاية، قامت صدفة غريبة بعمل مسار طويل من اليقظة. في أحد الأيام، بينما كنا نتناول العشاء في منزل أحد معارفنا في الجهة المقابلة من الطريق، برفقة سيدة نبيلة كانت تسكن في الطابق الأول من منزلنا، بدأت ضرورة مُلحة لذهاب أمي إلى غرينتش لمرافقتها: تم تحديد موعد الحفل، عندما لا أعرف أي عبقرية أوحت لي أن أتظاهر بالصداع، والذي بالتأكيد لم أكن لأمانع إشراكي في رحلة لم أكن أرغب بها إطلاقاً. لكن الذريعة زالت، وأقنعت أمي نفسها، على مضض، بالذهاب بدوني؛ لكنها حرصت على إيصالي إلى المنزل سالماً، حيث عهدت بي إلى خادمة عجوز موثوقة تعمل في المتجر، إذ لم يكن لدينا رجل في المنزل.

ما إن غادرت، حتى أخبرت الخادمة أنني سأصعد وأستلقي على سرير النزيل، فسريري لم يكن مرتبًا، مع إلزامها في الوقت نفسه بعدم إزعاجي، فكل ما أردته هو الراحة. ولعل هذا التكليف كان له

أثر بالغ عليّ. فما إن دخلت غرفة النوم، حتى فككت رباط مشدي، وألقيت بنفسي فوق أغطية السرير، بملابس فضفاضة للغاية. وهناك استسلمت لعاداتي القديمة الباهتة في التأمل الذاتي، ولمس الذات، والاستمتاع الذاتي، باختصار، لكل وسائل معرفة الذات التي استطعت ابتكارها، باحثةً عن المتعة التي تلاشت أمامي، ومتلذذةً بذلك الشيء المجهول الذي كان بعيدًا عن متناول يدي؛ وهكذا لم يزد الأمر إلا من لهيب رغبتي، وإثارة شهواتي بشدة، في حين أن الشيء الوحيد اللازم لإشباعها لم يكن في متناول يدي، وكنت لأعض إصبعي على سوء تمثيلي له. وبعد ذلك، أرهقت نفسي وأتعبتني محاولاتي اليائسة... بينما كان ذلك الجزء الأكثر عقلانية في داخلي يرفض الرضا بأقل من الواقع، كانت الظلال تغمرني، بينما كانت تلك الأشواق الجامحة، والصراعات الملحة للطبيعة نحو الراحة الذائبة، والاضطرابات الذاتية الشديدة التي كنت أمارسها للوصول إليها، قد أرهقتني وألقتني في نوم مضطرب. فلو كنت أتقلب وأتحرك بعنف تبعًا لاضطراب أحلامي، كما كنت أعتقد، لما استطاع أي شخص إلا أن يرى كل شيء بوضوح. ويبدو أن أحدهم كان موجودًا بالفعل؛ فعندما استيقظت من غفوتي القصيرة، وجدت يدي متشابكة مع يد شاب كان راكعًا بجانب سريري، يتوسل إليّ أن أسامحه على جرأته. لكنه، لكونه ابن السيدة التي كانت هذه الغرفة ملكًا لها، كما كان يعلم، قد تسلل من أمام خادم المتجر، كما ظن، دون أن يلاحظه أحد، وعندما وجدني نائمة، كانت أولى أفكاره هي الانسحاب. لكنه كان قد تم تثبيته واحتجازه هناك بقوة كان بإمكانه تفسيرها بشكل أفضل. ثم يقاوم.

ماذا عساي أن أقول؟ سرعان ما تلاشت مشاعر الخوف والمفاجأة التي انتابتني، وغمرني شعورٌ بالمتعة وأنا أتحدث بوعيٍ تام عن المنعطف الذي قد تتخذه هذه المغامرة. بدا لي كملاكٍ شفقةٍ هبط من السماء، فقد كان شابًا ووسيمًا للغاية، وهو أكثر مما كنت أتمناه، فالرجل عمومًا كان كل ما أصبو إليه. فكرت حينها أنه لا يمكنني المبالغة في إظهار التشجيع في عينيّ أو صوتي، ولم أندم على أي مبادرة، ولم أعر اهتمامًا لرأيه في جرأتي، فقد يدفعه ذلك إلى تلبية مطالبي الملحة في هذه الحالة، فلم يكن الأمر متعلقًا بأفكاره بل بأفعاله. رفعت رأسي حينها، وأخبرته بنبرةٍ هادئةٍ توحي له بنفس المعنى، أن والدته خرجت ولن تعود إلا في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وهو ما اعتبرته تلميحًا جيدًا، ولكن كما اتضح، لم يكن لديّ مبتدئٌ لأتعامل معه. الانطباعات التي تركتها لديه من الاكتشافات... لقد كشفتُ عن نفسي بحركاتي المضطربة، بينما كان يراني نائمة، وكما أخبرني لاحقًا، فقد هيّأته وأسرتُ قلبه بطريقة ساحرة، حتى لو كنتُ أعرف طباعه، لكان لديّ أملٌ أكبر في عنفه من خوفي من احترامه؛ بل إنّ الرقة المفرطة التي غمرت صوتي ونظراتي كانت ستشجعه على اغتنام الفرصة. ولما وجد أن قبلاته، المطبوعة على يدي، قد استقبلها برقة كما يشاء، صعد إلى شفتيّ؛ ونظراته المتلألئة إليها جعلتني أغشى من فرط الفرح والسرور، فسقطتُ على ظهري، وسقط هو معي، بالطبع، على السرير، الذي كنتُ قد أفسحتُ له مكانًا فيه بانتقالي غير الواعي من الجانب إلى المنتصف، في دعوةٍ مني. وهو الآن مستلقٍ بجانبي، ولأنّ الدقائق ثمينةٌ جدًا بحيث لا يمكن إضاعتها في طقوسٍ أو مغازلة، فإنّ شبابي ينطلق مباشرةً إلى تلك اللحظات الحميمية، التي كانت كل نظراتي وهمهماتي... خفقان قلبي، طمأنه بأنه يستطيع المحاولة دون خوف من الرفض: هؤلاء الرجال الأوغاد، يقرأوننا ببراعة في مثل هذه المناسبات. استلقيت حينها ألهث استعدادًا للهجوم الوشيك، برغبات تفوق مخاوفي بكثير، والتي كان من الصعب على فتاة، بالكاد تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها طويلة القامة وناضجة، أن تكون أكثر استعدادًا لها. رفع تنورتي الداخلية وقميصي، بينما كانت فخذي، بغريزة الطبيعة، مكشوفة على أكمل وجه؛ وقد دمرت رغباتي تمامًا كل حياء في داخلي، حتى أن كونها الآن عارية ومكشوفة له بالكامل، كان جزءًا من المقدمة التي زادت من خجلي بسبب المتعة أكثر من أي شيء آخر. ولكن عندما جعلتني يده ولمساته، التي انجذبت بشكل طبيعي إلى مركزها، أشعر بكل شهوتها ودفئها في وحولها، يا إلهي! كم كان الإحساس بالأشياء مختلفًا تمامًا عما كان عليه عندما كنت تحت لمسي الباهت! والآن تم فك أزرار سترته، وانكشفت قيود... انفجرت السراويل من خلالها،عندما بدأتُ أُشاهد ذلك الشيء المذهل، المُبهج، الذي كان كل ما أتمناه، كل أحلامي، كل حبي، العضو الملكي حقًا! حدّقتُ فيه، والتهمتُه، طولًا وعرضًا، وعيناي مُركّزتان عليه بشدة، حتى قام هو؛ بوضعه عليّ، ووضعه بين فخذيّ، وسلب مني متعة رؤيته، ليمنحني متعةً أكبر بكثير، في لمسه، في ذلك الجزء الذي يكون لمسه فيه مؤثرًا للغاية. ثم وضعته على الفتحة الصغيرة،

لأنها كانت كذلك في ذلك العمر بالتأكيد، استقبلتُها بفرحة كبيرة، وشعرتُ بنشوة كبيرة من اللذة عند إدخاله لأول مرة، لدرجة أنني لم أُعر اهتمامًا كبيرًا للألم الذي تلاه: لم أظن أن هناك شيئًا ثمينًا جدًا لأدفعه مقابل هذه المتعة الحسية الأغنى؛ لذلك، حتى وأنا مُمزقة، مُنزفة، مُشوّهة، كنتُ لا أزال سعيدة للغاية، وعانقتُ مُسبب كل هذا الخراب اللذيذ. ولكن عندما قام، بعد ذلك بوقت قصير، بهجومه الثاني، وعلى الرغم من الألم الشديد، سرعان ما تلاشى الألم بفضل الدفء الملكي؛ صمتت كل شكاويّ الخافتة، وتلاشى الألم سريعًا ليتحول إلى لذة. استسلمتُ تمامًا لنشوتها، ومنحتها السيطرة الكاملة على جسدي وروحي؛ فقد انتهى التفكير تمامًا، ولم أعد أعيش إلا في ما أشعر به. ومن يستطيع وصف تلك المشاعر، تلك الاضطرابات، التي غمرها سحر حداثتها ومفاجأتها؟ حين أجبر ذلك الجزء مني، الذي كان يتوق بشدة لتلك اللقمة الشهية التي امتلأت بها الآن، كل أحاسيسي الحيوية على الاستقرار هناك، خلال إقامة ضيفي العزيز؛ الذي سرعان ما كافأني على ترحيبه الحار، بسائل أغنى بكثير مما سمعت عن ملكة تُدلل به عشيقها، لؤلؤ سائل، وسكبه فيّ بسخاء، حيث، وقد ذبتُ تمامًا لأستقبله جافًا، استقبلته بأحرّ حفاوة، وسط كل تلك النشوات العارمة، التي أظنها مألوفة لهذه المجموعة الكريمة. وهكذا، وصلتُ إلى قمة أمنياتي، بمحض الصدفة، وإن لم تكن عجيبة؛ فقد كان هذا الشاب قد وصل لتوه إلى المدينة من الجامعة، وجاء إلى منزل والدته في شقتها، حيث كان قد زارها من قبل، وإن كان ذلك محض صدفة. لم أكن قد رأيته من قبل، لذا لم نعرف بعضنا إلا من خلال السمع؛ وعندما وجدني مستلقية على سرير والدته، استنتج بسهولة من وصفها لي من أنا. والباقي تعرفونه.لم أعر اهتمامًا كبيرًا للألم الذي تلا ذلك: لم أجد شيئًا ثمينًا جدًا لأدفعه مقابل هذه المتعة الحسية العظيمة؛ حتى أنني، رغم تمزقي ونزيفي وتشويهي، كنت لا أزال مسرورًا للغاية، وعانقت من تسبب في كل هذا الخراب اللذيذ. ولكن عندما شن هجومه الثاني بعد ذلك بوقت قصير، ورغم الألم الشديد الذي كان يحيط بي، سرعان ما زال الألم بفضل الدواء القوي؛ صمتت كل شكاويّ الخافتة، وذاب الألم سريعًا في لذة. استسلمت لكل نشواته، ومنحته السيطرة الكاملة على جسدي وروحي؛ لأنه الآن انتهى كل تفكير بالنسبة لي؛ عشت فيما شعرت به فقط. ومن يستطيع وصف تلك المشاعر، تلك الاضطرابات، التي ارتفعت مع ذلك بسحر جدتها ومفاجأتها؟ عندما أجبر ذلك الجزء مني الذي كان يتوق بشدة إلى اللقمة العزيزة التي امتلأت الآن بكل لذة، كل أحاسيسي الحيوية على الاستقرار هناك، خلال إقامة ضيفي الحبيب؛ سرعان ما كافأني على ترحيبه الحار، بسائلٍ أغنى بكثير مما سمعتُ عن ملكةٍ تُدلّل به عشيقها، لؤلؤٌ سائل، وسكبه عليّ بسخاءٍ، حيثُ، وقد ذبتُ تمامًا فلم أعد قادرةً على استقباله جافًا، استقبلتهُ بحفاوةٍ بالغة، وسط تلك النشوة العارمة، التي أظنها مألوفةً لهذه المجموعة الكريمة. وهكذا، وصلتُ إلى ذروة أمنياتي، بمحض الصدفة، غير المتوقعة، ولكنها ليست عجيبة؛ فقد كان هذا الشاب قد وصل لتوه إلى المدينة من الجامعة، وجاء إلى منزل والدته، حيثُ كان قد زارها من قبل، وإن كان ذلك محض صدفة. لم أكن قد رأيته من قبل: لذا عرفنا بعضنا البعض من خلال السمع فقط؛ وعندما وجدني مستلقيةً على سرير والدته، استنتج بسهولة من وصفها من أنا. والباقي تعرفونه.لم أعر اهتمامًا كبيرًا للألم الذي تلا ذلك: لم أجد شيئًا ثمينًا جدًا لأدفعه مقابل هذه المتعة الحسية العظيمة؛ حتى أنني، رغم تمزقي ونزيفي وتشويهي، كنت لا أزال مسرورًا للغاية، وعانقت من تسبب في كل هذا الخراب اللذيذ. ولكن عندما شن هجومه الثاني بعد ذلك بوقت قصير، ورغم الألم الشديد الذي كان يحيط بي، سرعان ما زال الألم بفضل الدواء القوي؛ صمتت كل شكاويّ الخافتة، وذاب الألم سريعًا في لذة. استسلمت لكل نشواته، ومنحته السيطرة الكاملة على جسدي وروحي؛ لأنه الآن انتهى كل تفكير بالنسبة لي؛ عشت فيما شعرت به فقط. ومن يستطيع وصف تلك المشاعر، تلك الاضطرابات، التي ارتفعت مع ذلك بسحر جدتها ومفاجأتها؟ عندما أجبر ذلك الجزء مني الذي كان يتوق بشدة إلى اللقمة العزيزة التي امتلأت الآن بكل لذة، كل أحاسيسي الحيوية على الاستقرار هناك، خلال إقامة ضيفي الحبيب؛ سرعان ما كافأني على ترحيبه الحار، بسائلٍ أغنى بكثير مما سمعتُ عن ملكةٍ تُدلّل به عشيقها، لؤلؤٌ سائل، وسكبه عليّ بسخاءٍ، حيثُ، وقد ذبتُ تمامًا فلم أعد قادرةً على استقباله جافًا، استقبلتهُ بحفاوةٍ بالغة، وسط تلك النشوة العارمة، التي أظنها مألوفةً لهذه المجموعة الكريمة. وهكذا، وصلتُ إلى ذروة أمنياتي، بمحض الصدفة، غير المتوقعة، ولكنها ليست عجيبة؛ فقد كان هذا الشاب قد وصل لتوه إلى المدينة من الجامعة، وجاء إلى

منزل والدته، حيثُ كان قد زارها من قبل، وإن كان ذلك محض صدفة. لم أكن قد رأيته من قبل: لذا عرفنا بعضنا البعض من خلال السمع فقط؛ وعندما وجدني مستلقيةً على سرير والدته، استنتج بسهولة من وصفها من أنا. والباقي تعرفونه.وسط كل تلك النشوات العارمة، التي أظنها مألوفة لهذه المجموعة الكريمة. وهكذا، وصلتُ إلى ذروة أمنياتي، بمحض الصدفة، وإن لم تكن غريبة؛ فقد كان هذا الشاب قد وصل لتوه إلى المدينة من الجامعة، وجاء إلى منزل والدته في شقتها، حيث كان قد زارها من قبل، وإن كان ذلك محض صدفة. لم أكن قد رأيته من قبل، لذا لم نعرف بعضنا إلا من خلال السمع؛ وعندما وجدني مستلقية على سرير والدته، استنتج بسهولة من وصفها لي من أنا. والباقي تعرفونه.وسط كل تلك النشوات العارمة، التي أظنها مألوفة لهذه المجموعة الكريمة. وهكذا، وصلتُ إلى ذروة أمنياتي، بمحض الصدفة، وإن لم تكن غريبة؛ فقد كان هذا الشاب قد وصل لتوه إلى المدينة من الجامعة، وجاء إلى منزل والدته في شقتها، حيث كان قد زارها من قبل، وإن كان ذلك محض صدفة. لم أكن قد رأيته من قبل، لذا لم نعرف بعضنا إلا من خلال السمع؛ وعندما وجدني مستلقية على سرير والدته، استنتج بسهولة من وصفها لي من أنا. والباقي تعرفونه.

"مع ذلك، لم تكن لهذه القضية عواقب وخيمة، فقد نجا الشاب حينها، وظلّ يختفي عن الأنظار مرات عديدة. لكنّ دفء طبيعتي، الذي جعل من ملذات الحبّ ضرورةً من ضرورات الحياة بالنسبة لي، قد خانني في نزواتٍ أودت بحياتي الشخصية، فسقطتُ في نهاية المطاف في دائرة الضوء؛ ومن المحتمل أنني كنت سأواجه أسوأ أنواع الخراب لولا أن حظي الأفضل زجّ بي في هذا الملاذ الآمن والمريح".

هنا انتهت لويزا؛ وبعد أن أتاحت هذه القصص القصيرة الوقت للفتيات للانسحاب والاستعداد لاحتفالات المساء، بقيت مع السيدة كول حتى جاءت إميلي وأخبرتنا أن الضيوف قد اجتمعوا وانتظرونا.

أخذتني السيدة كول بيدي، وابتسمت لي ابتسامة تشجيعية، وقادتني إلى الطابق العلوي، وسبقتها لويزا التي جاءت لتسرعنا، وأضاءت لنا شمعتين، واحدة في كل يد.

عند هبوط الدرج الأول، استقبلنا شاب أنيق الملبس، ذو قوام جميل، والذي أدين له بأول تجربة لي في متع المنزل. رحب بي بحفاوة بالغة، وأدخلني إلى غرفة الجلوس، التي كانت أرضيتها مفروشة بسجادة تركية، وأثاثها مصمم بفخامة فائقة تلبي أرقى متطلبات الرفاهية؛ وكانت الغرفة، بفضل إضاءة غزيرة، تنبض بالحياة بضوء لا يقل روعة، بل ربما يكون أكثر بهجة ولطفاً من ضوء الشمس الساطع.

عند دخولي الغرفة، شعرتُ بسعادة غامرة لسماع همسات استحسان تملأ المكان، والذي كان يتألف من أربعة رجال، بمن فيهم رفيقي (وهو المصطلح الدارج آنذاك في المنزل للإشارة إلى فارس أحلامي)، وثلاث شابات يرتدين ثوبًا أنيقًا فضفاضًا، ومديرة الأكاديمية، وأنا. استُقبلتُ بحفاوة بالغة، وقُبلتُ من كل جانب، إلا أنه كان من السهل ملاحظة الفرق بين الجنسين في دفء قبلات الرجال.

رغم شعوري بالرهبة والحيرة عندما رأيت نفسي محاطة ومُدللة ومُغازلة من قبل هذا العدد الكبير من الغرباء، لم أستطع على الفور أن أعتاد على جو البهجة والفرح الذي كان يملي مجاملاتهم ويحرك مداعباتهم.

أكدوا لي أنني كنتُ على ذوقهم تمامًا، لدرجة أن عيبًا واحدًا فقط كان من السهل التخلص منه، ألا وهو حيائي. لاحظوا أن هذا قد يُعتبر جمالًا، خاصةً لدى من يرغبون فيه كعامل مُعزز؛ لكن مبدأهم كان أنه مزيجٌ مُزعج، يُفسد متعة اللحظة؛ لذا اعتبروه عدوهم اللدود، ولم يرحموه أينما وجدوه. كانت هذه مقدمةً تليق بالاحتفالات الصاخبة التي تلت ذلك.

وسط كل هذا المرح والبهجة التي انخرطت فيها هذه المجموعة المرحة، وبشكل طبيعي، قُدِّم عشاء أنيق، وجلسنا لتناوله، وجلس حبيبي بجانبي، وجلس الأزواج الآخرون دون ترتيب أو مراسم. سرعان ما بددت البهجة الرقيقة والنبيذ الجيد كل تحفظ؛ وازداد الحديث حيويةً كما هو مرغوب، دون أن ينحرف عن مساره: فهؤلاء الذين يتقنون فنون المتعة يعرفون جيدًا كيف يُفسدون انطباعاتها، أو يُبددون خيال الكلمات، قبل أن يحين وقت الفعل. ومع ذلك، كانت القبلات تُنتزع أحيانًا، أو حيثما

وُضع منديل حول العنق كحاجز ضعيف، لم يكن يُحترم تمامًا: انطلقت أيدي الرجال في العمل بغضبهم المعتاد، حتى بلغ الاستفزاز من كلا الجانبين ذروته، لدرجة أن اقتراح حبيبي ببدء الرقصات الشعبية قوبل بموافقة فورية: لأنه، كما أضاف ضاحكًا، كان يتخيل أن الآلات الموسيقية متناغمة. كانت هذه إشارة للاستعداد، والتي اعتبرتها السيدة كول المتعاونة، التي كانت تفهم الحياة، إشارة للاختفاء؛ لم تعد قادرة على الخدمة الشخصية بنفسها، وراضية بترتيبها لترتيب المعركة، تركت لنا ساحة المعركة، لنخوضها وفقًا لتقديرها.

بمجرد أن غادرت، أُزيلت الطاولة من المنتصف، وأصبحت خزانة جانبية؛ أُحضر أريكة مكانها، وعندما سألته همسًا عن السبب، عن خصوصيتي، أخبرني: "بما أن مؤتمره عُقد من أجلي بالدرجة الأولى، فقد أراد الطرفان إرضاء ذوقهما في تنويع الملذات، ومن خلال متعة علنية، أن يروني أتخلص من أي وصم للتحفظ أو الحياء، اللذين اعتبروهما سمًا للفرح؛ وأنهم مع أنهم يبشرون بالمتعة أحيانًا، ويعيشون وفقًا للنص، إلا أنهم لا ينخرطون بحماس في الدعوة، وإنما ينغمسون فقط في متعة تعليم جميع النساء الجميلات اللاتي أعجبوا بهن بما يكفي لمنحهن إياه، واللاتي وقعن في طريق ذلك؛ ولكن بما أن مثل هذا الاقتراح قد يكون عنيفًا جدًا، وصادمًا جدًا بالنسبة لمبتدئ شاب، فقد أراد المخضرمون أن يضربوا مثالًا، وهو يأمل ألا أمانع في اتباعه، لأنه هو من أوكلت إليه التجربة الأولى؛ ولكن لا يزال لي كامل الحرية في رفض الحفل، الذي هو بطبيعته حفل متعة، يفترض استبعاد جميع أشكال القوة أو الإكراه.

لا شك أن ملامح وجهي عبّرت عن دهشتي، كما عبّر صمتي عن موافقتي. لقد كنتُ الآن على متن السفينة، وعازماً تماماً على خوض أي رحلة ستأخذني فيها الشركة.

كان أول من نهض لافتتاح الحفل عازف كورنت حصان، وتلك الحسناء الرقيقة ذات البشرة الزيتونية، لويزا الناعمة والعاشقة. قادها إلى الأريكة (دون تردد)، حيث قذف عليها، ومدّها ببطء في حركة تجمع بين الخشونة والقوة، مستمتعًا بنشوة الشوق العاطفي. كانت الفتاة، وقد بسطت جسدها على أفضل وجه، ورأسها على الوسادة، غارقة في لذتها، لدرجة أن وجودنا كان آخر ما يشغل بالها. كشفت تنورتها الداخلية، التي ارتفعت مع قميصها، للحضور عن أجمل ساقين وفخذين يمكن تخيلهما، وعرضت لنا بوضوح ذلك الشق اللذيذ من الجسد، الذي انقسم إليه الشعر الجميل، الذي نما فوقه، ليشكل مدخلاً مغريًا للغاية، بين شجيرتين كثيفتين، ناعمتين وجميلتين. كان فارسها الآن جاهزًا، بعد أن خلع ملابسه المثقلة بالدانتيل، وسرعان ما خلع قميصه، وكشف لنا عن قوته في وضع حرج، متأهبة للقتال. لكنه لم يمنحنا وقتًا للتفكير في حجمه، بل انقضّ على خصمته الساحرة التي استقبلته بدفعة قوية، كبطلة، دون أن يرف لها جفن؛ لأنه بالتأكيد لم تكن هناك فتاة أكثر صدقًا في التعبير عن الفرح، أو أكثر صدقًا في التعبير عن أحاسيسه، منها: استطعنا أن نرى السرور يضيء عينيها، بينما كان يدخل عضوه فيها. حتى، في النهاية، وبعد أن أشبع رغبتها إلى أقصى حد، اشتدت تهيجاته بشدة، وأعطتها دوافع غاضبة، تجمعت بداخلها، وفقدت كل شيء إلا متعة مشاعرها المفضلة، فأبطأت دفعاته بتناغم عادل من حركات الربيع، مواكبة الإيقاع بدقة مع أكثر التنهدات إثارة للشفقة، لدرجة أنه يمكن للمرء أن يعد الضربات في حالة هياج من خلال همساتها المميزة، بينما استمرت أطرافها النشطة في الالتفاف والتشابك مع أطرافه، في طيات متشنجة: ثم القبلات الشبيهة بمنقار السلحفاة، وعضات الحب المؤلمة غير المؤلمة، التي تبادلاها كلاهما، في حالة من النشوة، وكلها تتآمر نحو فترة الذوبان. سرعان ما بدأت اللحظة، حين صرخت لويزا، في غمرة نشوتها الجامحة، عاجزة عن كبح جماحها: "يا سيدي!... سيدي الكريم! أرجوك لا ترحمني! آه! آه!..." تلاشت كل كلماتها في أناتٍ متقطعة، وأغمضت عينيها في موتٍ عذب، وفي تلك اللحظة، بدت علامات الموت واضحةً في هيئة سائقها الراحل، الذي توقف فجأةً، يلهث، ويتنفس بصعوبة، وقد فارق الحياة للحظات. ما إن ترجل عن عربته، حتى نهضت لويزا، وهزت تنورتها، وركضت نحوي، وقبلتني، ثم جذبتني إلى المنضدة، حيث ناولها حبيبها إليها، وهناك جعلاني أقسم لهما بكأس من النبيذ، ونحت نخبًا مرحًا بمناسبة عرض لويزا للزواج.

في ذلك الوقت، كان الزوجان الثانيان على أهبة الاستعداد لدخول ساحة النزال: بارون شاب، وتلك الفاتنة الرقيقة، هارييت الساحرة والودودة. جاء مرافقي اللطيف ليُعرّفني على الأمر، ثم أعادني إلى ساحة النزال.

وبالتأكيد، لم يسبق لأحد من أهلها أن رافق طباعها، في الدور الجريء الذي كانت تؤديه، بمثل هذه الرقة والحياء والخجل الرقيق. كانت كل حركاتها وتصرفاتها تنم عن رضا تام لا تشوبه شائبة، دون أدنى وقاحة أو ابتذال. ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن حبيبها المختار، في خضم انحلال متعة عامة، قد أسر قلبها حد الجنون، ولمس قلبها بدافع الحب والمشاعر، على الرغم من أن التزامهما بالمنزل قد فرض عليه لفترة من الوقت نوعًا من الإلزام بالامتثال لمؤسسة كان له فيها الدور الأكبر في تأسيسها.

ثم اقتادها فارسها إلى الأريكة الفارغة، وقد احمرّ وجهها خجلاً وهي تنظر إليّ، وبعيونٍ قادرة على تبرير أي شيء، تحدثت إليّ برقة عن أفضل طريقة ممكنة للخطوة التي انجذبت إليها بشكل لا يقاوم.

أجلسها حبيبها، كما كان، عند أسفل الأريكة، ولفّ ذراعه حول عنقها، ثم طبع قبلةً حارةً على شفتيها، منحتها الحياة والروح لتكمل المشهد. وبينما كان يقبّلها، أمال رأسها برفق حتى استقر على وسادةٍ مُهيّأةٍ لذلك، وانحنى معها، مُشجعًا إياها ومُحببًا إياها إلى حضنه. هناك، وكأنه قد تنبأ برغباتنا، أو أراد أن يُرضي متعته وفخره في آنٍ واحد، لكونه سيدًا، بحكم امتلاكه الحالي، لجمالٍ يفوق الخيال، كشف صدرها لمسته ونظرنا المشترك؛ يا له من دليلٍ لذيذٍ على الحب والتفاني! يا له من شكلٍ بديعٍ لا يُضاهى! صغير، مستدير، متماسك، وأبيض ناصع؛ ثم ملمس بشرتها، ناعمٌ، مُريحٌ للغاية عند اللمس! ويا له من جمال! بعد أن أمتع عينيه بحلماتهما، التي توجتهما، بلمسة وتأمل أحلى براعمهما، وأمتع شفتيه بقبلات ذات لذة قصوى، مطبوعة على تلك الكرات التوأم اللذيذة، تابع نزوله.

كانت ساقاها لا تزالان ثابتتين على الأرض؛ والآن، بحرص شديد كي لا يصدمها أو يفزعها فجأة، قام تدريجيًا برفع تنورتها الداخلية خلسةً بدلًا من طيها؛ وعندها، كما لو أُعطيت إشارة، أمسكت لويزا وإيميلي بساقيها، في نشوة خالصة، وأبقتاهما متباعدتين على اتساعهما، مما أراحها. ثم انكشفت، أو بالأحرى، عرضت أروع استعراض طبيعي لجمال المرأة. بدا جميع الحاضرين، الذين لم يسبق لي رؤيتهم، منبهرين ومندهشين ومبتهجين، كما لو أنهم رأوهم للمرة الأولى. لا بد أن تتمتع هذه الجمالات الفائقة بامتيازات التجدد الدائم. كانت فخذاها منحوتتين بشكل بديع، لدرجة أنه لو كانتا أكثر امتلاءً أو بروزًا مما كانتا عليه، لكانتا قد انحدرتا عن مستوى الكمال الذي تمثلانه. لكن ما زادها جمالاً وروعةً لا متناهية، هو ذلك التقاطع العذب الذي تشكل عند أسفل بطنها الناعم المستدير الأبيض، بفعل ذلك الأخدود المركزي الذي حفرته الطبيعة هناك بين النتوءين الرقيقين، والذي كان في هذه الفتاة متناسقاً تماماً في رقته وصغره مع بقية جسدها. كلا! لا شيء في الطبيعة أجمل من هذا؛ ثم إن الظل الداكن لطحلب الربيع الناعم الذي يغطيه، منح روعة المنظر دفئاً مؤثراً، ولمسة نهائية رقيقة، تفوق قدرة الكلمات على التعبير، بل وحتى قدرة الخيال على رسمها.

أما حبيبها المتيم، الذي ظلّ منغمسًا في لذة المنظر لفترة كافية ليمنحنا الوقت لنستمتع (لا خوف من التخمة!)، فقد تطرق أخيرًا إلى أدوات المتعة، ورفع الستار الكتاني الذي كان يفصلنا عن عضوه الرئيسي في الاحتفالات، كاشفًا عن عضو ضخم الحجم يُعلن أن صاحبه بطل حقيقي للمرأة. كان، إلى جانب ذلك، رجلًا نبيلًا بكل معنى الكلمة، وفي ريعان شبابه. ثم وقف بين ساقي هارييت، اللتين كانتا مدعومتين من قبل رفيقتيها في أوسع امتداد لهما، وكشف بيد واحدة عن شفتي ذلك الفم الطبيعي الشهي، بينما انحنى باليد الأخرى بآلته الجبارة نحو جاذبيتها، من أعلى وقفته المنتصبة نحو بطنه؛ استقبلت شفتاه، اللتان أبقيهما مفتوحتين بأصابعه، رأس قضيبه العريض ذو اللون المرجاني؛ وعندما استقرّ فيه، حام قليلاً، ثمّ سلّمت الفتاتان إلى وركيه مهمة دعم فخذيهما؛ والآن، كما لو كان ينوي إطالة لذّته، ومنحها مزيدًا من المتعة، رفع قضيبه ببطء شديد حتى اختفى عن أنظارنا شيئًا فشيئًا، إلى أن دخل بالكامل إلى مختبر الحبّ الناعم، والتقت نتوءات كليهما معًا. في هذه الأثناء، كان بإمكاننا أن

نلاحظ بوضوح التأثير الهائل الذي أحدثته هذه الطاقة المبهجة في هذه الفتاة الرائعة، حيث زادت من جمالها تدريجيًا مع ازدياد لذّتها. ازداد وجهها وجسدها حيوية؛ وتحوّل احمرار وجنتيها الخفيف، الذي كان يمتزج بالبياض، إلى توهج قرمزي زاهٍ، وتألقت عيناها اللامعتان بشكل طبيعي ببريق مضاعف عشر مرات؛ اختفى خمولها، وبدت سريعة الحركة، مفعمة بالحيوية والنشاط. كان قد ثبّت، وثبّت، هذا المخلوق الرقيق، بعصاه المدقوقة، فأصبحت خاضعةً للقوة، عاجزةً عن الحركة، إلى أن بدأ يحرك ذراعيه بقوة على موضعها الحساس، وهو يحثّ على الاحتكاك ذهابًا وإيابًا، فأيقظها، وحرّكها، ولمسها حتى قلبها، فلم تستطع كبح جماح نفسها، ولم يسعها إلا أن تستجيب لحركاته، بأقصى سرعة تسمح بها رقة جسدها، إلى أن جعلتها لذة النشوة العارمة، وهي تتصاعد نحو ذروتها، تهتزّ من شدة الإحساس، فبدأت تهزّ ساقيها وذراعيها عشوائيًا، غارقةً في لذة النشوة؛ التي تجلّت من جانبه بدفعات أسرع وأكثر حماسة، ولهثات متشنجة، وتنهدات حارقة، وتنفس سريع متقطع، وعيون تشتعل بنيران رطبة: جميعها علامات دالة على اقتراب آخر أنفاس النشوة. لقد بدأ الأمر أخيراً: قاد البارونيت النشوة، التي انضمت إليه بحماس شديد، حيث شعرت بأعراض الذوبان منه، وفي اللحظة التي كاد فيها أن يلتصق بشفتيه بشفتيها أكثر من أي وقت مضى، أظهر كل علامات عذاب النعيم الذي كان يسيطر عليه بقوة.حيث منحها النشوة الأخيرة؛ وقد رأينا بوضوح كيف استجابت لها بكل ما أوتيت من قوة روحية ومادية، بينما سرى ارتعاش خفيف في جميع أطرافها، التي مدتها، واستلقت بلا حراك، لاهثة، تموت من فرط اللذة؛ وفي ذروة تعبيرها، ظهرت من خلال جفنيها شبه المغلقين حواف سوادهما، بينما كان باقي عينيها متدليًا بقوة إلى أعلى في نشوتهما؛ ثم بدا فمها الحلو مفتوحًا بفتور، مع ميل طرف لسانها بإهمال نحو أسنانها البيضاء السفلية، بينما توهج لون شفتيها الياقوتي الطبيعي بحيوية متزايدة. ألم يكن هذا موضوعًا يستحق التأمل؟ وبناءً على ذلك، ظل حبيبها ملازمًا لها، بمتعة دائمة، حتى استنفدها تمامًا، ثم ودعها بقبلة حارة واحدة، معبرًا عن رغبات مُرضية، ولكن حب لم ينطفئ.

بمجرد أن انطلق، ركضت إليها، وجلست على الأريكة بجانبها، ورفعت رأسها، لكنها رفضت بلطف، وأسندت رأسها على صدري، لتخفي احمرار وجهها وارتباكها مما حدث، حتى استعادت رباطة جأشها تدريجياً، وقبلت كأسًا من النبيذ من حبيبي، الذي تركني لأحضره لها، بينما كان حبيبها يعيد ترتيب أموره ويغلق أزرار ملابسه؛ وبعد ذلك قادها، وهي تتكئ عليه بفتور، إلى منصة مشاهدة حول الأريكة.

والآن اصطحب شريك إميلي إياها للمشاركة في الرقص، فنهضت هذه المخلوقة الجميلة ذات المزاج اللطيف بسهولة؛ وإذا كان لون بشرتها الذي يخفي جمال الوردة والزنبق، وملامحها الجميلة للغاية، وتلك الصحة والنضارة التي تتميز بها فتيات الريف، قد يجعلها تبدو جميلة، فهي بالتأكيد كانت كذلك، وواحدة من أكثر الجميلات إثارة للإعجاب.

بدأ فارسها، وهي واقفة، بفكّ قيود ثدييها، وإعادتهما إلى حرية الطبيعة، بعد أن كانا محصورين في ثنيات بسيطة؛ ولكن ما إن ظهرا حتى ظننا أن نورًا جديدًا قد أُضيف إلى الغرفة، لشدة بياضهما؛ ثم ارتفعا في موجة بهيجة، فشكّلا لها صدرًا ممتلئًا وجميلًا، كان له تأثير على العين كأنه قطعة رخام مصقولة، تحاكي لمعانه المصقول، وتتفوق على أكثرها بياضًا في حيوية ألوانها وبريقها، أبيض ممزوج بالأزرق. من يستطيع مقاومة مثل هذه الإغراءات المثيرة؟ لمس ثدييها، أولًا برفق، حين أفلتت نعومة الجلد اللامعة من يده، فانزلقت على سطحه؛ ضغط عليهما، فارتفع اللحم المرن الذي ملأهما، والذي تآكل بفعل القوة، من جديد مع يده، ومحو الضغط في الحال. وكان قوام جميع أجزاء جسدها متماثلاً، حيث يتراص اللحم ويشكل تلك الصلابة الرقيقة التي يرتبط بها اللمس بشدة. ولما أشبع رغبته في هذا النوع من المداعبة والمتعة، ربط تنورتها الداخلية وقميصها، في خصرها، حيث بدت عارية من كل جانب تقريبًا. فاحمر وجهها الجميل خجلاً، ونظرت إلى الأرض، وكأنها تطلب الاستسلام، مع أنها كانت تتمتع بحق كبير في التباهي بكل كنوز الشباب والجمال التي أظهرتها الآن بكل فخر. كانت ساقاها متناسقتين تمامًا، وفخذاها، اللذان أبقتهما قريبين منها، بديا شديدي البياض والاستدارة والامتلاء، ما جعل من المستحيل تقريبًا أن يُشجع على لمسته الرقيقة، التي لم يتردد في منحها إياها. ثم أبعد يدها برفق، التي كانت قد وضعتها هناك بدافع الحياء الطبيعي، فأتاح لنا لمحة

خاطفة، لا رؤية كاملة، لتلك الفجوة الضيقة الناعمة الممتدة إلى أسفل، والتي أخفت ما تبقى منها بين فخذيها؛ ولكن كان من الواضح رؤية خصلات الشعر البنية الفاتحة، التي نمت بشكل جميل فوقها، والتي أضفت بلمعانها الحريري تنوعًا جذابًا عن البياض المحيط، الذي ازداد بريقه أيضًا، وظله البني الرقيق، بشكل ملحوظ. ثم حاولت، وهي واقفة، أن تكشف عن فخذيها لتُظهر لنا سحرها الآسر، ولكن لعدم تمكنه من ذلك بسهولة في تلك الوضعية، قادها إلى أسفل الأريكة، وأجلسها على إحدى الوسائد، وأمال رأسها برفق، فبينما كانت تميل برأسها فوق يديها المتقاطعتين، وفخذيها متباعدتان، وجسدها بارز، كشفت عن ظهرها بالكامل، عارية حتى خصرها. كانت مؤخرتها، الممتلئة والناعمة والبارزة، تُشكل مساحات شاسعة من الثلج المتلألئ، تملأ العين بجمالٍ أخاذ.حتى أُمرت بالنزول إلى أسفل مفترق تلك المنحدرات البيضاء الرائعة، عبر واديها الضيق، وتوقفت هناك، وانجذبت إلى القاع المظلل، الذي أنهى هذا المنظر المبهج ووقف مفتوحًا بشكل معتدل بفعل تأثير وضعيتها المنحنية، بحيث ظهر اللون الأحمر الداخلي الممتع لجوانب الفتحة، وبالنسبة للبياض الذي أبهر حوله، أعطى فكرة ما عن شق وردي في الساتان الأبيض اللامع. أما فارسها، الذي كان رجلاً في الثلاثين من عمره تقريبًا، يميل إلى السمنة نوعًا ما والتي لم تكن مزعجة بأي شكل من الأشكال، فقد حسّن التلميح الذي قدمته له بهذه الطريقة من المتعة، وبعد أن وضعها جيدًا في هذه الوضعية، وشجعها بالقبلات والمداعبات على تحمله، أخرج عضوه المنتصب، والذي كان طوله المفرط، غير المتناسب مع عرضه، أكثر إثارة للدهشة، حيث أن هذه الزيادة ليست هي الحال غالبًا مع أولئك الذين يتمتعون بعادته البدينة؛ ثم قام بتطبيقها بشكل صحيح ومباشر، ودفعها نحو الحارس، بينما كان الانتفاخ المستدير لتلك الجمال التركي، متطابقًا مع التجويف الذي صنعه انحناء بطنه وفخذيه، وهو ينحني إلى الداخل، يجعل كل تلك الأجزاء، بالتأكيد ليس بشكل غير ممتع، في لمسة دافئة، واقتران وثيق؛ وظلت يداه تدوران حول جسدها، وتستخدمان في مداعبة ثدييها الساحرين. وما إن شعرت به في متناول يدها، حتى رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة، وأدارت رقبتها، دون عناء كبير، لكن وجنتيها كانتا متوهجتين بأعمق درجات اللون القرمزي، وابتسامة رضا رقيقة، استقبلت القبلة التي ضغط عليها ليمنحها إياها وهما ملتصقان ببعضهما البعض: وعندما تركته ليواصل ملذاته، أخفت وجهها واحمرارها بيديها ووسادتها، ووقفت هكذا بسلبية وبأفضل ما يمكن، بينما استمر في ضربها بدفعات متكررة، مما جعل اللحم الملتقي على كلا الجانبين يتردد صداه مرة أخرى بعنفها؛ ثم كلما ابتعد عنها، كنا نرى بينهما جزءًا من قضيبه الأبيض الطويل يتحرك برغوة، حتى، عندما عاد واقترب منها، حجبته التلال المتداخلة عن الأنظار. أحيانًا كان يرفع يديه عن نصفي صدرها، وينقل ضغطهما إلى صدرها الكبير، الذي كان محور قبضته الناعمة، يعصره ويمسكه ويلعب به، حتى وصل في النهاية، في سعيه المحموم، إلى ذروة النشوة، بمتعة طاغية، حتى أصبحت شريكته الجميلة مضطرة لدعمه، وهي تلهث وتفقد وعيها وتموت أثناء قذفه؛ وما إن شعرت بحلاوة النشوة القاتلة، حتى عجزت عن الوقوف على قدميها، واستسلمت للنشوة العارمة، فترنحت وسقطت على الأريكة، مما جعل من الضروري له، إذا أراد الحفاظ على دفء المتعة، أن ينقض عليها، حيث بلغا ذروة النشوة، في انسجام تام بين الجسد والتدفق النشوي.مخططهم للمتعة في ذلك الوقت.

ما إن انتهى من مراسم الزفاف، حتى نهضت إميلي الساحرة، والتففنا حولها بالتهاني والتهاني، مُقدمين لها بعض الخدمات الصغيرة المُبالغ فيها؛ إذ تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من غياب كل مظاهر الحياء والتحفظ في هذه المراسم، فقد حُفظت الآداب والأدب على أكمل وجه: لم يكن هناك أي فُحش أو سلوك مُسيء أو فظ، ولا أي لوم غير لائق للفتيات على امتثالهن لأهواء الرجال ورغباتهم. بل على العكس، لم يكن هناك ما ينقص لتهدئة مشاعرهن وتشجيعهن وتلطيف شعورهن بوضعهن. لا يُدرك الرجال عمومًا كم يُضيّعون من متعتهم عندما يتجاوزون حدود الاحترام والحنان الواجبين لجنسنا، بل وحتى لمن يعشن حياةً لا تكتمل إلا بإرضائهم. وكان هذا مبدأً مفهوماً تماماً لدى هؤلاء المترفين المهذبين، هؤلاء الخبراء العميقين في فن وعلم المتعة العظيم، الذين لم يُظهروا لهؤلاء المعجبين احتراماً أرق من وقت ممارساتهم للمجاملة، عندما كشفوا عن كنوز جمالهم الخفي، وأظهروا بفخر سحرهم الطبيعي، وهو أمر مؤثر بالتأكيد أكثر من عندما يستعرضونه في الملابس والزينة المصطنعة.

لقد حان دوري الآن، وبما أن دوري قد حان في الاستجابة لإرادة ورغبة من اخترتهم، وكذلك لإرادة ورغبة الفرقة، فقد أتى إليّ، وحياني برقة شديدة، وبحماسة متملقة، وذكّرني بالامتثال الذي سمح به وجودي هناك، وفي الوقت نفسه كرر لي، "أنه لو لم تتغلب كل هذه القوة من المثال على أي نفور قد يكون لديّ للموافقة على أهواء ورغبات الفرقة، وأنه على الرغم من أن المسرحية كانت مصممة خصيصًا لمصلحتي، ومهما كانت خيبة أمله الشخصية كبيرة، فإنه سيتحمل أي شيء، قبل أن يكون أداة لفرض مهمة غير سارة."

أجبتُهم دون أدنى تردد أو تصنّع، "لو لم أكن قد تعاقدتُ معه على أن أكون تحت تصرفه دون أدنى تحفظ، لكان مثال هؤلاء الرفيقات اللطيفات كافيًا ليُحدد مصيري، ولم أكن أشعر بأي ألم سوى شعوري بالنقص أمام جمالهنّ الفائق". ولاحظوا أنني كنتُ أفكر وأنا أتحدث. أعجبتهم صراحتي جميعًا؛ فقد أثنوا على اختياره لي، بل وأبدوا حسدهم لي علنًا، في نوع من الإطراء غير المباشر.

لم يكن بإمكان السيدة كول، بالمناسبة، أن تُظهر لي تقديرها أكثر من تدبيرها لاختيار هذا الشاب ليكون مدير مراسم زفافي: فبغض النظر عن أصله النبيل وثروته الطائلة التي ورثها، كان مظهره جذابًا بشكل غير عادي، حسن القوام وطويل القامة؛ ووجهه يحمل آثار الجدري، ولكن ليس أكثر مما أضاف مزيدًا من الرجولة إلى ملامحه التي تميل إلى النعومة والرقة، وقد أضفت عيناه السوداوان الصافيتان المتألقتان حيوية رائعة عليه؛ باختصار، كان شخصًا يمكن لأي امرأة أن تصفه، بأسلوبها المألوف، بأنه شاب وسيم للغاية.

ثم اصطحبني إلى حلبة مباراتنا، حيث كنت أرتدي ثوبًا أبيضًا فقط، فتفضل بلعب دور أبيجيل الذكر هذه المرة، ووفر عليّ عناء خلع ملابسي بنفسي. فُكّ ثوبي بسرعة، وخلعته. ثم شكل مشدي عائقًا سرعان ما انكسر، فأحضرت لويزا مقصًا لقص الدانتيل. خلعتُ ذلك المشد، وأسقطت معطفي، ولم يبقَ عليّ سوى ملابسي الداخلية وقميصي، الذي كشف صدري عن كل ما يمكن أن ترغب به الأيدي والعيون. ظننتُ أن التعري سيتوقف هنا، لكنني أظن أنه لم ينتهِ بعد. توسلت إليّ، بناءً على رغبة البقية، ألا أدع بقايا الغطاء الصغيرة تحجب عنهم رؤية جسدي بالكامل. أما أنا، التي كنت مطيعة للغاية لدرجة أنني لم أجادلهم في أي نقطة، والتي اعتبرت القليل المتبقي غير ذي أهمية، فقد وافقت بسهولة على كل ما يشاء - في لحظة، تم فك رباط تنورتي الداخلية ووضعها عند قدمي، وسُحب قميصي فوق رأسي، بحيث سقطت قبعتي، التي كانت مثبتة قليلاً، معها، وأنزل شعري كله (والذي، لنتذكر مرة أخرى دون غرور، كان رأسي جميلاً للغاية) في حلقات فضفاضة غير منظمة، على رقبتي وكتفي، دون أي تباين غير مرغوب فيه مع بشرتي.

وقفتُ الآن أمام قضاتي بكلّ ما فيّ من حقيقة، ولم يكن بوسعي أن أبدو أمامهم بمظهرٍ غير لائق، إن تذكرتم ما قلته سابقًا عن حالتي، التي كان الزمن، الذي يسلبنا في مراحل معينة من العمر كلّ لحظة من جمالنا، قد ازداد جمالًا وتألقًا في سني آنذاك، إذ كنتُ في الثامنة عشرة من عمري. أما ثدياي، اللذان يُعتبران دائمًا نقطة جذب في حالة العُري، فقد أصبحا الآن في غاية الامتلاء والرشاقة، محافظين على ثباتهما واستقلاليتهما عن أيّ دعامة أو سند، ما كان يدعو إلى لمسهما. حينها كنتُ طويلة القامة، ونحيلة الجسم قدر الإمكان، مع امتلاء جسدي الممتلئ، الذي كان دائمًا ممتنًا لحاستي البصر واللمس، بفضل صحتي وشبابي. مع ذلك، لم أتخلَّ تمامًا عن كلّ خجلٍ فطري، حتى لا أشعر بالحرج الشديد من حالتي التي رأيتُ نفسي عليها. لكنّ جميع الحاضرين من حولي، رجالاً ونساءً، غمروني بكل مظاهر التصفيق والرضا، بل وحتى الاهتمام المتملق لرفع معنوياتي وإلهامي بمشاعر الفخر بالهيئة التي صنعتها، والتي احتج صديقي بشجاعة على أنها تفوقت بشكل لا حصر له على جميع زينة عيد الميلاد الأخرى مهما كانت؛ لذلك لو سُمح لي بتدوين جميع المجاملات التي غمرني بها هؤلاء الخبراء في هذه المناسبة، لربما شعرت بالفخر لأني نجحت في امتحاني بموافقة العلماء.

أما صديقي، الذي كان وحده تحت تصرفي في ذلك الوقت، فقد استجاب لفضولهم، وربما فضوله هو أيضاً، لدرجة أنه وضعني في جميع الأوضاع والإضاءات التي يمكن تخيلها، مشيراً إلى كل جمال تحت كل جانب منه، ليس بدون أقواس من القبلات، ومثل هذه الحريات المثيرة لأيديه

المتجولة، مما جعل كل خجل يتلاشى أمامهم، وتحول التوهج الخجول إلى توهج أكثر دفئاً من الرغبة، مما دفعني حتى إلى إيجاد بعض المتعة في المشهد الحالي.

لكن في هذا المسح العام، يمكنك أن تتأكد، أن أكثر جزء مادي في جسدي لم يُعفى من أشد التدقيق؛ ولم يكن هناك أي اتفاق على أنه لم يكن لدي أدنى سبب للخجل من الظهور حتى كخادمة في بعض الأحيان؛ عيب ضئيل للغاية خلقته مغامراتي السابقة هناك، وسرعان ما تم إصلاح عيب التمدد الزائد واختفى في أي عمر، وفي بنيتي الصغيرة بطبيعتها في ذلك الجزء.

لا أدري إن كان شريكي قد استنفد كل وسائل إرضاء اللمس أو البصر، أو أنه كان قد استنفد طاقته تمامًا للهجوم؛ لكن خلعه لملابسه بسرعة، والحرارة الهائلة المنبعثة من الغرفة المغلقة، والنار الكبيرة، والشموع الكثيرة، بل وحتى حرارة هذه المشاهد الملتهبة، دفعته إلى خلع قميصه أيضًا، فكشف سرواله، الذي كان قد رُخي من قبل، عن محتوياته، وأظهر أمامي العدو الذي كان عليّ مواجهته، رافعًا رأسه بصلابة، مكشوفًا، ومتوهجًا باللون الأحمر. حينها رأيت بوضوح ما عليّ الاعتماد عليه: لقد كان أحد تلك الأسلحة ذات الحجم المناسب تمامًا، والتي يتقنها الماهرون أكثر من تلك الضخمة غير العملية التي عادةً ما تكون تحت سيطرة من هم أضخمها حجمًا. شدّني إليه بقوة، وهو منتصبٌ أمامي، ووضع عضوه في تلك المنطقة الحساسة، محاولًا إدخاله. وبما أنني كنتُ أفضّل ذلك، فقد استجاب على الفور، رافعًا فخذيّ فوق وركيه العاريين، وجعلني أستقبل كل بوصة منه، وأُحكم قبضتي عليه. تعلقتُ برقبته، وخبأت وجهي بين شعره، وقد احمرّ وجهي بشدة من شدة الإحساس بالمتعة والخجل في آنٍ واحد، وصدري ملتصقٌ به. حملني مرةً حول الأريكة، ثم وضعني عليها دون أن يُغيّر وضعي، وبدأ بمداعبتي. ولكن، على الرغم من استعدادنا المُثير، وتهيئتنا التامة، بسبب مشاهد الليل المُثيرة، فقد كانت مخيلتنا مُشتعلة لدرجة أنها لم تستطع مقاومة رغبتنا الجامحة. وبناءً على ذلك، ما إن شعرتُ برذاذ الدفء يندفع إلى داخلي منه، حتى كنتُ في حالة تدفق تام، لأشاركه النشوة اللحظية؛ ولكن كان لديّ سبب أكبر لأتباهى بتناغمنا: فقد وجدتُ أن كل لهيب الرغبة لم ينطفئ بداخلي بعد، بل على العكس، مثل الجمر المبلل، كنتُ أتوهج بشدة أكبر بسبب هذا الرش، شرارتي المتوهجة، متعاطفة معي، ومستعدة لنار مضاعفة، أعادت إشعال البطارية الحلوة بقوة لا تنطفئ؛ تشجعتُ بشدة على تكييف كل حركاتي لصالحه وإسعاده على أفضل وجه؛ القبلات، والضغطات، والهمسات الرقيقة، كلها دخلت حيز التنفيذ، حتى أصبحت أفراحنا أكثر اضطرابًا وجنونًا، ألقت بنا في فوضى عاطفية، وبينما كانت تشتعل إلى حد ما، حملتنا بعيدًا عن أنفسنا إلى محيط من الملذات التي لا حدود لها، والتي انغمسنا فيها معًا في نشوة من المذاق. الآن، كلّ تلك المشاعر الجامحة من الرغبة، التي رافقتني في تلك المشاهد الصاخبة، ضاعفت من حرارة هذا التمرين، وبلغت ذروتها، فأصابتني بضيقٍ لا يُطاق: لقد بلغت مني الحمى والجنون حدًّا لا يُطاق. لم أتمكن حينها من التمتع بهدوء العقل الكافي للإدراك، بل شعرتُ بنشوةٍ عارمة، في الواقع، بقوة تلك المحفزات النادرة والرائعة، كما أثبتت أمثلة الليلة الماضية في تعزيز ملذاتنا: وهو ما وجدته، بفرحٍ عظيم، يُشاركني فيه حبيبي، من خلال تعبيراته العصبية والعفوية عنه.عيناه تلمعان بلهيب بليغ، وحركاته تغلي بلسعة ذلك اللهيب، كل ذلك يتآمر لزيادة سعادتي، مؤكدًا لي سعادته. حينها، ارتقيت إلى أقصى درجات البهجة التي يمكن أن تتحملها الحياة، غير مفسدة بالإفراط، لمست تلك النقطة الحساسة، التي كادت أن تمنعني منها حقنة شريكي، فذبت، وانطلقت في زفرة عميقة، وأرسلت روحي الحساسة إلى ذلك الممر حيث مُنعت من الفرار، بسبب انسداده واختناقه اللذيذ. وهكذا استلقينا لبضع لحظات من النعيم، غارقين في السكون والخمول؛ حتى، مع ركود الشعور بالمتعة، استعدنا وعينا من غيبوبتنا، وانزلق مني، ولكن ليس قبل أن يُظهر رضاه التام بأرق قبلة وعناق، وكذلك بأصدق التعابير.

بعد انتهاء كل شيء، وقفت المجموعة حولنا في صمت مطبق، ثم ساعدتني على ارتداء ملابسي بسرعة، وأثنوا عليّ على التبجيل الصادق الذي لم يفتهم ملاحظته - كما وصفوه - لسيادة جمالي، إذ تلقيت جزية مضاعفة في لحظة واحدة. أما شريكتي، التي ارتدت ملابسها مجدداً، فقد أظهرت، قبل كل شيء، مودة لم تتأثر بمتعة اللحظة الأخيرة؛ وقامت الفتيات أيضاً بتقبيلي واحتضاني، مؤكدات لي

أنه في تلك اللحظة، أو في أي وقت آخر ما لم أرد، لن أخضع لمزيد من الاختبارات العلنية، وأنني الآن قد انضممت إليهن بشكل كامل، وأصبحت واحدة منهن.

بما أن القانون الذي لا يُنتهك على كل فارس أن يلتزم بشريكته، خاصةً في الليل، وحتى يتنازل عن ملكيته للمجتمع، حفاظًا على ملكية جميلة، وتجنبًا للاشمئزاز وعدم اللياقة في ترتيب آخر، فقد انفضّت المجموعة، بعد استراحة قصيرة من البسكويت والنبيذ والشاي والشوكولاتة، التي قُدّمت حوالي الساعة الواحدة صباحًا، وانصرف كلٌّ في أزواج. كانت السيدة كول قد أعدّت لي ولشريكي فراشًا مؤقتًا، فخلدنا إليه، وهناك قضينا الليل في متعة متواصلة، مفعمة بالحيوية والبهجة، لدرجة أننا لم نتمنى أبدًا أن تنتهي. في الصباح، وبعد تناول فطور مُنعش في الفراش، نهض، وبحنان بالغ، عبّر عن اهتمامه الخاص بي، وتركني أستمتع بنوم هانئ ومريح. بعد أن استيقظت من نومي، ونهضت لأرتدي ملابسي قبل دخول السيدة كول، وجدت في أحد جيوبي محفظة من الجنيهات، كان قد دسّها هناك. وبينما كنت أتأمل في كرم لم أتوقعه، دخلت السيدة كول، فأخبرتها على الفور بالهدية، وعرضت عليها بالطبع ما تشاء منها. لكنها أكدت لي أن الرجل قد كافأها بسخاء، ورفضت قبول أي جزء منها مهما حاولت، مهما كانت الشروط أو التوسلات أو الحجج. وأوضحت أن رفضها لم يكن مجرد تظاهر بالخجل، ثم شرعت في إلقاء دروس قيّمة عليّ في الاقتصاد في إنفاقي، وهو ما استفدت منه كثيراً لالتزامي واهتمامي خلال فترة إقامتي في المدينة. وبعد ذلك، غيرت مسار الحديث، وانتقلت إلى الحديث عن ملذات الليلة السابقة، حيث علمت، دون مفاجأة كبيرة، عندما بدأت في التعرف على شخصيتها، أنها رأت كل ما حدث، من مكان مناسب تم إعداده خصيصًا لهذا الغرض، وجعلتني بسهولة كاتمة أسرارها.

لم تكد تُنهي كلامها حتى اقتحمت مجموعة الفتيات الصغيرات، رفيقاتي، المكان، وجددن إطراءاتهن ومداعباتهن. لاحظتُ بسرور أن تعب الليل وجهده لم يؤثر قيد أنملة على نضارة بشرتهن أو جمالهن، وقد علمتُ من اعترافهن أن ذلك يعود إلى إدارة ونصائح مديرتنا المتميزة. ثم نزلن إلى المتجر كالمعتاد ليُجرين بعض التعديلات، بينما توجهتُ إلى مسكني، حيث انشغلتُ حتى عدتُ لتناول العشاء في منزل السيدة كول.

بقيتُ هنا في تسلية دائمة، بصحبة إحدى هؤلاء الفتيات الساحرات، حتى حوالي الخامسة مساءً؛ وعندما داهمني النعاس فجأة، أقنعوني بالصعود إلى سرير هارييت لأغفو، فتركتني عليه لأرتاح. استلقيتُ هناك بملابسي، وغفوتُ نومًا عميقًا، وكنتُ قد استمتعتُ، على ما أظن، بساعة من الراحة، عندما أيقظني حبيبي الجديد المفضل، الذي سأل عني، فأرشدني بسهولة إلى مكاني. دخل غرفتي، ورآني مستلقية وحدي، ووجهي مُدار عن الضوء نحو داخل السرير، فخلع سرواله دون تردد، ليسهل عليه الاستمتاع بلمسة جسدي العارية؛ ثم رفع تنورتي الداخلية وقميصي برفق، فكشف عن الممر الخلفي المؤدي إلى مكان المتعة؛ حيث كنتُ مستلقية على جانبي، ووجهي مُنخفض قليلًا، بدوتُ في غاية الجمال، وجاهزة للجماع. استلقى برفق بجانبي، وأحاطني من الخلف، وجعلني أشعر بدفء جسده، وهو يضم فخذيه وبطنه إليّ، ومحاولات تلك الآلة، التي تحمل لمستها شيئًا فريدًا ورائعًا، لتشق طريقها جيدًا داخلي. استيقظت مذعورة في البداية، عندما رأيت من كان، وهيأت نفسي للالتفات إليه، عندما قبلني، وطلب مني أن أبقى على وضعي، فرفع فخذي العلوي، وبعد أن تأكد من الفتحة المناسبة، دفعه لأعلى إلى أقصى حد: راضيًا بذلك، ومستمتعًا بالاستلقاء قريبًا جدًا في تلك الأجزاء، أوقف الحركة، وغارقًا في اللذة، أبقاني مستلقية على جانبي، داخله، على طريقة الملعقة، كما وصفها، من التجويف المريح للجزء الخلفي من فخذي، وكل شيء لأعلى، إلى مساحة الانحناء بين فخذيه وبطنه؛ حتى، بعد فترة من الزمن، حثه ذلك النزيل المضطرب والمتذمر، الذي نفد صبره بطبيعته من الهدوء الطويل، على القيام بفعل ما، والذي استمر الآن بكل ما هو معتاد من مداعبة وتقبيل وما شابه، وانتهى في النهاية بإثبات سائل من كلا الجانبين، أننا لم نستنفد، أو على الأقل تم تجنيدنا بسرعة من جرعات المتعة التي تناولناها الليلة الماضية فينا.

عشتُ مع هذا الشاب النبيل واللطيف في سعادةٍ وراحةٍ تامتين. كان مصمماً على الاحتفاظ بي لنفسه، على الأقل خلال شهر العسل؛ لكن إقامته في لندن لم تدم طويلاً، إذ اصطحبه والده، الذي كان يشغل منصباً في أيرلندا، معه فجأةً عند سفره إلى هناك. ومع ذلك، كنتُ قريبةً من الحفاظ على

عاطفته وشخصه، كما كان قد وعدني، ووافقتُ على اللحاق به للذهاب إلى أيرلندا حالما يستقر هناك؛ لكنه وجد شريكاً مناسباً ومناسباً في تلك المملكة، فاختار الخيار الأنسب، وتراجع عن طلبي، ولكنه في الوقت نفسه حرص على أن أتلقى هديةً رائعةً للغاية، لم تُعوّضني مع ذلك عن حزني العميق على فقدانه.

وقد أدى هذا الحدث أيضاً إلى خلق فجوة في مجتمعنا الصغير، والتي لم تكن السيدة كول، انطلاقاً من حذرها المعتاد، في عجلة من أمرها لملئها؛ ولكن بعد ذلك ضاعفت اهتمامها بالحصول لي، من خلال مزايا تجارة عذرية مزيفة، على بعض العزاء لنوع الترمل الذي تُركت فيه؛ وكان هذا مخططاً لم تفقد أمله أبداً، ولم تنتظر سوى الشخص المناسب لتنفيذه.

لكن يبدو أنني كنت مقدراً لي أن أكون متعهد الطعام بنفسي في هذا الأمر، كما كنت في تجربتي الأولى في السوق.

لقد أمضيتُ قرابة شهرٍ أستمتع بكلّ ملذات الألفة والتواصل مع رفاقي، الذين كان مُفضّلوهم (باستثناء البارونيت الذي اصطحب هارييت إلى المنزل بعد ذلك بوقتٍ قصير) يطلبون مني، وفقًا لقواعد المجتمع السائدة في المنزل، إشباع رغبتهم في التنوع في أحضاني؛ لكنني كنتُ، بأقصى درجات الدهاء واللباقة، أتجنّب ملاحقتهم بحججٍ مختلفة، دون أن أمنحهم سببًا للشكوى؛ ولم يكن هذا التحفظ نابعًا من كراهيةٍ لهم، ولا من اشمئزازٍ من الأمر، بل كان السبب الحقيقي هو تعلّقي بأحبائي، وحرصي على عدم المساس باختيارات رفاقي، الذين كانوا، ظاهريًا، بمنأى عن الغيرة، لا يسعهم إلا أن يُحبّوني سرًا أكثر بسبب تقديري لهم، دون أن أعتبر ذلك فضلًا لهم. وهكذا، أصبحتُ محبوبًا من جميع أفراد العائلة. في أحد الأيام، حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، توجهت إلى متجر فواكه في كوفنت جاردن لأختار بعض الفاكهة لي وللشابات، وهناك واجهت المغامرة التالية.

بينما كنتُ أساوم على الفاكهة التي أردتها، لاحظتُ شابًا يتبعني، لفت انتباهي أولًا لباسه الفاخر؛ أما باقي مظهره، فلم يكن فيه ما يلفت النظر، سوى أنه كان شاحبًا ونحيل البنية، ويمشي على ساقين نحيلتين للغاية. كان من السهل أن أُدرك، دون أن أبدو كذلك، أنه كان يُريدني أنا؛ وظلّ يُحدّق بي حتى وصل إلى السلة نفسها التي كنتُ أقف عندها، وبدأ يُساومني، أو بالأحرى يُعطيني أول سعر يُطلب منه مقابل الفاكهة، ثم بدأ يتقرّب مني. لم أكن أبدًا خارجة عن المألوف لأعتبر فتاة محتشمة. لم تكن لديّ ريش ولا دخان فتيات المدينة المتأنقات: قبعة من القش، وفستان أبيض، وبياضات نظيفة، وفوق كل ذلك، هالة طبيعية من الحياء (لم تتخلّ عني أبدًا، حتى في تلك المناسبات التي كنتُ أُبالغ فيها في الواقع) كانت جميعها علامات لم تُعطه أي فرصة للتكهّن بحالتي. تحدّث إليّ؛ وهذا الخطاب من غريبٍ جعل وجنتيّ تحمرّان خجلاً، مما زاد من ابتعاده عن الحقيقة، فأجبته بحرجٍ وارتباكٍ بدا وكأنهما مزيجٌ من الصدق. ولكن عندما شرعنا في الحديث، بعد أن كسرنا حاجز الصمت، انطلق في أسئلةٍ أخرى موجهة. لقد وضعتُ في إجاباتي الكثير من البراءة والبساطة، بل وحتى السذاجة، لدرجة أنه لو كان معجبًا بي كما كان معجبًا بي، لما دافع عني، لكان قد أقسم على حيائي. باختصار، هناك في الرجال، متى ما وقعوا في شباكهم، وخاصةً من خلال النظرة الأولى، قدرٌ من السذاجة لا يدركه حكمتهم المزعومة، وبسببها يُرى أكثرهم دهاءً كضحايا لنا. من بين الأسئلة الأخرى التي طرحها عليّ، كان أحدها: هل أنا متزوجة؟ فأجبته أنني ما زلت صغيرةً جدًا على التفكير في هذا الأمر منذ سنواتٍ عديدة. أجبته بأنني في مثل سنه، وأضعت على عاتقه عامًا كاملًا، متظاهرةً بأنني لا أتجاوز السابعة عشرة. أما عن حياتي، فأخبرته أنني تدربت لدى صانعة قبعات في بريستون، وأنني جئت إلى المدينة بعد قريب لي، اكتشفت عند وصولي أنه قد توفي، وأنه يعمل الآن كمساعدة لصانعة قبعات في المدينة. في الحقيقة، لم يكن هذا الأخير يمثل الكثير مما كنت أدّعي أنني عليه؛ ولكنه مرّ مرور الكرام، بفضل العاطفة المتنامية التي أثرتها فيه. بعد أن استخرج مني، ببراعة كما ظن، ما لم أكن أنوي الاحتفاظ به، اسم سيدتي ومكان إقامتي، حمّلني بالفاكهة، كل ما استطاع من أندر وأثمن ما استطاع انتقاؤه، وأرسلني إلى المنزل، وأنا أفكر في عواقب هذه المغامرة.

بمجرد وصولي إلى منزل السيدة كول، أخبرتها بكل ما حدث، فاستنتجت بحكمة بالغة أنه إذا لم يلحق بي فلا ضرر في ذلك، وإذا فعل، كما أشارت إليها توقعاتها، فيجب فحص شخصيته وآرائه

جيدًا، لمعرفة ما إذا كانت اللعبة تستحق كل هذا العناء؛ وأنه في هذه الأثناء لم يكن هناك شيء أسهل من دوري فيها، حيث لم يكن عليّ سوى اتباع توجيهاتها وإرشاداتها طوال الوقت، حتى الفصل الأخير.

في صباح اليوم التالي، وبعد أمسية قضاها إلى جانبه، كما علمنا لاحقًا، في استجواب السيدة كول حول شخصيتها في الحي (وهو ما كان في صالحها تمامًا)، جاء رجلي بعربته إلى المتجر، حيث كانت السيدة كول وحدها على علم بمهمته. فسأل عنها، وبدأ بالتعارف بسهولة بالحديث عن بعض أدوات الخياطة؛ وبينما كنت أجلس دون أن أرفع عيني، وأتابع طرف كشكشة بأقصى درجات الهدوء والانشغال، لاحظت السيدة كول أن الانطباعات الأولى التي تركتها لديه لم تكن معرضة للتشويه بسبب انطباعات لويزا وإيميلي، اللتين كانتا تجلسان بجانبي تعملان. بعد أن حاول عبثاً أن يلفت نظري إليه (كنت أخفض رأسي، متظاهراً بنوع من الشعور بالذنب لأنني، من خلال التحدث إليه، منحته التشجيع والوسائل لملاحقتي)، وبعد أن أعطيت السيدة كول توجيهات بشأن موعد إحضار الأشياء إلى المنزل بنفسها، والوقت الذي يتوقعه فيه، خرج، آخذاً معه بعض البضائع التي دفع ثمنها بسخاء، من أجل كرم تقديمه.

لم تكشف الفتيات طوال هذا الوقت عن سر هذا الزبون الجديد على الإطلاق؛ لكن السيدة كول، بمجرد أن أصبحنا بمفردنا، أكدت لي، بفضل خبرتها الطويلة في هذه الأمور، "أن سحري لم يخب في هذه المرة؛ لأنها كانت متأكدة من أنه قد فاز به من خلال حماسه وأسلوبه ومظهره: النقطة الوحيدة التي كانت موضع شك الآن هي شخصيته وظروفه، والتي ستكتسب معرفتها بالمدينة قريبًا معرفة كافية بها، لتقييمها."

وفي غضون ساعات قليلة، خدمها ذكاؤها جيدًا، حتى علمت أن هذا الفتنة التي وقعت في شباكها لم تكن سوى السيد نوربرت، وهو رجل نبيل كان في الأصل ثريًا جدًا، ولكنه أهدر ثروته بشكل كبير بسبب انغماسه المفرط في ملذات المدينة، نظرًا لضعف بنيته الجسدية. وفي خضم ذلك، وبعد أن ملّ من جميع أشكال الفجور الشائعة، انغمس في مطاردة الفتيات. وفي هذه المطاردة، أفسد عددًا من الفتيات، ولم يدخر جهدًا لتحقيق غاياته، وكان يستغلهن بشكل جيد حتى يملّ، أو يهدأ باله من المتعة، أو يظهر وجهًا جديدًا، فيتمكن من التخلص من القديمات بسهولة أكبر، ويتركهن لمصيرهن، لأن مجال إنجازاته من هذا النوع كان يقتصر فقط على من يستطيع التعامل معهن عن طريق المساومة والبيع.

وخلصت السيدة كول إلى استنتاجها من هذه المقدمات، قائلة إن شخصية من هذا النوع كانت دائماً جائزة مشروعة؛ وأن الخطيئة ستكون عدم الاستفادة القصوى من سوقنا منه؛ وأنها تعتقد أن فتاة مثلي أفضل منه بكثير على أي حال، وبأي شروط.

ثم ذهبت، في الموعد المحدد، إلى مسكنه في أحد نُزُل المحكمة، المُؤثثة بذوق رفيع يُولي اهتمامًا خاصًا بكل وسائل الراحة والرفاهية. وهناك وجدته ينتظرها بفارغ الصبر؛ وبعد أن أنهت تمثيلها، وبعد حديث مطول عن مهنتها التي وصفتها بالسيئة للغاية، وعن صفات خدمها ومتدربيها وعاملاتها، انتقل الحديث في النهاية إليّ، حين قامت السيدة كول، مُتقنةً دور الثرثارة المُعتادة، التي تُفشي كل ما في جعبتها حين تتكلم، باختلاق قصة مُقنعة عني، مُضيفةً بين الحين والآخر لمسات فنية، وبكل بساطة، تُشيد بشخصي وطباعي، مُنهيةً بذلك أمره تمامًا لغرضها، بينما لا شيء يُمكن تزييفه بشكل أفضل من براءتها منه. لكن عندما استشاط غضباً وأصبح متوتراً، شرع في التلميح لي بمخططاته وآرائه، بعد أن أوصلها بصعوبة بالغة (وقد تجنبت ذلك قدر استطاعتها) إلى فهمه، دون أن تتظاهر بالفضيلة، بل لجأت إلى تلك المشاعر العنيفة والمريبة، فحافظت على هدوئها واتزانها، وتظاهرت بأنها امرأة بسيطة طيبة القلب، لا تعرف الأذى، وتكسب رزقها بشرف، وكانت شخصيتها سهلة ومرنة بما يكفي لتُسخّر لمهارته وبلاغته لخدمة أغراضه؛ ومع ذلك، فقد تمكنت بذكاء من عقد ثلاثة أو أربعة لقاءات قبل أن يحصل على أدنى أمل في مساعدتها؛ وبدون ذلك، كان قد أقنع نفسه، من خلال عدد من الرسائل والخطابات غير المجدية وغيرها من الاختبارات المباشرة لمزاجي، بأنه لا سبيل للوصول إليّ، الأمر الذي رفع من شأني وقيمتي لديه.

ومع ذلك، وبغض النظر عن عدم إطالة هذه الصعوبات إلى حد يسمح لها باكتشافات أو أحداث غير مواتية لخطتها، فقد تظاهرت في النهاية بأنها قد استسلمت بمجرد التوسلات والوعود، وقبل كل شيء، بالمبلغ المبهر الذي حرصت على إغرائه به، في حين أصبح من الفن الآن التظاهر، على الفور، بالاستسلام لإغراءات مصلحة كبيرة، كذريعة لاستسلامها على الإطلاق، وبطريقة قد تقنعه بأنها لم تغمس أصابعها الفاضلة في أمر من هذا القبيل.

وهكذا قادته عبر كل درجات الصعوبة والعقبات اللازمة لتعزيز قيمة الجائزة التي كان يطمح إليها؛ وفي النهاية، انبهر بجمالي الصغير الذي كنتُ عشيقته، وكان مصمماً بشدة على تحقيق غاياته مني، لدرجة أنه لم يترك لها مجالاً للتباهي ببراعتها في إيصاله إلى هدفها، فقد انغمس بثقة في كل ما من شأنه أن يجعله يقع في الفخ. لكن في جوانب أخرى، لم يكن السيد نوربرت يتمتع ببصيرة كافية، أو أنه لم يكن على دراية تامة بالمدينة، بل وحتى بالتجربة، بنوع الخداع الذي يُمارس عليه الآن: لكن شغفه كان صديقنا لدرجة أنه كان أعمى ومتسرعاً بسببه، لدرجة أنه كان سيعتبر أي خداع عملاً سيئاً للغاية يُرتكب لإرضائه. وهكذا وافقت السيدة كول، حتى على عجل، على النقطة التي أرادته أن يصل إليها، وأقنعته أخيرًا بالصفقة الرخيصة التي اعتبرها شراء جوهرتي المتخيلة صفقة رخيصة بالنسبة له، مقابل ما لا يزيد عن ثلاثمائة جنيه إسترليني لي، ومائة جنيه إسترليني للوسطاء: وهو تعويض ضئيل عن كل ما بذلته من جهد، وكل ما ضحت به من ضمير من أجله لأول مرة في حياتها؛ وكان من المقرر دفع هذه المبالغ فورًا عند تسليمي، باستثناء بعض الهدايا التي لم تكن قليلة والتي تم تقديمها أثناء المفاوضات: والتي تم خلالها تقديمي له من حين لآخر، ولكن بشكل نادر، في الأوقات والساعات المناسبة؛ ومن المثير للدهشة كم بدا من غير الضروري أن أجهد طبيعتي الطبيعية في الحياء أكثر، من أجل نقله إليه كفتاة صغيرة: كل نظراتي وإيماءاتي لا تنبض إلا بتلك البراءة التي يطلبها الرجال بشدة فينا، ليس إلا لغرض واحد هو التلذذ بتدميرها، والتي يقعون فيها بشكل مؤلم، بكل مهارتهم، في أخطاء.

بعد الاتفاق الكامل على بنود المعاهدة، وتأمين المدفوعات المتفق عليها، ولم يتبقَّ سوى تنفيذ البند الرئيسي، وهو تسليمي له شخصيًا ليتصرف بي كيفما يشاء، أدارت السيدة كول اعتراضاتها، لا سيما على سكنه، وتلميحاتها ببراعة، حتى أصبح مجرد فكرة ملحة منه أن تُستكمل نسخة من عقد الزواج في منزلها: "في البداية، لم تكن تهتم، هي، بوجود مثل هذه الأمور فيه... لن تسمح لأي من الخدم أو المتدربين بمعرفته مقابل ألف جنيه إسترليني... سيضيع اسمها الطيب إلى الأبد..."، مع أعذار مماثلة. ومع ذلك، وبسبب اعتراضاتها القوية على جميع الوسائل الأخرى، وبينما حرصت على عدم اللجوء إلا إلى تلك التي كانت أكثر عرضة لها، فقد اضطرت في النهاية إلى تلبية طلبه في هذا الشأن، وبذل المزيد من الجهد حيث بذلت الكثير بالفعل.

ثم حُدِّدَ الموعد، مع مراعاةٍ تامةٍ لشوقه الجامح، وفي غضون ذلك لم تُغفل السيدة كول أي تعليمات، ولم تُهمل أي تحضير، من شأنه أن يُمكّنني من الظهور بمظهرٍ لائقٍ عذريّ، باستثناء أنني، بحكم طبيعتي، كنتُ أتمتع بضيقٍ في ذلك الجزء الضروري لتحقيق غاياتي، فلم تكن لديّ حاجةٌ إلى استعارة تلك الوسائل الفنية التي تُخفي عذريتي مؤقتًا، والتي يُمكن اكتشافها بسهولةٍ عن طريق اختبار حمامٍ دافئ؛ أما بالنسبة للأعراض الدموية المعتادة لفض البكارة، والتي، إن لم تكن دائمًا، فهي عادةً ما تُصاحبها، فقد جعلتني السيدة كول سيدة اختراعٍ خاصٍ بها، والذي من المؤكد أنه سيُحدث أثره، وسنتحدث عنه لاحقًا.

بعد أن تم تجهيز كل شيء واستعداده لاستقبال السيد نوربرت، تم إدخاله في الساعة الحادية عشرة ليلاً، بكل ما يكتنف الصمت والسرية، من قبل السيدة كول نفسها، وأُدخل إلى غرفة نومها، حيث كنتُ مستلقية على سريرها القديم، عارية تمامًا، وألهث، إن لم يكن بمخاوف خادمة حقيقية، فعلى الأقل بمخاوف خادمة متظاهرة ربما تكون أكبر، مما منحني هالة من الارتباك والخجل التي كانت تتمتع بها حياء الفتاة، والتي بالكاد يمكن تمييزها عنه، حتى من قبل عيون أقل تحيزًا من عيون حبيبي: لذا دعوني أسميه كذلك، لأنني لطالما اعتقدت أن مصطلح "كولي" عار قاسٍ للغاية على الرجال، بسبب ضعفهم المستغل تجاهنا.

ما إن تركتنا السيدة كول، بعد ثرثرتها المعتادة في مثل هذه المناسبات مع الشابات اللواتي يُتركن لأول مرة لإرادة الرجل، وحدنا في غرفتها، التي كانت مضاءة جيدًا، بناءً على رغبته السابقة التي بدت وكأنها تنذر بتفتيش أدق مما فعل لاحقًا، حتى اندفع السيد نوربرت، وهو لا يزال يرتدي ملابسه، نحو السرير، حيث خبأت رأسي تحت الملابس، ودافعت عنها قليلًا قبل أن يتمكن من الوصول إلى شفتي ليقبلهما: حقًا، إن الفضيلة الزائفة، في مثل هذه الحالة، تُحدث هزيمة ومقاومة أكبر من الفضيلة الحقيقية. ومن هناك، انحدر إلى صدري، وقاومته بشدة حتى تعبت من مقاومتي، وظن أنه سيقدم لي عذرًا أفضل، فخلع ملابسه بسرعة، ودخل إلى السرير.

وفي الوقت نفسه، من خلال النظرة الخاطفة التي سرقتها منه، استطعت بسهولة أن أكتشف شخصًا بعيدًا كل البعد عن تقديم أي عروض جريئة كما تتطلب عادة اقتحام العذارى، وأن نسيجه الهزيل المصاب بالسل أعطاه مظهرًا أقرب إلى مريض تم إجباره على مثل هذه الخدمة الساخنة منه إلى متطوع.

في سن الثلاثين بالكاد، كان قد قلل بالفعل من قوة شهيته إلى اعتماد بائس على المحفزات القسرية، مدعومة بشكل ضئيل للغاية بالقوة الطبيعية لجسم منهك، ومستنزف إلى حد ما بسبب جرعات متكررة من المتعة، والتي قامت بعمل ستين شتاءً على ينابيع حياته: تاركة له في الوقت نفسه كل نار وحيوية الشباب في خياله، والتي عملت على الفور على تعذيبه ودفعه إلى الهاوية.

ما إن استقر في الفراش حتى خلع الغطاء، الذي سمحت له بسحبه مني، فأصبحت مكشوفة تمامًا كما يشاء، ليس فقط لهجماته، بل ولعبثه بالأغطية؛ حيث كان بإمكانه، من خلال حركات جسدي المختلفة ومحاولاتي للدفاع عن نفسي، أن يتأكد بسهولة من عدم وجود أي استعداد، مع أنه، ولإنصافه، بدا أقل صرامة مما كنت أتوقع من ممارس متمرس مثلي. ثم مزق ثوبي تمامًا، إذ وجد أنني أستخدمه كثيرًا لتغطية صدري، بالإضافة إلى منطقة حساسة أخرى: ومع ذلك، في كل شيء آخر، كان يتصرف بكل رقة وعناية تجاهي، بينما كان فن لعبي هو عدم إظهار أي شيء له، بل مثلت له كل الدقائق والمخاوف والرعب، التي من المفترض أن تشعر بها فتاة بريئة تمامًا، أمام أمر جديد تمامًا كهذا، رجل عارٍ في الفراش معها لأول مرة. بالكاد حصل على قبلة إلا بعد أن اغتصبها. أبعدتُ يده عشرين مرة عن صدري، حيث كان قد تأكد من صلابتهما وقوامهما، متظاهرًا بأنهما كنز لم يمسه من قبل. ولكن عندما نفد صبره عند النقطة الأساسية، انقضّ عليّ، وحاول أولًا فحصي بإصبعه، ثم حاول الابتعاد، فشكوتُ من معاملته بمرارة: "ظننتُ أنه لن يخدمني هكذا... لقد دُمرت... لم أكن أعرف ما فعلت... سأنهض، سأفعل..." وفي الوقت نفسه أبقى فخذيّ مشدودتين بإحكام، بحيث لم يكن من الممكن فتحهما بقوة مثله، أو حتى نفعًا. ولما وجد ميزتي، وأنه يتحكم بحركاتي وحركاته، كان خداعه سهلًا للغاية، كأنه لعبٌ على مخمل. وفي هذه الأثناء، ظلّ عضوه، الذي كان من تلك الأحجام التي تنزلق للداخل والخارج دون أن يلاحظها، يضغط بشدة على ذلك الجزء الذي منعه إغلاق فخذيّ من الوصول إليه. لكن بعد أن وجد في النهاية أنه لا يستطيع فعل أي شيء بمجرد القوة الجسدية، لجأ إلى التوسل والحجج: فأجبته فقط، بنبرة من الخجل والخوف، "أنني كنت أخشى أن يقتلني... يا إلهي!...، لن أقبل بهذه المعاملة... لم أُعامل هكذا طوال حياتي...، لقد تساءلت لماذا لم يخجل من نفسه، لذلك خجلت أنا..."، بمثل هذه المشاعر الطفولية السخيفة من النفور والشكوى التي رأيت أنها الأنسب للتعبير عن شخصية البراءة والخوف. ومع ذلك، تظاهرتُ بالاستسلام في النهاية لإصراره الشديد، قولاً وفعلاً، وكشفتُ فخذي بحذر، حتى يتمكن من لمس مدخل فرجي المشقوق بطرف أداته: ولكن بينما كان يتعب ويكافح للدخول، التفتُّ بجسدي، لأستقبله بشكل مائل، لم يمنعه من الدخول فحسب، بل أطلقتُ صرخة، كما لو أنه اخترق قلبي، ونفضته عني بعنف شديد لدرجة أنه لم يستطع، بكل قوته، تثبيت السرج: بدا منزعجًا حقًا من هذا،لكن ليس بأسلوب الاستياء مني بسبب خوفي؛ بل على العكس، أقسم أنه كان يعاملني بعطف أكبر، ويحتضن نفسه للصعوبات التي حتى أنها أضرت بمتعته الفورية. ومع ذلك، وقد بلغ به الغضب حداً لا يحتمل معه أي تأخير، عاد إلى ركبتيه، وتوسل إليّ أن أتحلى بالصبر، مداعباً إياي ومهدئاً إياها بأرق كلمات المودة والتأكيدات على ما سيفعله من أجلي؛ وعندها، تظاهرت باللين قليلاً، وخف غضبي الذي أظهرته من إيذائه لي بشدة، فسمحت له أن يضع فخذي جانباً، وأن يفسح المجال لتجربة جديدة؛ لكنني راقبت توجيهاته وإدارته

لنقطته جيدًا، لدرجة أنه ما إن فُتحت الفتحة له ولو قليلًا، حتى قمت بهزة في الوقت المناسب بدت وكأنها لا تنبع من التهرب من دخوله، بل من الألم الذي سببته لي جهوده في ذلك: وهو أمر لم أغفل مصاحبته بإيماءات وتنهدات وصيحات شكوى مناسبة، كان من بينها: "لقد آذاني... لقد قتلني... يجب أن أموت..."، وكانت هذه أكثر التعليقات تكرارًا. لكن الآن، وبعد محاولات متكررة لم يُحرز فيها أدنى تقدم نحو غايته، على الأقل في ذلك الوقت، غمرته اللذة بسرعةٍ فائقة، فلم يستطع كبحها أو تأخيرها، وفي غمرة الحماس والغضب اللذين أثارهما اقترابه من ذروة المتعة، وجّه طعنةً عنيفة كادت تُطيح بي، وأدخلها بعمقٍ شعرتُ فيه بحرارةٍ تخترق فتحة جسدي الخارجية، ولم أسمح له بالتوقف هناك، بل دفعته للخارج مرةً أخرى، مصحوبةً بصيحةٍ مدويةٍ حادة، وكأن الألم قد جعلني بمنأى عن أي اكتراثٍ بأن يسمعني أحد. حينها كان من السهل ملاحظة أنه كان أكثر رضا، وأكثر سعادةً بالدوافع المفترضة وراء تردده في إتمام الأمر، مما كان سيشعر به لو أتمّه بالكامل. في تلك اللحظة بالذات، أدركتُ كل الزيف الذي استخدمته لأمنحه تلك المتعة الغامرة، والتي ما كان ليتذوقها في الحقيقة. وبعد أن هدأت أعصابي، وانفرجت كربته، انكبّ على تهدئتي وتشجيعي، ومنحني الصبر لأتحمل محاولته التالية، التي بدأ يُحضّر لها ويجمع قواه من كل ما يخطر بباله من إغراءات اللمس والنظر، مُتفحصًا كل جزء من جسدي، مُعلنًا رضاه عنه بفيض من التصفيق، مُغدقًا عليّ القبلات، مُنهمكًا في كل جزء من جسدي، مُتسمًا بشغفٍ جامحٍ من اللمس والنظر والمداعبة. لكن قوته لم تعد سريعًا، وشعرتُ به أكثر من مرة يدفع الباب، لكنه لم يكن قادرًا على اقتحامه، حتى أنني أتساءل إن كان يملك القدرة على الدخول لو أبقيتُ الباب مفتوحًا. لكنه ظن حينها أنني قليل المعرفة بطبيعة الأمور، بحيث لا أشعر بأي ندم أو حيرة حيال ذلك، واستمر في إرهاق نفسه وإياي لفترة طويلة.قبل أن يكون في حالة تسمح له باستئناف هجماته بأي أمل في النجاح، تنفست فيه بحرارة شديدة، وأبقيته بعيدًا، حتى أنه قبل أن يحرز أي تقدم ملحوظ في الإيلاج، كان قد تعرق بغزارة، وأنهكه التعب حقًا: حتى أنه لم يتمكن من إطلاق سراحي للمرة الثانية إلا في وقت متأخر من الصباح، في منتصف الطريق تقريبًا، بينما كنت أبكي وأشكو من قوته الهائلة، ومن شدة الألم الذي عانيته أثناء التمزق. ولكن بعد أن أنهكه هذا الجهد المضني، بدأ بطلي يستسلم، ويستمتع بالراحة. ثم قبلني بحنان بالغ، ودعاني إلى النوم، وسرعان ما غط في نوم عميق، وبمجرد أن تأكدت من ذلك، قمت بهدوء تام، حتى لا أوقظه بأي حركة، وبكل سهولة وأمان، بتطبيق حيلة السيدة كول لإتمام علامات عذريتي. في كل عمود من أعمدة السرير العلوية، فوق موضع تثبيت السرير مباشرةً، كان هناك درج صغير، مُدمج ببراعة مع زخارف الخشب، بحيث كان من الممكن أن يفلت من أعين أكثر الباحثين دقة: هذه الأدراج تُفتح وتُغلق بسهولة بضغطة زنبرك، ومُزودة بكأس زجاجي ضحل، مملوء بسائل دموي مُجهز، بداخله إسفنجة مُشبعة وجاهزة للاستخدام، لا تتطلب سوى مدّ اليد إليها برفق، وإخراجها، والضغط عليها جيدًا بين الفخذين، فتُخرج كمية كبيرة من السائل الأحمر تكفي لتطهير شرف فتاة؛ وبعد ذلك، بإعادتها إلى مكانها، وضغط الزنبرك، يزول أي احتمال للاكتشاف، أو حتى الشك؛ ولم يكن هذا العمل يستغرق ربع دقيقة، ومن أي جانب كان المرء، كان الأمر سهلاً وعمليًا بنفس القدر، بفضل العناية المزدوجة التي بُذلت لتزويد كل عمود من أعمدة السرير بنفس الطريقة. صحيح أنه لو أيقظني وأمسك بي متلبساً بالجرم، لكان ذلك على الأقل قد غطى عليّ بالعار والارتباك؛ ولكن عدم قيامه بذلك، مع الاحتياطات التي اتخذتها، كان بمثابة مخاطرة بنسبة ألف إلى واحد لصالحي.جهاز كول لإتقان علامات عذريتي. في كل عمود من أعمدة السرير العلوية، فوق موضع تثبيت السرير مباشرةً، كان هناك درج صغير، مُدمج ببراعة مع زخارف الخشب، بحيث كان من الممكن أن يفلت من أعين أكثر الباحثين دقةً: هذه الأدراج تُفتح وتُغلق بسهولة بضغطة زنبرك، ومُزودة بكأس زجاجي ضحل، مملوء بسائل دموي مُجهز، بداخله إسفنجة مُشبعة وجاهزة للاستخدام، لا تتطلب سوى مدّ اليد إليها برفق، وإخراجها، والضغط عليها جيدًا بين الفخذين، فتُخرج كمية كبيرة من السائل الأحمر تكفي لإخفاء شرف فتاة؛ بعد ذلك، بإعادتها إلى مكانها، وضغط الزنبرك، يزول أي احتمال للاكتشاف، أو حتى الشك؛ ولم يكن هذا العمل يستغرق ربع دقيقة، ومن أي جانب كان المرء، كان الأمر سهلًا وعمليًا بنفس القدر، بفضل العناية المزدوجة التي بُذلت لتزويد كل عمود من أعمدة السرير بنفس الطريقة. صحيح أنه لو أيقظني وأمسك بي متلبساً بالجرم، لكان

ذلك على الأقل قد غطى عليّ بالعار والارتباك؛ ولكن عدم قيامه بذلك، مع الاحتياطات التي اتخذتها، كان بمثابة مخاطرة بنسبة ألف إلى واحد لصالحي.جهاز كول لإتقان علامات عذريتي. في كل عمود من أعمدة السرير العلوية، فوق موضع تثبيت السرير مباشرةً، كان هناك درج صغير، مُدمج ببراعة مع زخارف الخشب، بحيث كان من الممكن أن يفلت من أعين أكثر الباحثين دقةً: هذه الأدراج تُفتح وتُغلق بسهولة بضغطة زنبرك، ومُزودة بكأس زجاجي ضحل، مملوء بسائل دموي مُجهز، بداخله إسفنجة مُشبعة وجاهزة للاستخدام، لا تتطلب سوى مدّ اليد إليها برفق، وإخراجها، والضغط عليها جيدًا بين الفخذين، فتُخرج كمية كبيرة من السائل الأحمر تكفي لإخفاء شرف فتاة؛ بعد ذلك، بإعادتها إلى مكانها، وضغط الزنبرك، يزول أي احتمال للاكتشاف، أو حتى الشك؛ ولم يكن هذا العمل يستغرق ربع دقيقة، ومن أي جانب كان المرء، كان الأمر سهلًا وعمليًا بنفس القدر، بفضل العناية المزدوجة التي بُذلت لتزويد كل عمود من أعمدة السرير بنفس الطريقة. صحيح أنه لو أيقظني وأمسك بي متلبساً بالجرم، لكان ذلك على الأقل قد غطى عليّ بالعار والارتباك؛ ولكن عدم قيامه بذلك، مع الاحتياطات التي اتخذتها، كان بمثابة مخاطرة بنسبة ألف إلى واحد لصالحي.

بعد أن اطمأننتُ، ودون أي خوف من أي شك أو ريبة من جانبه، شرعتُ بجدية في النوم، لكنني لم أنل قسطًا وافرًا منه. وبعد نحو نصف ساعة، استيقظ الرجل مجددًا، والتفتُ نحوه، فتظاهرتُ بالنوم العميق، وهو ما لم يُعرْه اهتمامًا يُذكر. لكنه استجمع شجاعته ليعاود فعلته، فبدأ يُقبّلني ويُداعبني، وعندما تظاهرتُ بأنني استيقظتُ للتو، اشتكيتُ من الإزعاج والألم الشديد الذي سلبته مني هذه الراحة القصيرة. ومع ذلك، كان متلهفًا للمتعة، فضلًا عن رغبته في تحقيق انتصاره الكامل على عذريتي، فقال كل ما من شأنه أن يُذلّ مقاومتي ويُغريني بالصبر حتى النهاية، وهو ما كنتُ مستعدة لسماعه الآن، بعد أن تأكدتُ من الأدلة الدامغة التي أعددتها على عنفه المنتصر، مع أنني كنتُ ما زلتُ أرى أنه من الحكمة ألا أدعه يدخل بعد قليل. لم أجبْ حينها على إلحاحه إلا بالتنهدات والأنين: "لقد تألمتُ بشدة، لم أستطع تحمّل ذلك... كنتُ متأكدةً من أنه قد آذاني؛ لقد فعل... لقد كان رجلاً سيئاً للغاية!" عندئذٍ، وهو يُنزل ثيابه، وينظر إلى ساحة المعركة في ضوء شمعةٍ تحتضر، رأى بوضوح فخذيّ وقميصي وملاءتي، جميعها ملطخة بما اعتبره على الفور إفرازات عذراء، ناتجة عن آخر اختراقٍ له: مقتنعاً، ومُنتشياً بذلك، لم يكن هناك ما يُضاهي فرحته وابتهاجه. كان الوهم كاملاً، لم يخطر بباله أي تصور آخر سوى أنه كان يعمل على لغمٍ لم يُفتح بعد؛ هذه الفكرة، بناءً على هذا الدليل القوي، ضاعفت على الفور حنانه تجاهي، وشغفه بتدميره تماماً. ثم قبّلني بأقصى درجات النشوة، وواساني، وتوسّل إليّ أن أسامحه على الألم الذي سبّبه لي: مُشيراً في الوقت نفسه، إلى أنه كان مجرد شيءٍ يحدث؛ لكن الأسوأ قد مضى بالتأكيد، وأنه بقليل من الشجاعة والمثابرة، سأتجاوز الأمر تمامًا، ولن أختبر بعد ذلك أي شيء سوى أعظم متعة. شيئًا فشيئًا سمحت لنفسي أن أُقنع، وبإعطاء ما يصل إليه، جعلت فخذي، وأنا أباعد بينهما دون أن أشعر، أمنحه حرية الوصول، مما حسّن الوضع، ودخل قليلاً داخلي، وعندما استقبلته جيدًا، حركت المسمار الأنثوي بشكل جيد، بحيث منعته من الوصول إلى منتصف القناة بسهولة، وبحركات ملتوية ودقيقة، خلقت صعوبة مصطنعة في الدخول، وجعلته يفوز بها بوصة بوصة، مع صراعات شاقة للغاية، بينما كنت أشتكي بشدة طوال الوقت: حتى تمكن أخيرًا، بكل قوته، من الدخول بالكامل، ومنح عذريتي، كما اعتقد، ضربة النعمة، مما أعطاني الإشارة لإطلاق صرخة رهيبة، بينما هو، منتصرًا ومثل ديك يصفق بجناحيه فوق سيدته المظلومة، سعى وراء متعته: التي ارتفعت على الفور، بفضل فكرة النصر الكامل هذه، إلى درجة جعلتني أشعر بفترة ذوبانه؛ بينما كنتُ الآن أتظاهر بالجرح العميق،لاهثة، خائفة، منهارة، لم تعد خادمة.

قد تسألني، ربما، عما إذا كنت قد استمتعت طوال هذا الوقت بأي إحساس بالمتعة؟ أؤكد لك، قليلاً أو لا شيء، حتى قرب النهاية بقليل، ظهر إحساس خافت بها بشكل آلي، نتيجة صراع طويل وقلق متكرر في ذلك الجزء الحسي دائمًا؛ ولكن، في المقام الأول، لم يكن لدي أي رغبة في الشخص الذي كنت أتحمل عناقه، بدافع المنفعة البحتة؛ ثم، لم أكن مسرورة تمامًا بنفسي لدور اليشم الذي كنت ألعبه، مهما كانت الأعذار التي قد أقدمها لتبرير تورطي فيه؛ ولكن بعد ذلك، أبقاني هذا التبلد سيدًا لعقلي وحركاتي، مما مكنني من إدارة هذا التزييف المتقن بشكل أفضل، طوال مشهد الخداع بأكمله.

بعد أن استعدت عافيتي أخيراً، بفضل تعازيه الرقيقة وقبلاته وعناقه، وبخته ولومته على هلاكي، بعبارات طبيعية زادت من رضاه عن نفسه، لأنه أنجز ذلك؛ وتخميناً من خلال بعض ملاحظاتي، أنه سيكون من الأفضل له أن أتركه وشأنه، عندما يعود بعد فترة، ضعيفاً بما فيه الكفاية، للهجوم مرة أخرى، قاومت بحزم أي محاولات أخرى، بحجة تملقت له، وهي أنني كنت مصاباً بجروح بالغة ومؤلماً لدرجة أنني لا أستطيع تحمل تجربة جديدة. ثم منحني مهلة، وفي صباح اليوم التالي، وبعد وقت قصير من تقدمي، تخلصت من المزيد من الإلحاح، حتى اتصل بالسيدة كول، فدخلت وأبلغت، بأقصى درجات الفرح والنشوة، بيقينه المنتصر على فضيلتي، والضربة القاضية التي وجهها إليها خلال الليل: والتي أضاف أنها سترى دليلاً كافياً عليها بأحرف دموية على الملاءات.

قد تتخيل كيف تعاملت امرأةٌ بمثل أسلوبها وخبرتها مع المزحة، وتظاهرت بالودّ بمزيج من مشاعر الخجل والخطر والشفقة عليّ، وسعادتها لانتهاء كل شيء على خير ما يرام: وأعتقد أنها كانت صادقة في هذا الأخير. والآن، بعد أن تلاشت اعتراضاتها التي صوّرتها على أنها لا تُقهر، بشأن مبيتي في الليلة الأولى في مسكنه (الذي كان مُعدًّا بعناية لضمان خلوّه من أي مكائد)، بسبب مخاوفي ورعبي كعذراء من فكرة الذهاب إلى غرفة رجل نبيل، والبقاء معه بمفردنا في الفراش، تظاهرت بإقناعي، لصالحه، بأن أذهب إليه متى شاء، وأن أحافظ على كل مظاهر التعاون معها، حتى لا أفقد، بسمعتي، فرصة الزواج من رجل صالح، وفي الوقت نفسه يبقى منزلها في مأمن من الفضيحة. بدا كل هذا معقولاً للغاية، ومراعياً للغاية للسيد نوربرت، لدرجة أنه لم يدرك ولو لمرة واحدة أنها لم تكن تريده أن يلجأ إلى منزلها، خشية أن يكتشف مع مرور الوقت بعض التناقضات مع الشخصية التي رسمتها له: إلى جانب أن هذه الخطة كانت ترضيه بشكل كبير، وتعزز نظرته إلى الحرية.

ثم تركني لأحظى براحتي التي كنت بأمس الحاجة إليها، ونهض، وبعد أن سوّت السيدة كول معه جميع الأمور المتعلقة بي، أخرجته من المنزل دون أن يلاحظه أحد. وبعد ذلك، عندما استيقظت، دخلت وأثنت عليّ كما ينبغي لنجاحي. وبحكم اعتدالها المعهود وإيثارها، رفضت أن تقتطع أي جزء من المبلغ الذي كسبته، ووضعتني في وضع آمن وسهل لإدارة شؤوني، التي أصبحت الآن ثروة صغيرة، لدرجة أن طفلاً في العاشرة من عمره كان بإمكانه حفظ حسابها وممتلكاتها بأمان.

لقد عدت الآن إلى حالتي السابقة كعشيقة مُعالة، وكنت أحرص على خدمة السيد نوربرت في غرفته كلما أرسل لي رسولاً، وكنت أحرص دائماً على أن أكون في طريقه، وأدير الأمر بحذر شديد، بحيث لم يكتشف أبداً طبيعة علاقتي بالسيدة كول؛ ولكن بسبب كسله وانشغاله بأمور المدينة، فإن اندفاعهم الدائم منعه من النظر في شؤونه الخاصة، ناهيك عن شؤوني.

في غضون ذلك، إذا جاز لي الحكم من تجربتي الخاصة، فلا أحد يتقاضى أجراً أفضل، أو يُعامل معاملة أفضل، خلال فترة حكمه، من عشيقة أولئك الذين، بسبب ضعفهم الطبيعي أو الفجور أو التقدم في السن، لديهم أقل قدر من العمل بالنسبة للجنس: إذ يدركون أن المرأة يجب أن تُرضى بطريقة ما، فإنهم يغدقون عليها بألف لمسة رقيقة من الاهتمام والهدايا والمداعبات والأسرار، ويستنفدون ابتكاراتهم في الوسائل والحيل لتعويض النقص في رأس المال؛ وحتى لتقليل ذلك، ما هي الفنون والأساليب وأساليب المتعة التي لم يلجؤوا إليها، لرفع قواهم الخاملة، ودفع الطبيعة في خدمة شهواتهم؟ لكن مصيبتهم تكمن هنا، فعندما يحققون، من خلال المداعبة والقلق واللمس والتصرفات المتهورة والحركات الفاحشة، متعةً عابرةً وخاملة، فإنهم في الوقت نفسه يشعلون لهيبًا في قلب من يحبون، والتي، لعدم امتلاكها الوسائل لإخماده، تدفعها طلبًا للراحة إلى أحضان شخص آخر قادر على إتمام مهمتهم؛ وهكذا يصبحون قوادًا لشخص مفضل، مجرب ومقبول، لتنفيذ أكثر قوة وإرضاءً؛ لأنه مع النساء، وخاصة نحن، مهما كانت قلوبنا حسنة النية، هناك جزء مسيطر، أو عرش ملكي فينا، يحكم نفسه وفقًا لمبادئه الخاصة، ومن بينها لا يوجد مبدأ أقوى منه عمليًا من عدم قبول الإرادة مقابل الفعل.

السيد نوربرت، الذي كان له دور كبير في هذه الحالة غير اللطيفة، على الرغم من أنه ادعى أنه يحبني بشدة، إلا أنه نادراً ما كان يستطيع أن يكمل المتعة الرئيسية معي، دون مثل هذه التحضيرات الطويلة والمتنوعة، والتي كانت مرهقة ومثيرة للغضب في آن واحد.

أحيانًا كان يُعرّيني تمامًا على سجادة، بجوار نارٍ متأججة، ويتأملني لساعاتٍ تقريبًا، يُصوّرني بكلّ وضعيات جسدي التي يُمكن رؤيتها؛ يُقبّلني في كلّ مكان، حتى أكثر أجزائي حساسيةً وخصوصيةً، لدرجة أنّه كان يُوليها اهتمامًا بالغًا. كانت لمساته في غاية الإثارة، مُنتشرةً بسخاءٍ وعميقةً أحيانًا، لدرجة أنّه كان يُشعل فيّ نارًا مُثيرة، وعندما يُصاب بانتصابٍ قصيرِ الأمد، كان يُذيبه بعرقٍ غزير، أو بقذفٍ مُبكرٍ مُجهض، يُسخر من رغباتي الجامحة؛ أو، إذا ما أُخذت إلى المنزل، كم كان أداؤه مُترددًا وغير مُتقن! كم كانت قطرات الحرارة القليلة غير كافية لإطفاء كلّ تلك النيران التي أشعلها!

في إحدى الأمسيات، لا يسعني إلا أن أتذكر، أنني كنت عائدة إلى المنزل منه، وقد أثار فيّ روحًا في دائرة لم يستطع عصاه إخمادها، وبينما كنت أدور عند زاوية أحد الشوارع، لحق بي بحار شاب. كنت حينها أرتدي ذلك الزي الأنيق البسيط الذي لطالما حرصت على ارتدائه، وربما كنت أبدو، خلال رحلتي، وكأنني أحمل في داخلي شيئًا من القلق الذي لم أعتد عليه في هدوء أفكاري. ومع ذلك، فقد اغتنم الفرصة، وبدون أي مقدمات، لف ذراعيه حول عنقي، وقبلني بحرارة وعذوبة. نظرت إليه بنظرة بدأت تنم عن غضب واستياء من فظاظته، سرعان ما تلاشت إلى مشاعر أخرى وأنا أتأمله: فقد كان طويل القامة، مفتول العضلات، وسيم الجسم والوجه، حتى أنني أنهيت نظرتي إليه بسؤاله بنبرة حنونة عما يعنيه؛ وعندها، وبنفس الصراحة والحيوية التي بدأ بها حديثه معي، عرض عليّ أن أدعوه لكأس من النبيذ. الآن، من المؤكد أنه لو كنتُ أكثر هدوءًا مما كنت عليه، لو لم أكن تحت سيطرة غضبٍ لا يهدأ؛ لكنني لا أعرف كيف كان الأمر، مكالماتي الملحة، هيئته، المناسبة، وإن شئت، المزيج القوي من كل هذه الأشياء، مع فضولٍ لمعرفة نهاية مغامرة، جديدة أيضًا حيث يتم التعامل معي كبائع متجول عادي، جعلني أعطي موافقة صامتة؛ باختصار، لم يكن عقلي هو ما أطعته الآن، لقد سمحت لنفسي أن أُجر كما لو كان هذا الرجل الحربي، الذي أخذني تحت ذراعه كأحد أفراد العائلة كما لو كان يعرفني طوال حياته، وقادني إلى أقرب حانة مناسبة، حيث تم إدخالنا إلى غرفة صغيرة على جانب واحد من الممر. هنا، وبالكاد صبر حتى أحضر عامل الدرج النبيذ المطلوب، انقضّ عليّ مباشرةً: فنزع منديلي، وسحبني بقوة، وكشف صدري على الفور، وتعامل معه بشغفٍ جارفٍ يُفسد أي مراسم، بل ويجعلها مملةً أكثر من كونها ممتعةً في مثل هذه المناسبات المُلحة؛ والآن، ونحن نُسرع نحو الهدف الرئيسي، لم نجد ما يُناسب غرضنا، كرسيان أو ثلاثة مُعطلة، وطاولة مُتهالكة، تُشكل كل أثاث الغرفة. وبدون مزيد من اللغط، جعلني أقف على الحائط، وظهري مُلاصقٌ للجدار، وقميصي الداخلي مرفوع؛ ثم أخرج أداةً حادةً، وجعلها تلمع في عينيّ وهو يُلوّح بها؛ وبدأ العمل باندفاعٍ وحماسةٍ، ربما بسبب جلوسه لفترةٍ طويلة، ليُذيقني طعمها. جلستُ، وحاولتُ مُجاراة وضعيتي، وبذلتُ قصارى جهدي باختصارٍ لأُذيقها؛ استوعبت جزءًا منه، لكن الأمور لم تسر على ما يرام بالنسبة له؛ فغيّرها في لمح البصر، وقادني إلى الطاولة، وبيدٍ ماهرة وضع رأسي على حافتها، وباليد الأخرى رفع تنورتي الداخلية وقميصي، وكشف مؤخرتي العارية لقائده الأعمى الغاضب؛ شق طريقه بينهما، وشعرت بوضوح أنه لم يكن يمر من الباب الصحيح.وبينما كنت أطرق بيأس على الباب الخطأ، أخبرته بذلك: فقال: "يا عزيزتي، أي ملجأ في العاصفة". لكنه غيّر مساره على الفور، وخفض طرفه، وثبّته في مكانه الصحيح، ودفعه بقوة لذيذة، فأثار كل شيء من جديد، وأعطاني تلك المتعة بحماسة وشغف كبيرين، لدرجة أنني في تلك الحالة الرائعة التي كنت عليها عندما استسلمت له وتأثرت بشدة، فاجأته، وانغمست في غيبوبة ذائبة، وبينما كنت أعصره في قبضته المتشنجة، انتزعت منه فيضانًا غزيرًا، أشار إلى تدفقي، وغمر تلك الأجزاء تمامًا، وأغرق في طوفان كل لهيب رغبتي الجامحة.

بعد انتهاء هذا، كان همّي كيفية الانسحاب؛ فمع أنني كنتُ مسرورةً للغاية بالصراع بين هذا الهجوم الناري الدافئ الذي انهمر عليّ بغزارة، وبين المداعبة واللعب المُرهِقين اللذين نتجا عن اللهيب المُشتعل الذي دفعني إلى هذه الخطوة، إلا أنني الآن، وقد هدأتُ، بدأتُ أخشى خطر التعرّف على هذا الغريب، مهما كان لطيفًا؛ الذي كان يتحدث من جانبه عن قضاء الأمسية معي ومواصلة

علاقتنا الحميمة، بنبرةٍ حازمةٍ جعلتني أخشى ألا يكون التخلص منه بالسهولة التي أتمناها. في هذه الأثناء، أخفيتُ قلقي بعناية، وتظاهرتُ بالموافقة على البقاء معه، مُخبرةً إياه أنني سأذهب إلى مسكني فقط لأغادر في اتجاهٍ ضروري، ثم أعود فورًا. ابتلع هذا الكلام بسهولة بالغة، ظنًا منه أنني واحد من أولئك المتسكعين التعساء في الشوارع، الذين يكرسون أنفسهم لإرضاء أول وغد ينحني ليقلهم، وبالطبع، أنني لن أضيع أجري إن لم أعد، بل سأستغل العمل على أكمل وجه. وهكذا فارقني، ولكن ليس قبل أن يأمر، على مسمعي، بعشاء، والذي تجرأت على حرمانه من صحبته أيضًا.

لكن عندما عدت إلى المنزل، وأخبرت السيدة كول بمغامرتي، أوضحت لي بقوة طبيعة وعواقب حماقتي الخطيرة، وخاصة المخاطر التي تهدد صحتي، لكوني مكتوفة الأيدي، لدرجة أنني لم أتخذ قرارات بعدم المغامرة بتهور مرة أخرى فحسب، وهو ما التزمت به بشدة، بل قضيت أيامًا عديدة في قلق مستمر، خشية أن أجد أسبابًا أخرى، إلى جانب متعة ذلك اللقاء، لتذكره؛ لكن هذه المخاوف أضرت ببحاري الجميل، ولذلك أقدم له هذا التعويض بكل سرور.

لقد عشت الآن مع السيد نوربرت لما يقرب من ربع عام، قضيت خلالها وقتي بشكل ممتع للغاية، بين تسليتي في منزل السيدة كول، ورعاية ذلك الرجل، الذي كان يدفع لي بسخاء مقابل مجاملتي غير المحدودة التي كنت أستجيب بها بشكل سلبي لكل نزوة من نزواته، والتي نالت إعجابه إلى حد كبير، لدرجة أنه وجد، كما قال، كل ذلك التنوع فيّ وحدي، والذي كان يبحث عنه في عدد من النساء، مما جعله يفقد رغبته في التقلب والوجوه الجديدة. لكن ما كان على الأقل مُرضيًا، بل وأكثر إطراءً، هو الحب الذي ألهمته إياه، والذي ولّد لدي احترامًا كبيرًا، كان له فائدة عظيمة لصحته: لأنه بعد أن دفعته تدريجيًا، وبكثير من الصور المؤثرة، إلى بعض ضبط النفس، وضمان استمرار ملذاته من خلال الاعتدال في استخدامها، وتصحيح تلك الإفراطات التي كان مدمنًا عليها، والتي حطمت بنيته ودمرت قدراته على الحياة في النقطة التي بدا أنه يرغب في العيش من أجلها، أصبح أكثر رقة، وأكثر اعتدالًا، وفي طريقه أكثر صحة؛ وكان امتنانه لذلك يأخذ منحىً إيجابيًا للغاية بالنسبة لي، عندما حطمت نزوة ذلك الكأس من بين شفتي مرة أخرى.

كانت أخته، السيدة ل...، التي كان يكنّ لها محبة كبيرة، ترغب في أن يرافقها إلى باث لتلقي العلاج، فلم يستطع أن يرفض لها هذا الطلب؛ ولذلك، ورغم أنه كان ينوي ألا يغيب عني أكثر من أسبوع على أقصى تقدير، فقد ودّعني بحزن عميق، وترك لي مبلغًا يفوق ثروته بكثير، ويتنافى تمامًا مع قصر رحلته المُخطط لها؛ لكن رحلته انتهت بأطول مدة ممكنة، ولم تُقطع إلا مرة واحدة: فبعد وصوله إلى باث، لم يمضِ يومان حتى انغمس في شرب الخمر مع بعض السادة، مما أدى إلى إصابته بحمى شديدة، وأودت بحياته بعد أربعة أيام، دون أن يفيق من هذيانه. لو كان بكامل قواه العقلية ليكتب وصية، لربما ذكرني فيها بإيجابية. وهكذا، فقدته. وبما أنه لا توجد حالة حياة أكثر عرضة للتقلبات من حالة المرأة التي تعيش في الملذات، فقد استعدت بهجتي سريعاً، ورأيت نفسي الآن وقد شُطبت مرة أخرى من قائمة العشيقات، وعدت إلى أحضان المجتمع الذي أُخذت منه بطريقة ما.

استمرت السيدة كول في صداقتها، وعرضت عليّ مساعدتها ونصائحها بشأن خيار آخر؛ لكنني كنت الآن في راحة وثراء كافيين لأتأمل ما حولي على مهل؛ أما بالنسبة لأي رغبات طبيعية، فقد خفّ ضغطها أو حساسيتها بشكل كبير بفضل إدراكي لسهولة إشباعها في منزل السيدة كول، حيث استمرت لويزا وإميلي على النهج القديم؛ وكانت هارييت، المفضلة لديّ، تأتي لزيارتي كثيرًا، وتسليني، وقلبها وعقلها ممتلئان بالسعادة التي كانت تتمتع بها مع بارونتها العزيزة، التي أحبتها بحنان وثبات، على الرغم من أنه كان وصيًا عليها، والأكثر من ذلك، أنه جعلها مستقلة، من خلال توفير سخي لها ولعائلتها. كنت حينها في فترة فراغ من أي عمل منتظم أقوم به في مجال عملي، عندما أخبرتني السيدة كول ذات يوم، في سياق الثقة المتبادلة بيننا، أن هناك السيد بارفيل، الذي كان يقيم في منزلها، قد وصل لتوه إلى المدينة، وكانت في حيرة من أمرها بشأن إيجاد رفيق مناسب له؛ وهو أمرٌ كان بالفعل صعبًا، إذ كان خاضعًا لرغبة قاسية: رغبة جامحة، ليس فقط في أن يُجلد هو نفسه بلا رحمة، بل في جلد الآخرين، لدرجة أنه على الرغم من أنه كان يدفع ببذخ لمن يملكون الشجاعة والرضا للخضوع لطبعه، إلا أن قلة قليلة، على الرغم من دقته في اختيار ضحاياه، كانوا

على استعداد لتبادل الأدوار معه بهذه القسوة على حساب سلامتهم. ولكن ما زاد من غرابة هذه الرغبة الغريبة هو أن الرجل كان شابًا؛ بينما يبدو أنها تهاجم بشكل عام أولئك الذين يضطرون، بسبب تقدمهم في السن، إلى اللجوء إلى هذه التجربة، لتسريع تدفق سوائلهم الخاملة، وتحديد تدفق أرواح المتعة نحو تلك الأجزاء الذابلة والضعيفة، التي لا تنبض بالحياة إلا بفضل تلك الشهوات المثيرة التي يخلقها انضباط أضدادها، والتي تتوافق معها بشكل مدهش.

لم يكن بوسع السيدة كول أن تُطلعني على هذا الأمر، تحسبًا لعرضي للخدمة؛ فمع سهولة ظروفي، لا بد أن إغراء اهتمامٍ بالغ هو ما دفعني لقبول مثل هذه الوظيفة. لم أبدِ قط، ولم أشعر حتى بأدنى رغبة أو فضول لمعرفة المزيد عن مذاقٍ يعد بألمٍ يفوق المتعة لمن لا يحتاجون إلى مثل هذه الحوافز العنيفة. فما الذي يدفعني إذًا إلى الانضمام طواعيةً إلى حفلة ألم، وأنا أعلم مسبقًا ما ستؤول إليه؟ في الحقيقة، كانت نزوة مفاجئة، ورغبة جامحة في تجربة شيء جديد، ممزوجة بغرور إثبات شجاعتي أمام السيدة كول، هي التي دفعتني، مهما كانت المخاطر، إلى التقدم لها وتخليصها من أي ترقب. وبناءً على ذلك، أسعدتها وفاجأتها على الفور، بعرضي الصريح وغير المشروط لشخصي ولصديقتها تحت تصرفهما الكامل في هذه المناسبة.

ومع ذلك، كانت والدتي الدنيوية الطيبة لطيفة للغاية لدرجة أنها استخدمت كل الحجج التي يمكن أن تتخيلها لإقناعي: ولكن، بما أنني وجدت أنها لم تكن سوى دافع من الحنان تجاهي، فقد أصررت على قراري، وبذلك برأت عرضي من أي شك في أنه لم يكن صادقًا، أو أنه كان مجرد مجاملة. بعد أن وافقتُ شاكرةً، أكدت لي السيدة كول أنها، رغم الألم الذي سأتعرض له، لا تتردد في دعوتي إلى هذه الحفلة، التي أكدت لي أنني سأتقاضى عليها أجرًا سخيًا، وأن سرية الأمر ستحميها من السخرية التي قد تصاحبها لولا ذلك؛ وأنها من جانبها تعتبر المتعة، بمختلف أنواعها، غايةً أساسية، وأن كل ريح تهب إليها هي ريح طيبة، ما لم تؤذِ أحدًا؛ وأنها تشفق على أولئك التعساء، الذين يخضعون لسيطرة لا مفر منها، لأذواقهم العشوائية التي تتحكم في شهواتهم للملذات بتحكم غامض، بدلًا من لومهم: أذواقٌ متنوعةٌ إلى ما لا نهاية، ومتفوقةٌ على كل منطق، ومستقلةٌ عنه، تمامًا كاختلاف أذواق البشر في طعامهم؛ فبعضهم ذو معدة حساسة تتقيأ اللحوم البسيطة، ولا تجد لذةً إلا في الأطباق الفاخرة ذات التوابل الكثيرة، بينما يشعر آخرون بالغثيان. "عند كرههم."

لم أعد بحاجة إلى هذه المقدمة من التشجيع أو التبرير: فقد قطعت وعدي، وكنت مصمماً على الوفاء بالتزاماتي. وبناءً على ذلك، تم تحديد موعد الليلة، وتلقيت جميع التعليمات اللازمة مسبقاً حول كيفية التصرف والتعامل. تم تجهيز غرفة الطعام وإضاءتها، ووقف الشاب هناك في انتظار تقديمي إليه.

ثم أحضرتني السيدة كول وقدمتني إليه، مرتديةً ثوباً فضفاضاً مصمماً، بتوجيه منها، للتمرين الذي سأخضع له، وكل ذلك من أجود أنواع الكتان وزي أبيض كامل: ثوب، وتنورة داخلية، وجوارب، ونعال من الساتان، مثل ضحية تُساق إلى التضحية؛ بينما خلق شعري الكستنائي الداكن، المتساقط في خصلات متدلية على رقبتي، تبايناً لونياً جميلاً عن بقية ملابسي.

ما إن رآني السيد بارفيل حتى نهض، وقد بدا عليه السرور والدهشة، وحياني، ثم سأل السيدة كول إن كانت مخلوقة رقيقة ولطيفة مثلي ستخضع طواعيةً لمثل هذه المعاناة والمشاق التي كانت موضوع لقائه. أجابته بأدب، ثم رأت في عينيه أنها لا تستطيع أن تتركنا معًا قريبًا، فخرجت بعد أن أوصته بالتعامل باعتدال مع فتاة مبتدئة رقيقة مثلي.

لكن بينما كانت تستحوذ على انتباهه، انشغلت أنا بفحص هيئة وشخصية هذا الشاب التعيس، الذي حُكم عليه بشكل غير مفهوم بأن تُجلد متعته فيه، كما يتعلم الصبيان.

كان شديد البياض، ذو بشرة ناعمة، وبدا لي في العشرين من عمره على الأكثر، مع أنه كان يكبرني بثلاث سنوات عما توقعت؛ لكن هذا الخطأ الموفق يعود إلى عادة السمنة التي امتدت عبر قامة قصيرة مكتنزة؛ ووجهه المستدير الممتلئ ذو اللون النضر منحه مظهرًا يشبه باخوس، ولم يكن فيه أي أثر للزهد، ناهيك عن الصرامة، التي لا تتناسب حتى مع شكل وجهه، مما أفسد تلك البهجة

الضرورية لإكمال الشبه. كان لباسه أنيقًا للغاية، لكنه بسيط، وأقل فخامة بكثير من ثروته الطائلة؛ وهذا أيضًا كان ذوقًا رفيعًا لديه، وليس جشعًا.

بمجرد أن غادرت السيدة كول، أجلسني بالقرب منه، وعندها تغير وجهه نحوي، إلى تعبير عن حلاوة ولطف بالغين، وكان أبرز ما فيه هو تحوله المفاجئ من النقيض الآخر، والذي اكتشفت فيما بعد، عندما عرفت المزيد عن شخصيته، أنه كان بسبب حالة صراع دائم مع نفسه وكرهها، لكونه مستعبداً لشهوة غريبة، بسبب صفة وراثية متأصلة فيه، جعلته غير قادر على تلقي أي متعة، حتى يخضع لهذه الوسائل غير العادية للحصول عليها عن طريق الألم، بينما طبع ثبات هذا الوعي المتذمر في النهاية تلك النظرة من المرارة والقسوة على ملامحه: والتي كانت، في الواقع، غريبة تماماً عن حلاوة مزاجه الطبيعية.

بعد تحضير كفء من خلال الاعتذارات والتشجيع على أداء دوري بروح وثبات، وقف بالقرب من النار، بينما ذهبت لجلب أدوات التأديب من خزانة قريبة: كانت عبارة عن عدة قضبان، كل منها مصنوع من غصنين أو ثلاثة أغصان قوية من خشب البتولا مربوطة معًا، والتي أخذها وتعامل معها ونظر إليها بنفس القدر من المتعة، كما فعلت أنا بنوع من النذير المرتجف.

بعد ذلك، أخذنا من جانب الغرفة مقعدًا طويلًا وعريضًا، سهل الاستلقاء عليه لفترة طويلة بفضل وسادة ناعمة مغطاة بقماش الكاليكو؛ وبعد أن أصبح كل شيء جاهزًا، خلع معطفه وسترته؛ وبناءً على حركته ورغبته، قمت بفك أزرار سرواله، ورفعت قميصه فوق خصره قليلاً، وثبته بإحكام هناك؛ وعندما وجهت نظري بشكل طبيعي إلى تلك الحركة الرئيسية، التي كانت كل هذه الترتيبات تعمل لصالحها، بدت وكأنها انكمشت تقريبًا في جسده، بالكاد تظهر طرفها فوق خصلات الشعر المجعدة التي تغطي تلك الأجزاء، كما قد تكون رأيت طائرًا صغيرًا يطل برأسه من العشب.

انحنى ليفك رباطاته، ثم أعطاني إياها لأستخدمها في ربطه بأرجل المقعد: وهو أمر ليس أكثر ضرورة مما كان عليه، كما أعتقد، أنه جزء من روح الدعابة في الأمر، لأنه فرضه على نفسه، من بين بقية الطقوس.

ثم اقتدته إلى المقعد، ووفقًا لإشارتي، تظاهرت بإجباره على الاستلقاء: وبعد إظهار بعض التردد، من باب المجاملة، استسلم؛ فمددته على الفور على بطنه على المقعد، مع وضع وسادة تحت وجهه؛ وبينما كان مستلقيًا على هذا النحو، ربطت يديه وقدميه قليلاً بساقي المقعد؛ وبعد ذلك، وقميصه لا يزال مربوطًا فوق أسفل ظهره، أنزلت سرواله تمامًا إلى ركبتيه؛ والآن كان مستلقيًا، في أبهى صورة وأوسع عرض لذلك الجزء من ظهره؛ حيث ارتفع زوج من المؤخرات الممتلئة ذات الخدين الناعمين والبيضاء بشكل مريح من فخذين قويين ممتلئين، وينتهي انشقاقهما، أو انفصالهما، باتحاد عند أسفل الظهر، مما شكل علامة بارزة، انتفخت، كما لو كانت، لمواجهة السوط.

أمسكتُ بإحدى العصي، ووقفتُ فوقه، وبناءً على توجيهاته، ضربتهُ بعشر جلدات دفعةً واحدة، بكل ما أوتيت من قوة وشجاعة، حتى ارتجفت تلك الكرات اللحمية تحت وطأتها؛ بينما بدا هو غير مكترثٍ بها، كما لو كان جراد البحر لا يبالي بلدغة برغوث. في هذه الأثناء، تأملتُ أثرها، الذي بدا لي في النهاية قاسياً بشكلٍ مدهش: كل جلدةٍ لامست سطح تلك الكسور البيضاء، فاحمرّت بشدة، والتفت حول الجانب الأبعد عني، تاركةً في تجاويفها آثاراً زرقاء، حيث سال الدم منها أو تجمع على شكل قطرات كبيرة؛ ومن بعض الجروح، انتشلتُ حتى شظايا العصا التي انغرست في الجلد. ولم يكن من المستغرب هذا العمل الخام، بالنظر إلى خضرة الأغصان وشدة الإصابة، في حين أن سطح الجلد بأكمله كان أملسًا جدًا وممتدًا فوق لب اللحم الصلب والمتماسك الذي يملأه، بحيث لا يسمح بأي حركة أو تذبذب مراوغ تحت الضربة: الأمر الذي حدث بالتالي بشكل أكثر امتلاءً، وقطع في اللحم الحي.

إلا أنني كنت قد تأثرت بشدة بهذا المنظر المؤلم، لدرجة أنني ندمت من صميم قلبي على ما فعلت، وكنت سأستسلم لو أردت، ظنًا مني أنه قد اكتفى؛ لكنه شجعني وتوسل إليّ بإلحاح أن أستمر، فجلدته عشر جلدات أخرى؛ ثم استرحت، وراقبت ازدياد مظاهر الدم. وأخيرًا، وقد صقلني صبره في مواجهة الألم، واصلتُ تدريبه على فترات متقطعة، حتى لاحظتُ كيف كان يتلوى ويحرك جسده

بطريقة أدركتُ بوضوح أنها ليست نتيجة ألم، بل إحساس جديد وقوي. ولفضولي لمعرفة معناه، اقتربتُ منه في إحدى فترات الراحة، بينما كان لا يزال يعمل ويضغط بطنه على الوسادة تحته، وبدأتُ أداعب الجانب السليم من عضوه المجاور لي، ثم أدخلتُ يدي برفق تحت فخذه، وشعرتُ بوضعيته، وهو أمرٌ كان مفاجئًا حقًا. فقد كان عضوه، الذي ظننتُه من مظهره شيئًا غير ملموس، أو على الأقل صغيرًا جدًا، قد نما الآن، بسبب كل ذلك الألم والتعب الذي أصاب جلده من الخلف، ليس فقط إلى انتصاب هائل، بل إلى حجم أرعبني أنا أيضًا: سُمك لا مثيل له! كان رأسه وحده يملأ أقصى ما يمكنني الإمساك به. وعندما ظهر، بينما كان يتلوى ويتحرك جيئة وذهابًا في نشوة لذته الغريبة، كان يشبه إلى حد ما قطعة لحم عجل مستديرة، ومثل صاحبه، كان ممتلئ الجسم وقصيرًا مقارنة بعرضه؛ ولكن عندما شعر بيدي هناك، توسل إليّ أن أستمر في هزّي بسرعة، وإلا فلن يصل أبدًا إلى ذروة اللذة.

ثم استأنفت ركوبه وممارسة الرياضة، وكنت قد أرهقت ثلاث حزم تقريبًا، عندما رأيته، بعد زيادة في الصراعات والحركة، وتنهد عميق أو اثنين، مستلقيًا بلا حراك؛ والآن طلب مني التوقف، وهو ما فعلته على الفور؛ وعندما شرعت في فك وثاقه، لم يسعني إلا أن أندهش من ثباته السلبي، عند رؤية جلد مؤخرته المذبوحة والممزقة، التي كانت في السابق بيضاء وناعمة ومصقولة، والآن أصبح جانب واحد منها عبارة عن شبكة مشوشة من الكدمات واللحم الشاحب والجروح والدماء، لدرجة أنه عندما وقف، بالكاد كان يستطيع المشي؛ باختصار، كان في الأدغال.

ثم أدركت بوضوح، على الوسادة، آثار تدفق غزير، وكان عضوه الكسول قد عاد بالفعل إلى مكانه القديم، وفرض نفسه مرة أخرى، كما لو كان يخجل من إظهار رأسه؛ والذي يبدو أنه لا شيء يمكن أن يثيره سوى الضربات التي تُلحق بجيرانه المقابلين، الذين كانوا مضطرين باستمرار للمعاناة من نزواته.

كان الرجل قد ارتدى ملابسه واستعاد رباطة جأشه، ثم قبلني ووضعني بجانبه، وجلس بحذر شديد، مع إبقاء أحد جانبي الوسادة بعيدًا عن الوسادة، التي كانت مؤلمة للغاية بالنسبة له بحيث لا يستطيع تحمل وضع أي جزء من وزنه عليها.

هنا شكرني على المتعة الكبيرة التي جلبتها له، ولعله رأى بعض آثار الرعب والخوف من الانتقام على وجهي، لما كنتُ سببًا في معاناته، فأكد لي أنه مستعد للتخلي عن أي التزام قد أفرضه عليه، كما فعل هو معي، لكنه إن وافقتُ، فسيراعي اختلاف جنسي، وحساسيته المفرطة، وعدم قدرته على تحمل الألم. شعرتُ بالارتياح، وازددتُ فخرًا، كما ظننت، لعدم التراجع أمام المحاكمة، خاصةً أنني كنتُ أعلم أن السيدة كول شاهدة عيان، من موقعها، على كل ما حدث، فخفتُ الآن من أن لا يمنحني فرصة لإظهار عزمي، أكثر من خوفي على بشرتي.

كان جوابي متوافقاً مع هذا التوجه، لكن شجاعتي كانت لا تزال في رأسي أكثر منها في قلبي؛ وبما أن الجبناء يندفعون إلى الخطر الذي يخشونه، من أجل التخلص من ألم ذلك الشعور في أسرع وقت ممكن، فقد كنت مسروراً تماماً بتسريعه للأمور حتى التنفيذ.

لم يكن أمامه حينها سوى فكّ أربطة تنورتي الداخلية، ورفعها مع قميصي الداخلي حتى مستوى سرّتي، حيث قام بتثبيتها برفق، وكان بإمكانه رفعها أكثر متى شاء. ثم نظر إليّ بنظرةٍ مليئةٍ بالبهجة الظاهرة، وألقى بي أخيرًا على وجهي فوق المقعد، وعندما توقعت أن يربطني كما فعلتُ به، ومددت يديّ، لا يخلو الأمر من الخوف والارتجاف، قال لي: "لن أرعبني أبدًا بهذا التقييد دون داعٍ؛ فمع أنه كان ينوي اختبار ثباتي، إلا أن وقوفي سيكون طوعيًا تمامًا من جانبي، وبالتالي يحق ليَ النهوض متى ما شعرتُ بالألم الشديد". لا يمكنكِ أن تتخيلي كم شعرتُ بأنني مقيدة، لكوني حرةً هكذا، وكم منحتني هذه الثقة بنفسي من قوة، حتى أنني لم أعد أبالي من أعماق قلبي بمدى الألم الذي قد يلحق بجسدي في سبيل ذلك.

كانت جميع أجزاء ظهري، العارية حتى منتصفها، تحت رحمته تمامًا: في البداية، وقف على مسافة مناسبة، مستمتعًا بنظرة شماتة إلى وضعيتي، وإلى كل ما كشفته له من أسرار. ثم اندفع نحوي بشغف، وغمر تلك الأجزاء العارية بوابل من القبلات. ثم أمسك بالعصا، وداعبني برفق، يلمس تلك

الكتل الرقيقة المرتجفة من لحمي في الخلف، دون أن يؤذيها، حتى بدأ تدريجيًا بضربها بضربات أقوى، مما أدى إلى احمرارها، وهو ما عرفته من التوهج الفاقع الذي شعرت به، ومن كلامه، فقد أصبحت تشبه ورود وجنتي الأخرى. بعد أن تسلى بالإعجاب بها واللعب بها، واصل الضرب بقوة أكبر، حتى كدت أصرخ أو أتذمر. وأخيرًا، ضربني بعصاه بقوةٍ شديدةٍ حتى سال الدم من أكثر من ضربة: عند رؤيته ذلك، ألقى بالعصا أرضًا، وانقضّ عليّ، وقبّل قطرات الدم المتدفقة، ومصّ الجروح فخفّف الكثير من ألمي. لكن الآن، رفعني على ركبتيّ، وجعلني أركع وركبتاي متباعدتان، فصار ذلك الجزء الرقيق من جسدي، الذي هو بطبيعته موطن المتعة لا الألم، ينال نصيبه من المعاناة: إذ نظر إليه بشوق، ووجّه العصا بحيث لامست أطراف الأغصان الحادة ذلك الجزء، بشكلٍ مؤلمٍ للغاية، لدرجة أنني لم أستطع إلا أن أتألم وألوي أطرافي من الألم؛ بحيث اضطرت حركات جسدي الملتوية إلى أن تتخذ وضعياتٍ وزوايا نظرٍ لا حصر لها، تُرضي العين. لكنني مع ذلك تحملت كل شيء دون أن أصرخ: وعندما توقف للحظة، اندفع، كما لو كان، نحو ذلك الجزء الذي شعرت شفتاه، وما حولهما، بهذه القسوة، وكأنه يعوض عن ذلك، ألصق شفتيه بهما؛ ثم فتحهما، وأغلقهما، وعصرهما، وقطف الطحالب المتضخمة برفق، وكل ذلك بأسلوب من النشوة الجامحة والحماسة، التي عبرت عن لذة مفرطة؛ حتى عاد إلى العصا مرة أخرى، مدفوعًا بسلبيتي، ومثارًا غضبًا من هذا المذاق الغريب للذة، جعل مؤخرتي المسكينة تدفع ثمن جموحها؛ لأنه الآن لا يرحمها، قطعني الخائن بشدة، حتى كدت أفقد وعيي عندما توقف. ومع ذلك لم أنطق بكلمة واحدة، أو أعبر عن استيائي الغاضب؛ لكنني عزمت في قلبي على ألا أعرض نفسي مرة أخرى لمثل هذه القسوة.

قد تتخيل إذن في أي مأزق غريب كانت تلك الوسائد اللحمية الناعمة خاصتي، كلها حمراء ودموية، وفي النهاية، تم خدشها بشكل مروع؛ ولكن بعيدًا عن الشعور بأي متعة في ذلك، جعلني الألم الأخير أعبس قليلاً، ولم أستقبل المجاملات والمداعبات اللاحقة من مسبب ألمي بأكبر قدر من الرضا.

بمجرد أن ارتديت ملابسي بشكل محتشم، أحضرت السيدة كول نفسها، ذات الشخصية المتحفظة، عشاءً كان من الممكن أن يثير شهوة كاردينال، مصحوبًا بمجموعة مختارة من أفخر أنواع النبيذ: كل ذلك وضعته أمامنا، ثم خرجت مرة أخرى، دون أن تنبس ببنت شفة أو حتى بابتسامة، مما تسبب لنا في أدنى قدر من المقاطعة أو الارتباك، في تلك اللحظات السرية، التي لم نكن مستعدين بعد لدخول شخص ثالث أيضًا.

جلستُ حينها، وما زلتُ أشعر بنوع من الشفقة تجاه جزار اللحم، إذ لم أستطع إلا أن أُفكّر فيه، بل وشعرتُ ببعض الانزعاج من ملامح وجهه المُشرقة الراضية، والتي اعتبرتها إهانةً لي. ولكن عندما شعرتُ بالانتعاش الذي كنتُ أحتاجه الآن، وهو كأس من النبيذ وقليل من الطعام (مع التزامي الصمت التام طوال الوقت)، انتعشتُ قليلاً وعادت إليّ معنوياتي، ومع زوال الألم، عادت إليّ روحي المرحة. ولم يغب هذا التغيير عنه، ففعل وقال كل ما من شأنه أن يُعزّز هذه الروح، بل ويُعلي من شأنها.

لكن ما كاد العشاء ينتهي حتى حدث لي تغيير لا يصدق، فقد سيطرت عليّ أحاسيس عنيفة، ولكنها مزعجة بشكل ممتع، لدرجة أنني بالكاد عرفت كيف أسيطر على نفسي؛ فقد تحول لسعة السياط إلى حرارة لاذعة، ووخزات نارية، جعلتني أتنهد، وأضغط فخذي معًا، وأتحرك وأتلوى على مقعدي، في حالة من القلق الشديد؛ وبينما أثارت هذه الرغبات المؤلمة، التي ثارت في تلك الأجزاء التي هبت عليها عاصفة التأديب بشكل رئيسي، جحافل من الأرواح المحترقة والدقيقة والمحفزة، إلى موضعها المقابل ومركز تجمعها، حيث اشتعلت إثارتها بشدة، لدرجة أنني كنت أشعر بالوخز منها. لا عجب إذن أنه في مثل هذه اللحظة، وفي لهيب التهم كل حياء وتحفظ، أطلقت عيناي، الممتلئتان الآن بأشد الرغبة، إشارة واضحة جداً من الضيق على رفيقي: رفيقي، أقول، الذي كان يزداد فيهما في كل لحظة وداً، وأكثر ضرورة لرغباتي الملحة وآمالي في الراحة الفورية.

السيد بارفيل، الذي لم يكن غريباً عن هذه المواقف بحكم خبرته، سرعان ما أدرك الوضع الذي وصلت إليه، ولاحظ اضطرابي الشديد؛ ولذلك، أزاح الطاولة من الطريق، وبدأ مقدمة أسعدتني

براحة فورية، لم أكن مع ذلك قريبة منها كما تخيلت: فبينما كان يفك أزراره نحوي، ويحاول استفزاز آلته الخاملة وإيقاظها، اعترف بخجل أنه لا يمكن توقع أي خير منها، إلا إذا أخذتها بيدي لإعادة تنشيط قواها الخاملة، بمجرد إنعاش ألم الجروح الدموية التي لم تدم طويلاً، إذ لم يكن بإمكانها، مثل قميص صبي، مواكبة ذلك دون أن تضرب. إذ أدركتُ حينها أن عليّ العمل لمصلحتي بقدر ما عليّ لمصلحته، سارعتُ إلى تلبية رغبته، واختصرتُ المراسم، وبينما كان يُسند رأسه على ظهر الكرسي، لم أكد أُشعِره بوخزة السوط حتى رأيتُ ما أُريده يُظهر علامات الحياة، وسرعان ما انتصب، كما لو كان بلمسة سحرية، إلى حجمٍ ومكانةٍ عظيمين. ثم أسرع ليُعطيني نصيبي، فألقى بي على المقعد؛ ولكن كان الألم المُتجدد في تلك الأجزاء الخلفية، نتيجةً لانحنائي الشديد عليها، والذي كان يُناسب إدخال ذلك الرأس الهائل لآلته، شديدًا لدرجة أنني لم أستطع تحمّله. نهضتُ حينها، وحاولتُ، بالانحناء إلى الأمام، وإمالة طرف سروالي على مهاجمي، أن أفسح له الطريق من الخلف: لكن كان من المستحيل هنا أيضًا تحمّل عدائه الشرس ضدي، في هياجه ومحاولاته للدخول من ذلك الطريق، بينما كان بطنه يرتطم مباشرة بالجرح الذي جرحني مؤخرًا. ماذا نفعل الآن؟ كلانا في حالة هياج لا تُطاق: كلانا في حالة غضب شديد؛ لكن المتعة دائمًا ما تُبدع لتحقيق غاياتها الخاصة: جردني من ملابسي في لمح البصر، ووضع وسادة أريكة عريضة على السجادة أمام المدفأة، وأجلسني عليها برفق، رأسًا على عقب؛ وأمسك بي من خصري فقط، بينما كنتُ مستعدة تمامًا، ولففت ساقيّ حول عنقه؛ بحيث لم يكن رأسي مرفوعًا عن الأرض إلا بيديّ والوسادة المخملية التي غطاها شعري المنسدل: وهكذا وقفت على رأسي ويديّ، مستندةً عليه بطريقةٍ جعلت فخذيّ تلتفان حوله، كاشفتين له كامل ظهري، بما في ذلك مسرح لذته الدموية، بينما كان منتصف صدري يُغطي هدف غضبه، الذي كان الآن في حالةٍ ممتازةٍ ليُرضيني على إصابات من حوله. ولكن بما أن هذه الوضعية لم تكن سهلةً بالتأكيد، ولأن مخيلتنا، التي بلغت ذروتها، لم تكن تحتمل أي تأخير، فقد قام أولاً، بأقصى درجات الحماس والجهد، بإدخال رأس أداته العريض الذي يشبه ثمرة البلوط؛ وما زال مدفوعًا بالغضب الذي أحدث به ذلك، سرعان ما أدخل الباقي؛ ثم، بسلسلةٍ من الطعنات، وبدافعٍ عنيف، تغلب تمامًا على كل إحساسٍ بالألم والانزعاج وامتصه.سواء كان ذلك بسبب جراحي في الخلف، أو وضعيتي غير المريحة، أو حجم نقالته الكبير، في لذة طاغية لا متناهية؛ عندما اندفعت كل أرواحي وأحاسيسي، باندفاع نحو حلبة السباق، حيث كانت جائزة المتعة محل نزاع حاد وتتجمع في نقطة واحدة هناك، سرعان ما تلقيت راحة الطبيعة العزيزة من هذه الضغوط والاستفزازات العنيفة للغاية؛ وتناغمًا مع ذلك، قذف فارس أحلامي في داخلي فيضًا قويًا من الحقنة البلسمية، مما خفف وأزال كل تلك اللسعات المزعجة لنوع جديد من الإثارة، التي كنت أعاني منها بشكل لا يطاق، وأعاد اضطراب حواسي إلى درجة من الهدوء.

لقد حققت الآن هذه المغامرة النادرة في نهاية المطاف بشكل يرضيني أكثر بكثير مما كنت قد توقعت أن تكون عليه؛ ولم يقلل من ذلك، كما قد تظن، مديح سبارك السخي لثباتي ورضاي، والذي عززه بهدية فاقت توقعاتي القصوى، إلى جانب إسعاده للسيدة كول.

ومع ذلك، لم أشعر في أي وقت من الأوقات بالرغبة في تجديد علاقتي به، أو اللجوء مرة أخرى إلى الوسيلة العنيفة المتمثلة في دفع الطبيعة إلى سرعة أكبر من السرعة الجيدة: وهو ما أتصوره، بالمناسبة، أشبه بجرعة من الذباب الإسباني؛ ربما مع ألم أكبر، ولكن خطر أقل؛ وقد يكون ضرورياً له، ولكنه لم يكن أقل ضرورة بالنسبة لي، حيث كانت شهيتي بحاجة إلى اللجام أكثر من الحافز.

السيدة كول، التي زادني هذا العمل الجريء إعجابًا بها، كانت تنظر إليّ الآن كفتاة تشبهها تمامًا، لا تخشى شيئًا، ولسبب وجيه، بالكاد تستطيع مقاومة كل وسائل المتعة. ونتيجةً لهذه التصورات الإيجابية، حرصت على تحقيق مصلحتي أو متعتي، فأولت اهتمامًا خاصًا للأولى، من خلال شاب وسيم جديد ذي طبيعة غريبة، أحضرته لي وقدمته لي.

كان هذا رجلاً وقوراً، رزيناً، مهيباً، مسناً، وكان من غرائبه الاستمتاع بتمشيط خصلات الشعر الجميلة؛ ولأنني كنت أتمتع بتسريحة شعر مثالية تناسب ذوقه، فقد كان يأتي باستمرار في أوقات تزييني، عندما كنت أترك شعري منسدلاً كما هو، وأتركه له ليفعل به ما يشاء؛ وبناءً على ذلك، كان يبقيني ساعة أو أكثر ألعب به، يمرر المشط خلاله، ويلف الخصلات حول أصابعه، بل ويقبله وهو

يلمسه؛ ولم يؤد كل هذا إلى أي استخدام آخر لشخصي، أو أي حريات أخرى مهما كانت، تماماً كما لو لم يكن هناك تمييز بين الجنسين.

ومن غرائب ذوقه الأخرى أنه كان يُهدي إليّ اثني عشر زوجًا من قفازات الجلد الأبيض الناصع في كل مرة، وكان يُلهي نفسه بسحبها عليّ ثم قضم أطراف أصابعها. كل هذه الحماقات النابعة من شهية حمقاء، كان الرجل العجوز يدفع ثمنها بسخاء أكثر مما يدفعه معظم الناس مقابل خدمات أكثر أهمية. استمر هذا الحال حتى أصابته سعال حاد أقعده أرضًا، فأنقذني من هذا المُستهتر البريء التافه، إذ لم أسمع عنه شيئًا بعد رحيله الأول.

لا شك أن عملاً جانبياً من هذا النوع لم يتعارض مع أي مسعى آخر أو خطة حياة؛ والتي كنت أعيشها، في الحقيقة، بتواضع وتحفظ لم يكونا نابعين من فضيلة بقدر ما كانا نتاجاً لفقدان الحماس، ووفرة المتعة، وظروف ميسرة، مما جعلني غير مبالٍ بأي التزامات لا تجتمع فيها المتعة والربح بشكل واضح؛ ومثل هذه الالتزامات كنت أنتظرها، بصبر أقل، على يد الزمن والحظ، لأني كنت مقتنعاً بأني لن أستطيع أبداً استعادة ما تبقى لدي من مال، فقد حظيت بامتيازات كثيرة، بل ودُللت بأشهى المأكولات: إضافة إلى ذلك، وجدت في التضحية ببعض النزوات العابرة رضا خفياً في احترام نفسي، فضلاً عن الحفاظ على نضارة بشرتي وحيويتها. لم تكن لويزا وإيميلي متحفظتين إلى هذا الحد. لكنها مع ذلك لم تكن رخيصة أو مهجورة، على الرغم من أن اثنتين من مغامراتهم بدت وكأنها تتناقض مع هذه الشخصية العامة، والتي سأقدمها لكم تباعاً بسبب تفردها، بدءاً بمغامرة إميلي:

ذهبت لويزا وإيميلي ذات ليلة إلى حفلة راقصة، الأولى ترتدي زي راعية غنم، وإيميلي زي راعي غنم. رأيتهما بملابسهما قبل ذهابهما، ولم يكن هناك ما هو أجمل من هذا الفتى، بجماله وقوامه الممشوق. بقيا معًا لبعض الوقت، ثم التقت لويزا بصديقة قديمة، فودعتها بحفاوة، تاركةً إياها تحت حماية زيها البسيط، وحكمتها التي بدت أقل من ذلك. شعرت إيميلي بالوحدة، فتسكعت لبرهة، ثم خلعت قناعها، رغبةً في بعض الهواء النقي، وتوجهت إلى طاولة جانبية، حيث لفتت انتباه رجل أنيق يرتدي زي دومينو، فاقترب منها وبدأ الحديث معها. بعد حديث قصير، أبرزت فيه إميلي بلا شك طيبتها وبساطتها أكثر من ذكائها، بدأ الرجل الذي يرتدي زي الدومينو بمغازلتها بعنف، وجذبها دون وعي إلى بعض المقاعد في الطرف السفلي من غرفة التنكر، وأجلسها بجانبه، حيث ضغط على يديها، وقرص خديها، وأثنى على شعرها الجميل ولعب به، وأعجب ببشرتها، كل ذلك بأسلوب مغازلة ممزوج بشيء من الغرابة، والتي لم تفهم إميلي المسكينة سرها، وعزته إلى انسجامه مع تنكرها؛ ولأنها بطبيعتها ليست من أقسى رجال مهنتها، بدأت تميل إلى الحديث عن تلك الأمور الجوهرية. ولكن هنا كان جوهر المزحة: لقد ظنها حقًا كما تبدو، صبيًا يرتدي زيًا تنكريًا؛ وهي، ناسية فستانها، وبالطبع بعيدة كل البعد عن أفكاره، اعتبرت كل تلك المجاملة موجهة إليها كامرأة، وهو ما تدين به تحديدًا لعدم اعتباره إياها كذلك. إلا أن هذا الخطأ المزدوج بلغ ذروته من كلا الجانبين، حتى أن إميلي، التي لم ترَ فيه سوى رجلٍ أنيقٍ بفضل أناقته التي لم تتجلى في تنكره، وقد أسعدها الخمر الذي أسداها إياها، والمداعبات التي أغدقها عليها، سمحت لنفسها بالذهاب معه إلى الحمام. وهكذا، متجاهلةً تحذيرات السيدة كول، وبثقةٍ عمياء، وضعت نفسها بين يديه، ليأخذها حيثما شاء. أما هو، فقد أعمته رغباته، وبينما ساعدته بساطته المفرطة على خداعه أكثر من أي حيلةٍ بارعة، فقد ظن، بلا شك، أنه وجد فتاةً ساذجةً وديعةً، مناسبةً لغرضه، أو خادمةً مطيعةً له، تفهمه تمامًا، وتدخل في مخططاته. ولكن، مهما يكن، فقد قادها إلى عربة، وركب معها، وأوصلها إلى غرفةٍ أنيقةٍ للغاية، بها سرير. لكنها لم تستطع الجزم إن كان حمامًا أم لا، إذ لم تتحدث إلى أحد سواه. ولكن عندما انفردا معًا، وبدأ حبيبها بالتحرك نحو تلك الأطراف التي تكشف عن جنسه على الفور، علّقت قائلةً:لا يمكن لأي وصف أن يجسد الحياة، ذلك المزيج من الغضب والارتباك وخيبة الأمل الذي بدا على وجهه، مصحوبًا بصيحة حزينة: "يا إلهي، امرأة!" فتح هذا عينيها على الفور، اللتين كانتا مغمضتين من فرط الغباء. ومع ذلك، وكأنه أراد استعادة ذلك الشعور، استمر في مداعبتها والتحرش بها، لكن بتحول صارخ من الدفء الشديد إلى البرودة والتهذيب المصطنع، حتى أن إميلي نفسها لم يسعها إلا أن تلاحظ ذلك، وبدأت الآن تتمنى لو أنها أوصت أكثر بتحذيرات السيدة كول من

التعامل مع أي غريب. والآن، تحوّل خجلها المفرط إلى ثقة مفرطة، وظنّت نفسها تحت رحمته وحكمته، فظلّت خاملة طوال مداعبته لها. فسواءٌ أكان جمالها الفائق قد جعله يغفر لها كونها امرأة، أم أن مظهرها وقوامها في ذلك الفستان ما زالا يثيران إعجابه الأول، فقد استعاد تدريجيًا جزءًا كبيرًا من دفئه الأول، وأبقى إميلي بسروالها مفتوحًا، ثمّ نزعه عنها حتى ركبتيها، ودفعها برفق إلى الانحناء ووجهها على جانب السرير، ووضعها بحيث أتاح له الطريق المزدوج، بين النهوض المزدوج من الخلف، فرصةً سانحةً، وكان مندفعًا نحوها لدرجة أنه أثار قلقها خشية أن تفقد عذريتها التي لم تكن تحلم بها. ومع ذلك، فإنّ شكواها ومقاومتها اللطيفة، ولكن الحازمة، أوقفته وأعادته إلى رشده. لذلك، أدار رأس جواده، وقاده في النهاية إلى الطريق الصحيح، حيث ربما استغل خياله تلك التشابهات التي أغرت ذوقه، فوصل، بعد عناء كبير، إلى نهاية رحلته: وبعد ذلك، أخرجها بنفسه، وسار معها مسافة شارعين أو ثلاثة، وأحضر لها كرسيًا، وعندما صنع لها هدية لم تكن أقل مما كانت تتوقعه، تركها، وقد أوصى بها جيدًا لرؤساء الكراسي، الذين، بناءً على توجيهاتها، أعادوها إلى المنزل.أو سواء كان مظهرها أو قوامها في ذلك الفستان لا يزال يروق لوهمه الأول، فقد استعاد تدريجياً جزءاً كبيراً من دفئه الأول، وأبقى إميلي وسروالها لا يزال مفتوحاً، ثم خلعه حتى ركبتيها، ودفعها برفق إلى الانحناء، ووجهها على جانب السرير، ووضعها بحيث كان الطريق المزدوج، بين الرفع المزدوج من الخلف، يقدم له الخيار المناسب، وكان مندفعاً بشكل واضح نحو اتجاه خاطئ، لدرجة أنه أثار قلق الفتاة خوفاً من فقدان عذريتها التي لم تكن تحلم بها. ومع ذلك، فإن شكواها، ومقاومتها اللطيفة ولكن الحازمة، أوقفته وأعادته إلى نفسه مرة أخرى؛ لذلك، أدار رأس جواده، وقاده في النهاية إلى الطريق الصحيح، حيث ربما استغل خياله تلك التشابهات التي أغرت ذوقه، فوصل، بعد عناء كبير، إلى نهاية رحلته: وبعد ذلك، أخرجها بنفسه، وسار معها مسافة شارعين أو ثلاثة، وأحضر لها كرسيًا، وعندما صنع لها هدية لم تكن أقل مما كانت تتوقعه، تركها، وقد أوصى بها جيدًا لرؤساء الكراسي، الذين، بناءً على توجيهاتها، أعادوها إلى المنزل.أو سواء كان مظهرها أو قوامها في ذلك الفستان لا يزال يروق لوهمه الأول، فقد استعاد تدريجياً جزءاً كبيراً من دفئه الأول، وأبقى إميلي وسروالها لا يزال مفتوحاً، ثم خلعه حتى ركبتيها، ودفعها برفق إلى الانحناء، ووجهها على جانب السرير، ووضعها بحيث كان الطريق المزدوج، بين الرفع المزدوج من الخلف، يقدم له الخيار المناسب، وكان مندفعاً بشكل واضح نحو اتجاه خاطئ، لدرجة أنه أثار قلق الفتاة خوفاً من فقدان عذريتها التي لم تكن تحلم بها. ومع ذلك، فإن شكواها، ومقاومتها اللطيفة ولكن الحازمة، أوقفته وأعادته إلى نفسه مرة أخرى؛ لذلك، أدار رأس جواده، وقاده في النهاية إلى الطريق الصحيح، حيث ربما استغل خياله تلك التشابهات التي أغرت ذوقه، فوصل، بعد عناء كبير، إلى نهاية رحلته: وبعد ذلك، أخرجها بنفسه، وسار معها مسافة شارعين أو ثلاثة، وأحضر لها كرسيًا، وعندما صنع لها هدية لم تكن أقل مما كانت تتوقعه، تركها، وقد أوصى بها جيدًا لرؤساء الكراسي، الذين، بناءً على توجيهاتها، أعادوها إلى المنزل.

أخبرتني السيدة كول بهذا في صباح اليوم نفسه، ولم تخفِ آثار الخوف والارتباك التي كانت تعتريها، والتي لا تزال بادية على وجهها. قالت السيدة كول إن تهورها نابع من طبيعة بشرية، ولا أمل يُرجى في شفائها منه إلا بتكرار التجارب القاسية. أما أنا، فلم أستطع أن أتصور كيف يُمكن للبشر أن يقعوا في فخ ذوقٍ ليس فقط بغيضًا عالميًا، بل سخيفًا، ومستحيل الإشباع؛ إذ إنني، وفقًا لمفاهيمي وخبرتي، لا أرى في الطبيعة مثل هذه الاختلالات الهائلة. ابتسمت السيدة كول لجهلي، ولم تُعلّق على غفلتي، التي لم تتضح إلا بعد أشهر، حين رأيتها بأم عيني، بفضل حادثة غريبة، سأذكرها هنا حتى لا أعود إلى هذا الموضوع المزعج.

كنتُ في زيارةٍ مُرتقبةٍ لهارييت، التي كانت تقيم في هامبتون كورت، وقد استأجرتُ عربةً للذهاب إلى هناك، إذ وعدتني السيدة كول بمرافقتي. ولكن لظرفٍ طارئٍ حال دون ذلك، اضطررتُ للانطلاق وحدي. وما كدتُ أقطع ثلث الطريق حتى تعطل محور العربة، وتمكنتُ من النزول سالمًا معافىً إلى حانةٍ على الطريق، ذات مظهرٍ لائقٍ نوعًا ما. أخبرني الناس هناك أن الحافلة ستصل خلال ساعتين على أقصى تقدير، فقررتُ انتظارها بدلًا من تضييع هذه الرحلة التي قطعتُ فيها

شوطًا طويلًا. حُملتُ إلى غرفةٍ نظيفةٍ ومرتبةٍ، بعد صعود درجتين، وبقيتُ فيها طوال مدة إقامتي، لأتمكن من طلب ما يكفي لإرضاء ذوقي.

بينما كنتُ أُسلّي نفسي بالنظر من النافذة، توقفت عربة تجرها الخيول عند الباب، وقفز منها شابان بخفة، كما بدا، دخلا فقط للاستراحة قليلاً، إذ تركا حصانهما جاهزاً لحين خروجهما. وبعد لحظات سمعتُ صوت باب الغرفة المجاورة، حيث سُمح لهما بالدخول، فناديتُ عليهما بسرعة؛ وما إن انتهيا من خدمتهما، حتى سمعتُ صوت إغلاق الباب من الداخل.

دفعني فضولٌ، لم يكن مفاجئًا، إذ لا أدري متى غاب عني، دون أي شكٍّ أو دافعٍ أو غايةٍ محددة، إلى معرفة ماهيتهم، وفحص شخصياتهم وسلوكهم. كان الحاجز الفاصل بين غرفنا من النوع المتحرك الذي يُزال أحيانًا ليُدمج الغرفتين في غرفة واحدة، لراحة مجموعة أكبر؛ والآن، لم يُظهر لي بحثي الدقيق أيّ أثرٍ لثقبٍ صغير، وهو أمرٌ ربما لم يغب عن أعين الجالسين على الجانب الآخر، الذين كان من المهم ألا ينخدعوا به؛ ولكنني لاحظتُ أخيرًا رقعةً ورقيةً من نفس لون الجدار الخشبي، ظننتُ أنها تُخفي عيبًا ما؛ ولكنها كانت مرتفعةً جدًا، فاضطررتُ للوقوف على كرسيٍّ لأصل إليها، وهو ما فعلتُه برفقٍ قدر الإمكان، وبطرف إبرةٍ، ثقبتُها سريعًا، وفتحتُ لنفسي مساحةً كافيةً للتجسس. والآن، وأنا أغمض عيني، سيطرت على الغرفة تماماً، واستطعت أن أرى شرارتي الصغيرتين وهما تلهوان وتجذبان بعضهما البعض، تماماً كما تخيلت، في لهو ولعب بريء.

أما الأكبر سناً، حسب تخميني الأقرب، فقد يكون في التاسعة عشرة من عمره تقريباً، شاب طويل القامة ووسيم، يرتدي ثوباً أبيض من قماش الفستان، مع عباءة مخملية خضراء، وشعر مستعار قصير.

أصغرهم لم يكن يتجاوز السابعة عشرة من عمره، أشقر، وردي، حسن البنية تماماً، وبصراحة، كان فتى جميلاً ولطيفاً: كما أعتقد أنه كان فتى ريفياً، من خلال ملابسه، التي كانت عبارة عن فستان مخملي أخضر، وسروال من نفس النوع، وسترة بيضاء وجوارب، وقبعة فارس، مع شعره الأصفر الطويل والمنسدل، في تجعيدات طبيعية.

لكن بعد نظرة حذرة، رأيت الأكبر يلقيها في كل اتجاه حول الغرفة، ربما بسبب التسرع والحرارة الشديدة لدرجة أنه لم يغفل عن الفتحة الصغيرة جدًا التي كنت متمركزًا عندها، خاصة مع ارتفاعها، بينما كانت عيني قريبة منها تمنع الضوء من التسلل وكشفها، قال شيئًا لرفيقه غيّر مجرى الأمور على الفور.

في تلك اللحظة، بدأ الأكبر سناً في احتضان الأصغر سناً، والضغط عليه وتقبيله، ووضع يديه في صدره، وإعطائه علامات واضحة على نية غرامية، مما جعلني أستنتج أن الآخر فتاة متنكرة: خطأ أبقتني الطبيعة متسامحة معه، لأنها بالتأكيد ارتكبت خطأ عندما أعطته الطابع الذكوري.

في تهور عصرهم آنذاك، وبإصرارهم على إنجاز مشروعهم المتمثل في المتعة السخيفة، على حساب أسوأ العواقب، حيث كان الاكتشاف أمراً مستبعداً للغاية، فقد مضوا قدماً إلى حدٍّ جعلني أدرك سريعاً حقيقتهم.

في تلك اللحظة، فكّ الأكبر أزرار سروال الآخر، وأزال الحاجز الكتاني، فظهر قضيب أبيض متوسط الحجم، بالكاد مكتمل النمو. وبعد أن لمسه ولعب به قليلاً، مع بعض المداعبات الأخرى، التي استقبلها الصبي دون أي معارضة سوى بعض الخجل الماكر، الذي كان أكثر جاذبية منه إثارة للاشمئزاز بعشر مرات، أداره بحيث أصبح وجهه بعيدًا عنه، وجلس على كرسي قريب. ولما عرف، على ما أظن، وظيفته، أسند غانيميد رأسه بخضوع على ظهر الكرسي، ومدّ جسده، تاركًا أثرًا واضحًا، لا يزال مغطى بقميصه. وبينما كان يقف هكذا في منظر جانبي لي، لكنه يواجه رفيقه، الذي كشف عن بطاريته، فأخرج محركًا يستحق بالتأكيد أن يُستخدم استخدامًا أفضل، ومناسبًا جدًا لتأكيد عدم تصديقي لإمكانية حدوث أشياء؛ تُدفع إلى أقصى الحدود البغيضة، التي بنيتها على عدم تناسب الأجزاء؛ لكن هذا الشك قد شفيتُ منه الآن، كما ينبغي أن يشفى جميع الشباب بموافقتي، حتى لا تقع براءتهم في مثل هذه الفخاخ، لعدم معرفتهم بمدى الخطر الذي يهددهم: فليس هناك شيء أكثر يقيناً من أن الجهل بالنصيحة ليس بأي حال من الأحوال وقاية من ذلك.

ثم أزاح قميص الفتى الصغير جانبًا، ودسه تحت ملابسه من الخلف، فكشف للهواء الطلق عن تلك النتوءات الكروية اللحمية التي تُشكل جبل الفلاحين في روما، والتي بدت الآن، مع كل الوادي الضيق الذي يقطعها، مكشوفة وعرضة لهجومه؛ ولم أستطع أنا أيضًا، دون أن أرتجف، أن أرى ما فعله من أجلها. أولًا، بلل أداته جيدًا بلعابه، ليجعلها زلقة على ما يبدو، ثم أشار بها، وأدخلها، كما استطعت أن أميز بوضوح، ليس فقط من اتجاهها وفقداني لرؤيتها، ولكن من خلال التواء الفتى الصغير وحركاته المتلوية وهمهماته الخافتة؛ ولكن في النهاية، وبعد أن اجتازت الممرات الأولى للدخول بسهولة، بدا كل شيء يتحرك ويسير بسلاسة، كما لو كان على طريق مفروش، دون احتكاك أو مقاومة تُذكر؛ والآن، مرر إحدى يديه حول وركي أتباعه، وأمسك بلعبته العاجية ذات الرأس الأحمر، التي كانت منتصبة تمامًا، وأظهر أنه إذا كان يشبه أمه من الخلف، فهو يشبه والده من الأمام؛ تسلى بهذا، بينما كان يداعب شعره باليد الأخرى، وانحنى للأمام فوق ظهره، وسحب وجهه، الذي هز الصبي خصلات شعره المتدلية عليه، في الوضع الذي أوقفه فيه، وجذبه نحوه، ليتلقى قبلة طويلة؛ وبعد ذلك، جدد دفعه، واستمر في مضايقة مؤخرته، فظهرت علامات ارتفاع القبضة المعتادة، وأنهى الفعل.

لقد تحليت بالصبر الكافي لأرى مسرح الجريمة الذي مثّلوه حتى النهاية، وذلك فقط لأجمع المزيد من الحقائق والأدلة القاطعة ضدهم في سبيل تحقيق العدالة الفورية التي يستحقونها. وبناءً على ذلك، عندما استعادوا توازنهم وكانوا يستعدون للخروج، كنتُ أغلي غضبًا وسخطًا، فقفزتُ من على الكرسي لأُثير ضجة كبيرة حولهم، ولكن بتهورٍ مؤسف، علقت قدمي بمسمار أو نتوء في الأرض، فسقطتُ على وجهي بقوةٍ شديدة، وسقطتُ فاقدًا للوعي على الأرض، وبقيتُ هناك لبعض الوقت قبل أن يأتي أحدٌ لنجدتي. ولذلك، أظن أنهم، وقد فزعوا من صوت سقوطي، كان لديهم متسعٌ من الوقت للانسحاب بأمان. وقد فعلوا ذلك، كما علمتُ، بتسرع لا يُمكن تفسيره، إلى أن استعدتُ وعيي، وتمكنتُ من الكلام، فأخبرتُ الحاضرين بكل ما حدث وكُنتُ شاهدًا عليه.

عندما عدتُ إلى المنزل وأخبرتُ السيدة كول بهذه المغامرة، لاحظتْ لي بحكمةٍ بالغةٍ أنه "لا شك في أن الانتقام المستحق سيطال هؤلاء المجرمين عاجلاً أم آجلاً، مهما كانت طريقة إفلاتهم في الوقت الراهن؛ وأنه لو كنتُ أنا الأداة الزمنية لذلك، لكنتُ سأواجه متاعب وارتباكًا أكبر بكثير مما كنتُ أتخيل؛ وأنه فيما يتعلق بالأمر نفسه، فمن الأفضل عدم الخوض فيه؛ ولكن على الرغم من أنه قد يُشتبه في تحيزها، لكونها قضية مشتركة بين النساء، اللواتي تميل هذه الممارسة إلى انتزاع أكثر من مجرد الخبز من أفواههن، إلا أنها احتجت على أي مزيج من العاطفة، بتصريح انتُزع منها بدافع الحرص على الحقيقة؛ وهو أنه مهما كان تأثير هذه العاطفة الشائنة في عصور أخرى وبلدان أخرى، فقد بدت نعمةً غريبةً على هوائنا ومناخنا، أن هناك بقعة وباء مطبوعة بوضوح على كل من تلوث بها، في هذه الأمة على الأقل، وذلك من بين عدد من هؤلاء الذين عرفتهم، أو على الأقل، كانوا جميعًا موضع شبهة فاضحة بسبب ذلك، ولم تذكر استثناءً تقريبًا لأي منهم، ممن لم تكن شخصياتهم، من جميع النواحي الأخرى، الأكثر انحطاطًا وحقارة؛ مجردين من جميع الفضائل الرجولية لجنسهم، ومملوءين فقط بأسوأ الرذائل والحماقات لدينا؛ باختصار، كانوا بالكاد أقل بشاعة من كونهم مثيرين للسخرية في تناقضهم الفظيع، من كراهية واحتقار النساء، وفي الوقت نفسه تقليد جميع عاداتهن، وتصرفاتهن، ولثغتهن، وحركاتهن، وبشكل عام، جميع أساليبهن الصغيرة في التصنع، والتي تليق بهن على الأقل بشكل أفضل مما يفعلن مع هؤلاء الذكور غير المؤنثين.

لكن ها أنا ذا، وقد تخلصت من كل ذلك، أعود لأغوص في مجرى تاريخي، الذي قد أضمّنه، عن جدارة، حادثة لويزا المروعة، إذ كان لي فيها نصيب، وقد التزمت برواياتها، تضامنًا مع إميلي المسكينة. وسيضيف ذلك أيضًا مثالًا آخر لآلاف النساء، مؤكدًا المقولة الشائعة بأن النساء إذا ما خرجن عن السيطرة، فلا حدود للفجور لديهن.

في صباح أحد الأيام، بعد أن خرجت كل من السيدة كول وإيميلي طوال اليوم، ولم يبقَ سوى أنا ولويزا (ناهيك عن الخادمة) مسؤولتين عن المنزل، وبينما كنا نتسكع ونقضي الوقت في النظر من خلال واجهات المحلات، عرض علينا ابن امرأة فقيرة، كانت تكسب قوتها بصعوبة بالغة من إصلاح الجوارب، في كشك في الحي، بعض باقات الزهور، مرتبة حول سلة صغيرة؛ كان الصبي المسكين

يكسب منها ما يكفي لإعالة والدته لهما: ولم يكن مؤهلاً لأي طريقة أخرى لكسب العيش، لأنه لم يكن مجرد طفل معتوه، أو أبله، بل كان يتلعثم لدرجة أنه لم يكن من الممكن فهم حتى تلك الأصوات التي كانت أفكاره عن ستة حيوانات على الأكثر تدفعه إلى التلفظ بها.

أطلق عليه الصبية والخدم في الحي لقب ديك الطيب القلب، نظراً لبساطته وطاعته لكل ما يُطلب منه من أول كلمة، ولأنه بطبيعته لا يميل إلى إثارة المشاكل؛ ثم، بالمناسبة، كان يتمتع ببنية جسدية ممتازة، قوي البنية، ذو أطراف نظيفة، طويل القامة بالنسبة لعمره، قوي كالحصان، بالإضافة إلى ملامحه الجميلة؛ لذلك لم يكن، على الإطلاق، شخصاً يُستهان به، إذا كان بإمكانك، من أجل هذه الأساسيات، التغاضي عن وجه غير مغسول، وشعر أشعث لعدم تمشيطه، ومظهر رث لدرجة أنه كان بإمكانه مناقشة نقاط المظهر مع أي فيلسوف وثني على الإطلاق.

هذا الصبي كنا نراه كثيراً، ونشتري منه الزهور بدافع الشفقة الخالصة، لا أكثر؛ ولكن في هذه اللحظة بالذات، بينما كان يقف ليقدم لنا سلته، انتاب لويزا نزوة مفاجئة، وانطلاقة من خيال جامح؛ ودون استشارتي، نادته، وبدأت تفحص باقاته، وانتقيت اثنتين، واحدة لنفسها، وأخرى لي، وسحبت نصف تاج، وأعطته إياه على الفور ليغيره، كما لو أنها كانت تتوقع حقاً أنه قادر على تغييره: لكن الصبي، وهو يحك رأسه، جعل إشاراته تشرح عجزه بدلاً من الكلمات، التي لم يستطع، رغم كل محاولاته، التعبير عنها.

عندها قالت لويزا: "حسنًا يا بني، اصعد معي إلى الطابق العلوي، وسأعطيك حقك"، وهي تغمز لي في نفس الوقت، وتشير إليّ لمرافقتها، وهو ما فعلته، حيث قمت أولاً بتأمين باب الشارع، الذي أصبح بهذه الطريقة، إلى جانب المتجر، تحت رعاية الخادمة المخلصة بالكامل.

بينما كنا نصعد، همست لي لويزا قائلةً: "لقد انتابها شوقٌ غريبٌ لمعرفة ما إذا كانت القاعدة العامة تنطبق على هذا الطفل المتغير، وإلى أي مدى عوضته الطبيعة، بأفضل مواهبها الجسدية، عن حرمانها من المواهب الفكرية الأسمى؛ ابدأي، في الوقت نفسه، بمساعدتي في تحقيق هذا الشوق لها." لم يكن عدم الرضا عيبًا فيّ قط، وكنت بعيدًا كل البعد عن معارضة هذه اللهو المفرط، حتى أنني الآن، وقد لدغتني نفس الدودة، وتآمر فضولي مع فضولها، انخرطت فيه بكل جوارحي، من أجلي الخاص.

وبالتالي، ما إن دخلنا غرفة نوم لويزا، بينما كانت تُسلّيه بانتقاء باقات الزهور، حتى أخذت زمام المبادرة وبدأتُ بالهجوم. ولأنه لم يكن من المهم حينها مراعاة مشاعره الطبيعية، انطلقتُ معه بحرية، مع أن دهشته وارتباكه في أول محاولة لي جعلته يستقبلني بتردد، بل إنه تراجع بخجل، وتراجع قليلاً، إلى أن شجعته بنظراتي، وجذبت شعره بمرح، ودلكت خديه، وأكدتُ له بحركاتٍ صغيرةٍ مرحة، حتى استطعتُ أن أجعله يشعر بالراحة، وأثيرت فيه مشاعره. وهكذا، بعد أن استيقظ وبدأ يشعر بنفسه، استطعنا، وسط كل الضحكات والابتسامات البريئة التي أثرتها فيه، أن نرى الشرارة تشتعل في عينيه، وتنتشر على خديه، وتمتزج بتوهجها مع احمرار وجنتيه. كانت مشاعر اللذة، التي تكاد تكون حيوانية، واضحةً جليّةً على وجه الأحمق؛ ومع ذلك، فقد أذهلته غرابة المشهد، فلم يدرِ كيف ينظر أو يتحرك؛ لكنه ظلّ وديعًا، سلبيًا، مبتسمًا ابتسامةً خفيفة، وفمه نصف مفتوح، في نشوةٍ بلهاء، واقفًا مطيعًا، تاركًا لي حرية التصرف به كما أشاء. سقطت سلته من يديه، فتولت لويزا أمرها.

لقد اكتشفتُ الآن، من خلال أكثر من شق، فخذيه ولمستهما، وبدا جلدهما أنعم وأكثر بياضًا بسبب خشونة ملابسه، بل وحتى بسبب اتساخها، كما تبدو أسنان الزنوج أكثر بياضًا بسبب سوادها المحيط؛ ورغم أنه كان فقيرًا في عاداته وفهمه، إلا أنه كان غنيًا جدًا بكنوز شخصية، مثل جسده المتماسك والممتلئ بعصير الشباب، وأطرافه القوية المترابطة. وقد وصلت أصابعي أيضًا إلى النبات الحساس الحقيقي، الذي بدلًا من أن ينكمش من اللمسة، يفرح بلقائها، وينتفخ وينمو تحتها: أخبرتني أصابعي بسرور أن الأمور كانت ناضجة جدًا للاكتشاف الذي كنا نفكر فيه، وأنها كانت أقوى من أن تُقيدها القيود التي كانت على وشك كسرها. حزام خصر فككته، وقميص بالٍ نزعته، لم يكن ليغطي ربعه، كشف عن راية تميز الأحمق كاملةً، منتصبةً، في كامل فخرها واستعراضها: لكن يا لها من راية! لقد

كانت ضخمةً للغاية، لدرجة أننا، رغم استعدادنا لرؤية شيء غير عادي، تجاوزت توقعاتنا بشكلٍ كبير، وأذهلتني أنا أيضاً، الذي لم يعتد على التعامل مع الأشياء التافهة. باختصار، كان من الممكن أن تكون مناسبةً تماماً لصنع سيخ؛ بدا رأسها الضخم، بلونه وحجمه، لا يختلف كثيراً عن قلب خروف عادي؛ ثم كان من الممكن رمي النرد بأمان على طول ظهرها العريض؛ كان طولها أيضاً هائلاً؛ ثم ساعد ملحق كيس الكنز الغني الموجود أسفلها، كبير الحجم، والمتجمع والمقرمش في أخاديد ضحلة، على ملء العين، وإكمال الدليل على أنه كان أحمق بالفطرة، ليس عبثاً تماماً؛ إذ كان جلياً أنه ورث، وبشكل كبير أيضاً، امتياز الجلالة الذي يميز تلك الحالة المؤسفة، مما أدى إلى ظهور المثل الشعبي "زينة الأحمق رفيق لعب السيدة". ليس هذا المثل بلا سبب: ففي الحب، كما في الحرب، يكون السلاح الأقوى هو الأقوى. باختصار، لقد أنعمت عليه الطبيعة بالكثير في تلك الجوانب، حتى أنها ربما اعتبرت نفسها معفاة من المسؤولية لتقصيرها في حماية رأسه.

أما أنا، الذي لم تكن لديّ أي نية صادقة لدفع المزحة إلى أبعد من مجرد إشباع فضولي برؤيتها فقط، فقد كنت راضياً، على الرغم من الإغراء الذي كان يحدق بي، برفع عمود مايو ليعلق عليه آخر إكليلاً: لأنه في ذلك الوقت، كنت أقرأ بسهولة رغبات لويزا في عينيها المتمنين، فتصرفت بدور المتعاون، وقدمت لها، التي لم تكن تبحث عن رياضة أفضل، شروطاً مهمة للتشجيع على خوض مغامرتها؛ وأشرت أيضاً إلى أنني سأبقى وأرى اللعب النظيف: وهو ما كنت أهدف إليه بالفعل لإرضاء فضول وليد، لمراقبة المظاهر التي ستضعها الطبيعة النشطة في سياق عملها المحبوب.

لويزا، التي كانت شهيتها مفتوحة، والتي، كالنحلة الدؤوبة، لم تكن، على ما يبدو، تتورع عن جمع حلاوة زهرة نادرة كهذه، حتى وإن وجدتها مزروعة على كومة روث، كانت مستعدة للغاية للاستفادة من تنازلي. مدفوعةً بشدة برغباتها، ومتشجعةً بي، قررت على الفور أن تخاطر باختبار قدراتها مع ذلك الأحمق، الذي كان في ذلك الوقت قد أُثير بشدة لغرضها، بكل ما استخدمناه من إثارة لتفعيل مبادئ المتعة بشكل فعال، ولرفع مستوى أعضائه إلى أقصى حد؛ ووقف على هذا النحو متصلبًا ومتوترًا، على وشك الانفجار بالدم والأرواح التي ملأته... إلى كتلة! لا! لن أنسى ذلك أبدًا.

ثم أمسكت لويزا بالمقبض الرقيق الذي قدم نفسه بشكل مغرٍ، وقادت الشاب المطيع، بواسطة تلك الأداة الرئيسية الخاصة به، بينما كانت تتراجع إلى الوراء نحو السرير؛ والذي استسلم له بفرح، تحت تأثير الغريزة، وسلم نفسه بشكل واضح لإغراء الرغبة.

توقفت عند السرير، واتخذت وضعية السقوط التي أحبتها، وانحنت للخلف برفق، متمسكة بما تمسك به، وحرصت على رفع ملابسها قليلاً، فظهرت فخذاها مرفوعتان، كاشفتان عن كنز الحب: فمشهد شفتيها الورديتين يُظهر مشهدًا خلابًا، لا يمكن حتى لعاشق أن يفوته. ولم يفته هو أيضًا: فلويزا، المصممة على الاشتباك معه، والتي لا تصبر على المماطلة أو التأخير، وجهت رأسها بثبات، وانطلقت بشغف جامح، لتستقبل وتدعم دفع الإيلاج، حتى أن النشاط العنيف من كلا الجانبين تسبب في ألم شديد، فصرخت لويزا بعنف، وقالت إنها تألمت ألمًا لا يُطاق، وأنها ماتت. لكن الوقت كان قد فات: فقد هبت العاصفة، وأُجبرت على الاستسلام لها. في تلك اللحظة، شعر الرجل الآلي، الذي أثّرت فيه الشهوة بقوة، بمزاياه وتفوقه بكل جرأة، وشعر في الوقت نفسه بلسعة لذة لا تُطاق، حتى أن أفراحه، التي أزعجتني بشدة، بدأت تتخذ طابعًا من الغضب الجامح، مما جعلني أرتجف على لويزا الرقيقة جدًا. بدا، في تلك اللحظة، أعظم من نفسه؛ وجهه، الذي كان خاليًا من المعنى أو التعبير، أصبح الآن يمتلئ بأهمية الفعل الذي كان يقوم به. باختصار، لم يكن من الممكن الاستهزاء به الآن. ولكن، ما هو مُرضٍ بما فيه الكفاية، هو أنني شعرتُ بنوع من الرهبة تجاهه، بسبب الرعب الجميل الذي كانت حركاته تُلبسه إياه: عيناه تُطلقان شرارات من نار؛ وجهه يتوهج بحماسة منحته حياة أخرى؛ أسنانه تصرّ. كان جسده كله يهتز باندفاع جامح لا يمكن السيطرة عليه، كاشفًا بوضوح عن الشراسة الهائلة التي تحركت بها غريزته الفطرية. ثم بدأ ينطح ويطعن كل ما أمامه، كثور هائج، يحرث الأرض الرقيقة غير آبهٍ بشكاوى لويزا؛ لا شيء يستطيع إيقافه، لا شيء يستطيع كبح جماح غضبه: الذي ما إن استشرى حتى انطلق غضبه الأعمى، مخترقًا وممزقًا ومحطمًا كل عائق. الفتاة الممزقة، الجريحة، تبكي، وتكافح، وتستغيث بي لإنقاذها، وتحاول التخلص من تحت الشاب المتوحش، أو التخلص منه، ولكن عبثًا! كان من الممكن أن يكون لأنفاسها القوة الكافية لإخماد

هجومه العنيف، أو إيقافه عن مساره. وبالفعل، كانت كل جهودها ونضالاتها تُدار بفوضى عارمة، حتى أنها زادت من تشابكها وضمها إلى قبضته العنيفة؛ فكانت كأنها مربوطة إلى الوتد، ومُجبرة على القتال حتى النهاية، إن كان ذلك يعني موتها. أما هو، فقد كانت غرائزه تتحكم به، وكانت تعابير شهوته الحيوانية، التي اتسمت بشيء من الشراسة، أكثر إثارة للقلق من القبلات، ممزوجة بعضات حبٍّ شرسة على خديها ورقبتها، والتي لم تتلاشَ آثارها لأيام بعد ذلك.

لكن لويزا المسكينة تحملت في النهاية أفضل مما كان متوقعًا: ورغم أنها عانت، بل معاناة شديدة، إلا أنها، وفاءً منها للقضية القديمة، عانت بسرور واستمتعت بألمها. وسرعان ما، بفعل قوة عاتية، عادت الآلة الوحشية، مدفوعة كالإعصار، لتُشعل الدخان من جديد، وشقت طريقها إلى أقصى حد، ولم تترك لها، من حيث الاختراق، ما تخشاه أو ترغب فيه: والآن،

"ممتلئ بأثمن لقمة على وجه الأرض"
)شكسبير.(

استلقت لويزا، مسرورة من أعماق قلبها، مسرورة إلى أقصى حد ممكن، وكل عصب في تلك الأجزاء، ممتدًا تقريبًا إلى حد التمزق، على رف من الفرح، بينما كانت أداة كل هذا الامتلاء المفرط تبحث في حواسها بفيضها الحلو، حتى اكتسبت المتعة عليها، ووخزتها نقطتها بشدة، لدرجة أنها التقطت أخيرًا غضب سائقها الغاضب وشاركته في نشوته الجامحة، فخرجت تمامًا عن عقلها إلى ذلك الجزء المفضل من جسدها، الذي امتلأ بكل شدته وانشغل: هناك فقط كانت موجودة، غارقة تمامًا في تلك النشوات الهادرة، تلك النشوات الحسية، التي جلبتها عيناها الغامزتان، والقرمزي المتوهج لشفتيها ووجنتيها، وتنهدات المتعة العميقة، معبرة عنها بشكل مثير للشفقة. باختصار، أصبحت الآن مجرد آلة مُصنّعة، وحركاتها لا تخضع لإرادتها، تمامًا كالشخص الطبيعي نفسه، الذي اقتحم عليها، وجعلها تشعر بقوة عنفه الجامح الذي ضربها به؛ ارتجفت أحشاؤهما النشطة مرة أخرى بعنف صراعهما، حتى هبت موجة من اللذة، هائجة ومتصاعدة إلى ذروتها، لتنزل وابلًا من اللآلئ، لتهدئة هذه العاصفة. ثم ذرف الأحمق الحساس دموع الفرح التي تصاحب لحظاته الأخيرة، مصحوبة بألم من اللذة، وحتى صرخة نشوة تقريبًا، بينما انطلقت منه الدموع؛ وكان ذلك واضحًا جدًا بالنسبة للويزا، لدرجة أنها رافقته بإخلاص، وانصرفت، بموافقة، مع الأعراض القديمة: هذيان لذيذ، وارتعاشة هائلة، والموت المحتوم: آه! والآن، بعد أن انتهى، استلقت غارقة في اللذة، وهي تستعيد حلاوتها الأساسية؛ لكنها منهكة تماماً، وتلهث لالتقاط أنفاسها، دون أي إحساس آخر بالحياة سوى تلك الاهتزازات الرائعة التي لا تزال ترتجف على أوتار المتعة؛ والتي تم لمسها بشكل مكثف للغاية، والتي حركتها الطبيعة بشكل ساحر، بحيث لا تستطيع الحواس أن تهدأ بسرعة.

أما بالنسبة للمُبدَّل، الذي تم التلاعب بآليته الغريبة بنجاح، فقد كان لتغير ملامحه وإيماءاته شيء من السخرية، أو بالأحرى المأساة الكوميدية: فقد كان هناك الآن جو من الحماقة الحزينة المتألمة، مضافًا إلى حماقته الطبيعية الفارغة من المعنى والبلاهة، وهو يقف مع راية رجولته، الآن نحيلة، غير منتصبة، ساكنة، ترفرف على فخذيه، حتى أنها وصلت إلى منتصف الطريق، مروعة حتى في سقوطها، بينما تحت وطأة كآبة الروح والجسد، التي تبعت بشكل طبيعي عينيه، تارةً تنظر إلى رايته الممزقة، وتارةً ترفعها بشفقة إلى لويزا، وكأنها تطلب من يديها ما فارقها بوعي شديد، ويفتقده الآن بحزن. لكن قوة الطبيعة، التي سرعان ما عادت، بددت نوبة الضعف التي أخضعته لها قوانين المتعة العامة؛ والآن أصبحت سلته هي شغله الشاغل، والتي بحثت عنها وأحضرتها له، بينما أعادت لويزا ملابسه إلى حالتها المعتادة، وبعد ذلك ربما أسعدته أكثر بأخذ كل زهوره من يديه ودفع ثمنها له، وفقًا لسعره، أكثر مما لو أحرجته بهدية كان سيحتار في تفسيرها، وربما دفع الآخرين إلى تتبع دوافعها.

لا أعلم إن كانت قد عادت إلى الهجوم أم لا، وبصراحة، لا أعتقد ذلك. لقد أفرغت شهوتها، وأغرقت فضولها في لذة عارمة، لم يكن لها، كما اتضح، أي نتيجة سوى أن الشاب، الذي لم يحتفظ إلا بذكرى مشوشة لما حدث، كان ينساها حين يراها، ويتجه إلى المرأة التالية، مغريًا إياها، بناءً على ما سمعه، باستضافته. لم تمكث لويزا طويلًا في منزل السيدة كول (التي حرصنا، بالمناسبة، على

عدم التباهي أمامها بما فعلناه، حتى زال كل خوف من العواقب): ففي مناسبة سنحت لها لإثبات شغفها بشاب، على حساب تحفتها، وباتباعها لأخلاقها، حزمت أدوات زينةها، بعد نصف يوم من الإنذار، وذهبت معه إلى الخارج، ومنذ ذلك الحين انقطعت أخبارها تمامًا، ولم أتمكن من معرفة مصيرها.

ولكن بعد أيام قليلة من مغادرتها لنا، وفي مناسبتين خاصتين، ولعدم الإضرار بتدريبنا في مدرسة السيدة كول، وخاصة المفضلين لدينا، وبعيدًا عن أكاديميتها، حصلت بسهولة على موافقتها على قبول إميلي وأنا لحفلة ممتعة، في منزل صغير ولكنه ممتع، يملكه أحدهم ويقع ليس بعيدًا عن نهر التايمز، على جانب مقاطعة سري.

بعد أن استقر كل شيء، ولأنه كان يومًا صيفيًا جميلًا، بل من أشد أيام الصيف حرارة، انطلقنا بعد العشاء، ووصلنا إلى مكان لقائنا حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر؛ حيث هبطنا عند سفح جناح أنيق ومبهج، واصطحبنا مرافقونا إلى الداخل، وهناك شربنا الشاي ببهجة وسرور، قادنا إليهما جمال المنظر، وهدوء الطقس، ولطف فرساننا المرحين.

بعد تناول الشاي، وبعد جولة في الحديقة، اقترح علينا صاحب المنزل، الذي لم يكن يخطط لهذه الحفلة الممتعة لتكون جافة بأي حال من الأحوال، وبصراحة تامة نابعة من معرفته بمنزل السيدة كول، نظرًا لحرارة الجو الشديدة، أن نستحم معًا تحت مظلة مريحة أعدها خصيصًا لهذا الغرض، في جدول من النهر، يتصل به باب جانبي من الجناح مباشرة، حيث يمكننا أن نضمن قضاء وقتنا في الخارج بأمان ودون مقاطعة، وبأقصى قدر من الخصوصية.

إميلي، التي لم ترفض شيئًا قط، وأنا، التي لطالما استمتعت بالاستحمام، ولم يكن لديّ أي اعتراض على من يقترحه، أو على تلك المتعة التي كان من السهل تخمينها، حرصنا في هذه المناسبة على عدم مخالفة ما تعلمناه في منزل السيدة كول، ووافقنا عليه بكل لطف. وعلى الفور، عدنا إلى الجناح، الذي كان أحد أبوابه يُفضي إلى خيمة منصوبة أمامه، شكلت بسقفها المدبب حمايةً رائعةً من الشمس والطقس، وكانت أيضًا توفر لنا الخصوصية التي نتمناها. أما بطانتها، المصنوعة من قماش منقوش، فكانت تُحاكي أوراق الشجر البرية، من الأعلى إلى الجوانب، المصنوعة من نفس القماش، والمزينة بأعمدة مضلعة، تملأ الفراغات بينها مزهريات الزهور، مما أضفى على المشهد بأكمله سحرًا آسرًا أينما اتجهت.

ثم امتدت إلى عمق كافٍ في الماء، ومع ذلك احتوت على مقاعد مريحة حولها على الأرض الجافة، إما لحفظ ملابسنا، أو... أو... باختصار، لأغراض أخرى غير الاستراحة. كانت هناك طاولة جانبية أيضًا، مليئة بالحلويات والهلام وغيرها من المأكولات، وزجاجات من النبيذ والمشروبات الروحية، للتخفيف من برودة الماء أو أي دوار مهما كان سببه؛ وفي الحقيقة، يا فارسي، الذي كان يفهم *معنى "العزيز"* تمامًا، والذي كان من الممكن أن يكون مسؤولًا عن ملذات إمبراطور روماني (حتى لو لم يعجبك هذا المثال منه)، لم يترك أي مطلب للراحة أو الرفاهية دون توفيره.

ما إن ألقينا نظرة على هذا المكان الجذاب، وبعد أن رُتّبت كل شروط الخصوصية، حتى بدأنا بالتعري: شرع الشابان في خلع ملابس كلٍّ منهما، وكشفا لنا أسرارنا الشخصية التي عادةً ما تخفيها الملابس، والتي لم يكن كشفها، بطبيعة الحال، في غير صالحنا. تحركت أيدينا، بشكل آلي، نحو أكثر أجزاء أجسادنا إثارة، محجوبةً في البداية عن حافة الجرف، إلى أن أبعدناها بناءً على رغبتهما، واستخدمناها في مساعدتهما على خلع ملابسهما؛ وخلال ذلك، حدثت كل تلك التصرفات الطائشة والمرحة التي يُمكن تخيلها بسهولة.

أما بالنسبة لشرارتي، فقد كان قد خلع ملابسه سريعًا، ولم يتبق عليه سوى قميصه، الذي أشار إليّ مبتسمًا، بينما كان يتكئ عليّ بفتور، إلى طرفه الأمامي لأراقبه وهو ينتفخ أو يرتفع وينخفض، وفقًا للحركات الجامحة خلفه؛ ولكن سرعان ما استقر الأمر، لأنه خلع قميصه، وأصبح عاريًا ككيوبيد، وأراني عضوه وهو منتصب القامة، مما هيأني بالفعل لمحاولة إشباع رغباته بي على الفور؛ ولكن، على الرغم من أن رؤية حجمه الرائع كانت كافية لإشعال رغبتي، إلا أن برودة الهواء، بينما كنت أقف على هذه الحال، بالإضافة إلى رغبتي في الاستحمام أولًا، مكنتني من إبعاده وتهدئته، بالقول إن

القليل من التشويق سيزيد من حدة المتعة. وبينما كنا نقودهم ونري أصدقاءنا مثالاً على العفة، التي كانوا يبدؤون في فقدان احترامها، دخلنا مجرى النهر يداً بيد حتى وصل الماء إلى أعناقنا، حيث منحتني برودة الماء المنعشة إحساساً لذيذاً بالانتعاش من حرارة الموسم، وجعلتني أكثر حيوية، وأكثر سعادة في نفسي، وبالطبع أكثر يقظة، وأكثر انفتاحاً على الانطباعات الشهوانية.

هنا كنتُ أغتسل وألهو بالماء، أو ألعب بمرح مع رفيقتي، تاركةً إميلي تتصرف براحتها. أما رفيقي، فلم يكتفِ بجعلي أغطس في الماء حتى رأسي وأذني، بل ظلّ يرشّني بالماء ويستفزّني بكلّ الحيل الصغيرة التي يخطر بباله، والتي كنتُ أسعى جاهدةً ألا أكون مدينةً له بها. باختصار، أطلقنا العنان للمرح؛ والآن، لم يكن هناك ما يُرضيه سوى أن يُدلّل يده بالمرور على كلّ جزءٍ من جسدي، رقبتي، صدري، بطني، فخذيّ، وكلّ تلك *الأجزاء الصغيرة* التي تُثير خيالي، بحجة غسلها وفركها؛ بينما كنا نقف في الماء، الذي لم يكن أعلى من مستوى بطوننا، والذي لم يمنعه من لمس ذلك الثقب الذي يُميّز جنسنا، والذي هو مُحكم الإغلاق بشكلٍ عجيب: فأصابعه، التي كانت تُحاول عبثًا توسيعه وفتحه، لم تُدخل إليه سوى لهيبٍ أكثر من الماء، إن صحّ التعبير. في الوقت نفسه، جعلني أشعر بمحركه الخاص، الذي كان مشدودًا جيدًا لدرجة أنه يتحمل حتى العمل في الماء، ولذلك لف ذراعه حول رقبتي، وكان يحاول التغلب على ذلك التركيب القاسي الناتج عن السائل المحيط؛ وقد نجح في ذلك إلى حد جعلني أشعر بالتمدد الممتع لتلك الشفتين السفليتين، من الآلة الدافعة؛ عندما، بغض النظر عن عدم إعجابي بتلك الطريقة الغريبة من المتعة، لم أستطع إلا مقاطعته، لأصبح متفرجة معه على خطة متعة، جارية بين إميلي وشريكها؛ الذي نفد صبره من حماقات ومغازلة الحمام، فأخذ حوريته إلى أحد المقاعد على الضفة الخضراء، حيث كان يشرع بحرارة في تعليمها الفرق بين المزاح والجدية.

هناك، أجلسها على ركبته، ومرر إحدى يديه على سطح بشرتها البيضاء المصقولة الناعمة كالثلج، والتي كانت الآن تتألق ببريق ندائي مضاعف، وقدمت عند اللمس شيئًا يشبه ما قد يتخيله المرء من العاج المتحرك، خاصة في تلك الكرات ذات الحلمات الياقوتية، والتي يعشقها اللمس ويسعد بمداعبتها، وباليد الأخرى كان يستكشف بشهوة سر الطبيعة الحلو، من أجل إفساح المجال لقطعة مهيبة من الآلات، والتي انتصبت بين فخذيها، بينما استمرت في الجلوس على حجره، وضغطت بشدة من أجل الإيلاج الفوري، والذي تظاهرت إميلي الرقيقة، في نوبة من المرح المطول اللذيذ، برفضه، وتجنب المتعة التي كانت تتوق إليها، ولكن بأسلوب من التمرد، تم وضعه وإدارته بشكل جميل، مما جعله أكثر إيلامًا بعشر مرات؛ ثم عبرت عيناها، وسط أرقّ أنواع الوهن المحتضر، عن إنكار ساخر ورغبة جامحة، بينما كانت حلاوتها ممزوجة بخجل مثير للمتعة، وكانت محاولاتها لإبعاده جذابة للغاية، لدرجة أنها ضاعفت الغضب الجامح الذي غمرها به بالقبلات: وقبلات بدت وكأنها تخجل منها أو تتصارع من أجلها، لكنّ ذلك الماكر الفاسق دبر ردودًا ماكرة، كانت بلا شك أحلى بسبب النشوة التي منحتها إياها، نشوة الاغتصاب المسروق.

وهكذا، فإن إميلي، التي لم تكن تعرف أي فن سوى ما أوحته لها الطبيعة نفسها، لصالح غايتها الرئيسية، وهي المتعة، فن الاستسلام، تظاهرت به بالفعل، لكنها تظاهرت به لتحقيق الغرض؛ فمع كل توترها ومصارعتها وسعيها للتحرر من قبضة ذراعيه، كانت أكثر حكمة من أن تعني ذلك، لدرجة أنه في صراعاتها، كان من الواضح أنها لا تهدف إلى أكثر من زيادة نقاط التلامس معه، وتقريب الطيات التي كانت تربطهما في كل مكان، مثل خيطين من الكرمة يتشابكان: معًا: بحيث أن نفس التأثير، كما هو الحال عندما سعت لويزا بجدية للتحرر من الأحمق، قد تم إنتاجه الآن بدوافع مختلفة.

في هذه الأثناء، تسبب خروجهم من الماء البارد في توهج عام، وانتشار رقيق من لون القرنفل المتوهج على أجسادهم؛ كلاهما أبيض وناعم البشرة؛ بحيث أنه مع تشابك أطرافهم بشكل غرامي، في فوضى حلوة، كان من الصعب التمييز بين من ينتمي إليه كل منهما، لولا العضلات الأقوى والأكثر جرأة للجنس الأقوى.

لكن سرعان ما تغلغل البطل في قلبها، وأحكم قبضته عليها تمامًا؛ فوداعًا لكل تلك الدقائق من التردد الماكر، ووداعًا للمراوغة الودية! أُجبرت على التخلي عن أي حيلة؛ وأي حيلة لا تستسلم حين تغزو الطبيعة، متجاوبة مع مهاجمها، قلب عاصمتها، وتكتسحها، لتصبح تحت رحمة الفاتح المغرور، الذي دخلها منتصرًا بكل معنى الكلمة؟ لكن سرعان ما أصبحت تابعة له: فمع اشتداد المعركة، وفي خضم المواجهة، أوصلته إلى مرحلة سداد دينه الباهظ للطبيعة. والتي لم تكد تجمعها حتى، مثل مبارز أسقط خصمه عند قدميه، عندما تلقى هو نفسه جرحًا مميتًا، لم يكن لدى إميلي وقت كافٍ لتتباهى بنصرها، ولكن، بعد أن أصيبت بنفس الطلقة، أعطت، في زفرة زفير عالية، وفي إغلاق عينيها، وتمدد أطرافها، وراحة جسدها بالكامل، علامات واضحة على أن كل شيء على ما يرام.

أما أنا، التي لم أقف في الماء طوال هذا الوقت بصبر وهدوء لأشاهد هذا الفعل الحميم، فقد اتكأت برفق على حبيبي، وفي نهايته، بدا وكأنني أسأله بعيني عما يفكر فيه؛ لكنه، الذي كان أكثر حرصًا على إرضائي بأفعاله من كلماته أو نظراته، بينما كنا ندفع الماء نحو الشاطئ، أظهر لي عصا الحب المنصوبة بشدة، لدرجة أنه لولا أن الإحسان، الذي بدأ من المنزل في هذه الحالة، حثني على مساعدتنا المتبادلة، لكان من القسوة حقًا أن أترك الشاب ينفجر من الإجهاد، في حين أن العلاج كان واضحًا جدًا وقريبًا جدًا.

وبناءً على ذلك، جلسنا على مقعد، بينما وقفت إميلي ورفيقتها، التي يبدو أنها تنتمي إلى البحر، عند المنضدة الجانبية، تشربان نخب رحلتنا الجيدة: لأنه، كما لاحظنا سابقاً، كنا أقل من الوزن المسموح به، مع رياح مواتية في القناة، ومحملين بالكامل؛ ولم نكن كذلك لفترة طويلة قبل أن ننهي رحلتنا إلى كيثيرا، ونفرغ حمولتنا في الميناء القديم؛ ولكن، بما أن الظروف لم تسمح بالكثير من التغيير، فسأوفر عليك الوصف.

في الوقت نفسه، اسمح لي أن أقدم لك هنا عذراً أشعر أنني مدين لك به، ربما لتأثري المفرط بالأسلوب المجازي؛ على الرغم من أنه بالتأكيد لا يمكن أن يمر في أي مكان أكثر جوازاً من موضوع هو مجال الشعر، بل هو الشعر نفسه، المليء بكل زهرة من الخيال والاستعارات المحبة، حتى لو لم تكن التعبيرات الطبيعية، من حيث الموضة والصوت، محظورة بالضرورة.

بالعودة الآن إلى تاريخي، قد يسرك أن تعلم أنه مع عدد كافٍ من التكرارات، وكلها على نفس المنوال (وبالمناسبة، لدينا شعور طبيعي بأن تلك التكرارات تروق لنا كثيراً)، ومع دائرة من المتع المتنوعة بدقة، لم تكن هناك لحظة ضائعة من الفرح طوال الوقت الذي قضيناه هناك، حتى وقت متأخر من الليل عندما رافقنا مرافقونا إلى المنزل، والذين أوصلونا سالمين إلى السيدة كول، مع شكر جزيل على صحبتنا.

كانت هذه أيضًا آخر مغامرة لإيميلي في طريقنا: فبعد أسبوع بالكاد، اكتشف والداها، اللذان كانا ميسورين الحال، أمرها بحادث تافه لا يستحق تفصيله، وكانا قد عوقبا على تحيزهما لابنهما بفقدانه، نتيجة إفراطهما في تدليله. ففاضت مشاعر الحنان التي كانت تغمرهما منذ زمن طويل، والتي كانت تتدفق بعنف لصالح هذه الطفلة الضائعة والمهجورة بشكل لا إنساني، والتي لو لم يهملا البحث عنها لكان من الممكن استعادتها منذ زمن. وقد غمرتهما فرحة عارمة باستعادتها، لدرجة أنني أفترض أن ذلك جعلهما أقل صرامة في التدقيق في حقيقة الأمر: فقد بدا عليهما السرور بقبول كل ما تفضلت به السيدة كول الرصينة والمحترمة، وأرسلا لها بعد ذلك بوقت قصير، من الريف، رسالة شكر كريمة.

لكن لم يكن من السهل تعويض مجتمعنا عن فقدان عضوة عزيزة كهذه: فإلى جانب جمالها، كانت من تلك الشخصيات الوديعة الرقيقة، التي حتى لو لم يُعجب بها المرء تمامًا، فإنه لا يسعه إلا أن يُحبها، وهذا ليس بتعويض سيئ. كانت جميع نقاط ضعفها نابعة من طيبتها، وكسلها الذي جعلها عرضة للانطباعات الأولى، لكنها كانت تتمتع بذكاء كافٍ لتدرك أنها بحاجة إلى من يقودها، وكانت تشعر بامتنان كبير لكل من يبذل الجهد للتفكير نيابة عنها وتوجيهها، حتى أنها مع قليل من التوجيه، كانت قادرة على أن تصبح زوجة رائعة، بل وفاضلة: فمن المحتمل أن الرذيلة لم تكن خيارها أو قدرها، لولا الظروف أو القدوة، أو لو لم تكن تعتمد على نفسها بقدر اعتمادها على ظروفها. وقد

أثبت سلوكها فيما بعد هذا الافتراض: فبعد أن التقت بشريك حياتها، الذي كان مناسباً لها تماماً، وهو ابن جار من طبقتها الاجتماعية، وشاب عاقل ومنضبط، تزوج من أرملة رجل فقد في البحر (إذ يبدو أن أحد فرسانها، الذي ذكرت اسمه صراحة، كان كذلك بالفعل)، انخرطت بشكل طبيعي في جميع واجبات حياتها المنزلية، بنفس القدر من بساطة المودة، وبنفس القدر من الثبات والانتظام، كما لو أنها لم تجِد قط عن حالة البراءة المطلقة منذ شبابها.

إلا أن هذه الهجرات قد أضعفت السيدة كول لدرجة أنها لم يبقَ معها سوى أنا، كدجاجة مع فرخ واحد؛ ولكن على الرغم من إلحاحي عليها وتشجيعي لها على تحسين محاصيلها، إلا أن أمراضها المتزايدة، وفوق كل ذلك، عذاب النقرس العنيد في الورك، الذي وجدت أنه لا يستجيب لأي علاج، دفعها إلى التخلي عن عملها، والتقاعد بمبلغ زهيد لائق إلى الريف، حيث وعدت نفسي، لا شيء أكثر يقينًا من ذهابي للعيش معها، بمجرد أن أرى المزيد من الحياة، وأحسن أموري الصغيرة إلى مستوى يكفيني لخلق استقلالي في العالم: لأنني الآن، بفضل السيدة كول، أصبحت حكيمًا بما يكفي لأضع هذا الأمر الأساسي نصب عيني.

وهكذا فقدتُ معلمتي الأمينة، كما فقد فلاسفة المدينة معلمتهم المخلصة. فإلى جانب ذلك، لم تستغل زبائنها قط، بل كانت تستشيرهم دائمًا بعناية، ولم تُرهق تلميذاتها بابتزازٍ فاحش، ولم تُخضع ما كسبنهنّ بشق الأنفس، كما كانت تسميه، لأي ضرائب. لقد كانت عدوًا لدودًا لاستغلال البراءة، واقتصرت ثروتها على الشابات التعيسات اللواتي فقدنها، فكُنّ أحق بالشفقة. ومن بينهنّ، كانت تنتقي من يوافقنها الرأي، وتأخذهنّ تحت حمايتها، وتنقذهنّ من براثن الخراب والبؤس، لتضعهنّ في مصلحتهنّ، سواء أكان ذلك خيرًا أم شرًا، كما رأيت. وبعد أن رتبت أمورها، انطلقت في رحلتها، بعد أن ودّعتني بأرقّ الوداع، وبعد أن ألقت عليّ بعضًا من أروع الدروس، أوصتني بنفسي بقلقٍ أموميٍّ بالغ. باختصار، لقد أثرت بي كثيراً لدرجة أنني لم أستطع التصالح مع نفسي بعد الآن لتركها تذهب بدوني على أي حال؛ ولكن يبدو أن القدر قد رتب لي أمراً مختلفاً.

بعد انفصالي عن السيدة كول، استأجرتُ منزلاً مريحاً وجميلاً في مارليبون، سهل التأجير والإدارة لصغر حجمه، وقد فرشته بأناقة وبساطة. هناك، ومعي مبلغ ٨٠٠ جنيه إسترليني، ثمرة التزامي بنصائح السيدة كول، باستثناء الملابس وبعض المجوهرات وبعض الأواني الفضية، كنتُ أحتفظ بالمال لفترة طويلة، أنتظر بصبر ما قد يحمله لي القدر.

هنا، تحت الشخصية الجديدة لسيدة شابة ذهب زوجها إلى البحر، رسمت لنفسي خطوطاً معينة للحياة والسلوك، بحيث تركت لي حرية كافية لمتابعة آرائي سواء بدافع المتعة أو الثروة، إلا أنها قيدتني مع ذلك بشكل صارم ضمن قواعد اللياقة والحكمة: وهو سلوك لا يمكنك فيه تجنب ملاحظة تلميذة حقيقية للسيدة كول.

لم أكن قد اعتدت على دفء مسكني الجديد إلا قليلاً، عندما خرجتُ صباح أحد الأيام الباكرة لأستمتع بنسمات الهواء العليل في مصب الحقول، برفقة خادمة استأجرتها حديثاً. وبينما كنا نسير بين الأشجار بلا مبالاة، فزعنا من صوت سعال عنيف. التفتنا نحوه، فرأينا رجلاً مسناً أنيق الملبس، أصيب بنوبة مفاجئة، فغلبته بشدة حتى اضطر للجلوس عند جذع شجرة، وبدا عليه الاختناق من شدة السعال، وقد اسود وجهه تماماً. تأثرتُ كثيراً، بل خفتُ منه، فهرعتُ إليه على الفور، مستخدماً ما تعلمته من قبل في موقف مشابه، ففككتُ ربطة عنقه وربتتُ على ظهره. لا أدري إن كان ذلك قد أفاده أم لا، أو إن كان السعال قد انتهى، لكن النوبة اختفت فوراً. ولما استعاد قدرته على الكلام والحركة، شكرني بحرارة وكأنني أنقذت حياته. وبطبيعة الحال، أدى ذلك إلى محادثة شيقة، فأخبرني بمكان إقامته، الذي كان على مسافة كبيرة من المكان الذي قابلته فيه، والذي تاه فيه دون أن يشعر وهو يحمل نفس نية المشي الصباحي.

لقد كان، كما علمت لاحقاً خلال العلاقة الحميمة التي نشأت عن هذا الحادث الصغير، رجلاً أعزباً مسناً، يبلغ من العمر ستين عاماً، ولكنه يتمتع ببشرة نضرة وحيوية، لدرجة أنه بالكاد يبدو في الخامسة والأربعين من عمره، إذ لم يرهق جسده أبداً بالسماح لرغباته بإرهاق قدراته.

أما عن مولده وظروفه، فقد تركه والداه، وهما ميكانيكيان نزيهان لكنهما لم ينجحا، يتيمًا رضيعًا في الرعية، وذلك بحسب أفضل ما استطاع الحصول عليه من معلومات عنهما. ومن مدرسة خيرية، شقّ طريقه، بفضل أمانته واجتهاده، إلى مكتب محاسبة تاجر، ومن هناك، أُرسل إلى منزل في قادس، حيث اكتسب، بفضل مواهبه ونشاطه، ثروة طائلة، عاد بها إلى وطنه. لكنه لم يستطع، مع ذلك، أن يجد أي قريب له وسط الغموض الذي نشأ فيه. ثم تذوق طعم الرقي، وسعد بالاستمتاع بالحياة، كعشيقة في الظلام، فعاش أيامه في رغد العيش، دون أدنى تفاخر. وبدلًا من التباهي بالثروة، كان يُفضّل إخفاءها، وينظر بازدراء إلى عالم يعرفه جيدًا، عالمٌ كان يتمنى أن يبقى مجهولًا وغير مُدرك له.

لكن، بما أنني أعتزم تخصيص رسالة كاملة لمتعة سرد جميع تفاصيل معرفتي بهذا الصديق الذي لا يُنسى بالنسبة لي، فسأتطرق في هذه الرسالة بشكل عابر إلى ما قد يكون بمثابة رابط يربط تاريخي، ويزيل دهشتك من أن أحد أبناء دمي وشغفي بالحياة، قد يعتبر رجلاً شجاعاً يبلغ من العمر ستين عاماً مثل هذا الصيد.

بالعودة إلى سرد أكثر وضوحًا، لشرح كيف تغيرت طبيعة معرفتنا، البريئة في البداية، تدريجيًا دون أن نشعر، وامتدت إلى ما هو أبعد من مجرد علاقة عاطفية بريئة، كما هو متوقع من شخص في وضعي، وقبل كل شيء، من ذلك المبدأ الكهربائي الذي نادرًا ما يفشل في إشعال شرارة الحب عندما يلتقي الجنسان. سأخبركم هنا فقط أن العمر لم يُخمد رقته تجاهنا، ولم يسلبه القدرة على الإرضاء، فكل ما افتقده من سحر الشباب، عوضه أو عوضه بمزايا الخبرة، ولطف أخلاقه، وقبل كل شيء، بلاغته في مخاطبة القلب، من خلال توظيفها للعقل. منه تعلمت لأول مرة، ولغرض ما، وبمتعة لا تُوصف، أن لديّ جزءًا مني يستحق الاهتمام. تلقيت منه أول تشجيع أساسي، وتعليمات حول كيفية وضعه في مسار التنمية هذا، الذي دفعته منذ ذلك الحين إلى درجة التحسن الطفيفة التي تراها؛ لقد كان هو من علمني أولاً أن أكون مدركًا أن ملذات العقل أسمى من ملذات الجسد؛ وفي الوقت نفسه، أنها أبعد ما تكون عن كونها بغيضة أو غير متوافقة مع بعضها البعض، بحيث أنه بالإضافة إلى الحلاوة في التنوع والتحول، فإن إحداها تعمل على الارتقاء بمذاق الأخرى وإكماله، إلى درجة لا يمكن للحواس وحدها أن تصل إليها أبدًا.

كان هو نفسه مستمتعاً عقلانياً؛ لكونه أكثر حكمة من أن يخجل من ملذات البشرية، أحبني بالفعل، لكنه أحبني بكرامة؛ بطريقة متساوية بعيدة عن المرارة والتهور اللذين يميزان الشيخوخة بشكل غير سار، وعن ذلك الخرف الطفولي السخيف الذي غالباً ما يشوهها، والذي اعتاد هو نفسه أن يحوله إلى سخرية، ويقارنه بعنزة عجوز تتظاهر بخفة جدي صغير.

باختصار، كل شيء غير مستحب عموماً في مرحلة حياته، تم إصلاحه فيه بالعديد من المزايا، لدرجة أنه كان دليلاً واضحاً لي على الأقل، على أنه ليس من المستحيل على الشيخوخة أن تُرضي، إذا سعت إلى ذلك، وإذا لم ينس أولئك الذين في تلك الفئة، مع مراعاة ذلك، أن ذلك سيكلفهم المزيد من الجهد والاهتمام، أكثر مما يحتاجه الشباب، ربيع الفرح الطبيعي: كما تتطلب الثمار خارج موسمها مهارة ورعاية أكبر نسبياً، لإجبارها على النضوج.

مع هذا الرجل، الذي أوصلني إلى منزله بعد فترة وجيزة من بدء معرفتنا، عشت قرابة ثمانية أشهر، وفي تلك الفترة، كسبت ثقته وحبه بفضل طاعتي الدائمة وولائي، واهتمامي به، وسلوكي الذي كان خالياً من أي تكلف ومبنياً على تقديري واحترامي الصادقين له، مما جعله يرتبط بي ارتباطاً وثيقاً، حتى أنه بعد أن وثق بي بسخاء وأعطاني مسكناً راقياً ومستقلاً، وأغدق عليّ علامات المودة، عيّنني، بموجب وصية موثقة، وريثته الوحيدة ومنفذة وصيته: وهو أمر لم يعشه أكثر من شهرين، إذ فارقني بسبب نزلة برد شديدة أصيب بها عندما ركض دون تفكير إلى النافذة، عند سماعه إنذار حريق في أحد الشوارع البعيدة، ووقف هناك عارياً الصدر، معرضاً لتأثيرات هواء الليل الرطب القاتلة.

بعد أن أديت واجبي تجاه المحسن الراحل، وقدمت له تحية من الحزن الصادق، الذي تحول بعد فترة وجيزة إلى ذكرى رقيقة وجميلة عنه، والتي سأحتفظ بها إلى الأبد، شعرت ببعض الراحة إزاء الاحتمال الذي انفتح أمامي الآن، إن لم يكن السعادة، فعلى الأقل الثراء والاستقلال.

رأيت نفسي حينها في أوج شبابي وفخري (لأنني لم أكن قد بلغت التاسعة عشرة بعد)، في الواقع على رأس ثروة طائلة، لدرجة أنه كان من الوقاحة بمكان أن أرفع من شأن رغباتي، فضلاً عن آمالي؛ وأن هذا الارتقاء غير المتوقع لم يغرني، إنما يعود الفضل فيه إلى الجهود التي بذلها المحسن في تكويني وإعدادي له، كما يعود الفضل في رأيه في إدارتي للممتلكات الضخمة التي تركها لي، إلى ما لاحظه من اقتصاد حكيم تعلمته على يد السيدة كول، والذي رأى أنني قد ادخرته، وكان ذلك بمثابة دليل وتشجيع له.

لكن يا للأسف! كم هو سهل أن يفسد الندم على الغائب متعة أعظم ملذات الحياة التي نمتلكها الآن! لكن ندمي كان عظيماً وعادلاً، لأنه كان موجهاً نحو حبيبي الوحيد تشارلز.

لقد تخليت عنه تمامًا، ولم أسمع عنه شيئًا منذ انفصالنا؛ وهو ما اكتشفت لاحقًا أنه كان سوء حظي، وليس إهماله، فقد كتب لي عدة رسائل لم تصلني أبدًا؛ لكنني لم أنسه أبدًا. ومن بين كل خياناتي الشخصية، لم تترك أي منها أثرًا يُذكر في قلبي الذي كان منيعًا على الحب الحقيقي، إلا هو.

ما إن أصبحتُ مالكةً لهذه الثروة غير المتوقعة، حتى شعرتُ أكثر من أي وقت مضى بمدى حبي له، رغم عجزها عن إسعادي، بينما هو محرومٌ منها. لذا، كان أول ما شغلني هو محاولة معرفة أي شيء عنه؛ لكن كل أبحاثي لم تُسفر عن أي جديد سوى أن والده قد توفي منذ مدة، ولم يكن على وفاق مع العالم؛ وأن تشارلز قد وصل إلى وجهته في جزر المحيط الهادئ الجنوبية، حيث وجد أن التركة التي أُرسل لاستعادتها قد تضاءلت إلى حدٍ ضئيل، بسبب غرق سفينتين كانتا تحملان معظم ثروة عمه، فعاد بالباقي الضئيل، وربما، وفقًا لأفضل النصائح، سيعود إلى إنجلترا في غضون بضعة أشهر، حيث كان غائبًا عنها، وقت استفساري هذا، لمدة عامين وسبعة أشهر. يا له من حبٍّ خالد!

لا يمكنك أن تتخيل مدى فرحتي بالأمل الذي أُعطي لي برؤية بهجة قلبي من جديد. ولكن، بما أن المدة كانت بضعة أشهر، ولتسلية نفسي وتخفيف لهربي لعودته بعد أن رتبت أموري بسهولة وأمان، انطلقت في رحلة إلى لانكشاير، بسيارة تناسب وضعي المادي، وبنية خالصة لزيارة مسقط رأسي، الذي لا يسعني إلا أن أحتفظ له بمشاعر حنين كبيرة؛ ولم يكن من الطبيعي أن أشعر بالأسف لرؤيتي هناك، لما فيه مصلحتي الآن، بعد أن نشرت إستر ديفيس خبر تهريبي إلى المستعمرات؛ إذ لا يوجد تفسير آخر لغيابي عنها منذ أن تركتني فجأة في النزل. وكان لديّ غرض آخر عزيز، وهو الاطمئنان على أقاربي، مع أنهم كانوا بعيدين، وأن أكون عونًا لهم. ثم إن وجود مكان تقاعد السيدة كول في طريقي لم يكن من بين أقل المتع التي كنت أخطط لها في هذه الرحلة الاستكشافية.

لم أصطحب معي أحداً سوى امرأة محترمة وحكيمة، لأعتبرها رفيقتي، إلى جانب خدمي؛ وبالكاد وصلت إلى نزل يبعد حوالي عشرين ميلاً عن لندن، حيث كنت سأتناول العشاء وأقضي الليل، عندما هبت عاصفة من الرياح والأمطار، مما جعلني أهنئ نفسي على لجوئي إلى مكان آمن قبل أن تبدأ.

استمر هذا الوضع لنصف ساعة كاملة، وبينما كنت أفكر في بعض التعليمات التي يجب أن أعطيها لسائق العربة، أرسلت في طلبه، غير آبهة بأن تتسخ حذائه غرفة الجلوس النظيفة التي كانت فيها قطعة القماش مفرودة، دخلت إلى مطبخ القاعة حيث كان، وهناك، بينما كنت أتحدث إليه، لمحتُ فارسين دفعهما الطقس إلى الداخل، وكلاهما مبتل تمامًا؛ أحدهما يسأل إن كان بإمكانهما تغيير ملابسهما ريثما تجف. يا إلهي! من يستطيع وصف ما شعرت به عند سماع صوتٍ كان دائمًا حاضرًا في قلبي، والذي ارتدّ إليّ الآن! أو عندما وجهت عيني نحو الشخص الذي صدر منه الصوت، أكد لي ما كان يقصده، على الرغم من غيابه الطويل، وعلى الرغم من لباسه الذي كان من الممكن أن يُدرس للتنكر: معطف فارس طويل، مع عباءة مطوية، وقبعته ترفرف... ولكن ما الذي يمكن أن يفلت من يقظة إحساس يقوده الحب حقًا؟ كان شعورٌ كهذا يفوق كل اعتبار، أو خطط للمفاجأة؛ وفي تلك اللحظة، وبسرعة المشاعر التي شعرت بها، اندفعت إلى أحضانه، وأنا أصرخ، بينما ألقيت

بذراعي حول عنقه: "حياتي! ... روحي! ... تشارلز خاصتي!.." وبدون مزيد من القدرة على الكلام، أغمي عليّ، تحت وطأة الفرح والمفاجأة.

بعد أن استعدت وعيي من سحري، وجدت نفسي بين ذراعي ساحر قلبي، ولكن في غرفة الجلوس، محاطة بحشد جمعه هذا الحدث حولنا، والذي قام على الفور، بناءً على إشارة من صاحبة المنزل الحكيمة، التي اعتبرته في تلك اللحظة زوجي، بإخلاء الغرفة، وتركنا وحدنا لنستمتع بنشوة هذا اللقاء؛ فرحتي التي كادت أن تثبت، على حساب حياتي، أنها أقوى من حزني على فراقنا المشؤوم.

كان أول ما وقعت عليه عيناي، حين فتحتهما، معبودهما الأسمى، وأمنيتي الأسمى، تشارلز، جاثيًا على ركبة واحدة، ممسكًا بيدي بقوة، ينظر إليّ بنظرة مليئة بالحنان. ولما رأى تعافيي، حاول أن يتكلم، وأن يُفرغ ما في جعبته من صبر لسماع صوتي مجددًا، ليُطمئن نفسه مرة أخرى أنني أنا من سمعته؛ لكن عظمة المفاجأة وسرعتها، اللتان ما زالتا تُذهلانه، خنقتا كلماته: "بعد كل هذا الوقت!... هذا الغياب القاسي!... فاني العزيزة!... هل يعقل؟... هل يعقل أن تكوني أنتِ؟..." ثم غمرني بقبلاتٍ أسكتت فمي، ومنعت على الفور الإجابة التي كان يتوق إليها، وزادت من تلك النشوة اللذيذة التي غمرت حواسي. لكن وسط هذا السيل من الأفكار، وكلها أفكارٌ بهيجة، لم يبرز سوى شكٍّ قاسٍ واحدٍ سمّم تقريبًا كلّ السعادة المُطلقة: وما هو إلا خوفي من أن تكون هذه السعادة مُفرطةً لدرجة يصعب تصديقها؟ ارتجفتُ الآن خوفًا من أن تكون مجرد حلم، ومن أن أستيقظ منه على رعب اكتشاف أنه كذلك. تحت وطأة هذا القلق المُحبّب، مُتخيّلةً أنني لا أستطيع التمسّك كثيرًا بهذه السعادة الغامرة قبل أن تتلاشى وتتركني في الصحراء مُجددًا، ولا أن أُؤكّد حقيقتها بشكلٍ قاطع، تشبّثتُ به، ضممتُه إليّ، كما لو كنتُ أمنعه من الهرب مني مُجددًا: "أين كنت؟... كيف... كيف تركتني؟... قل إنك ما زلت لي... أنك ما زلت تُحبّني... وهكذا! وهكذا!" (قبّلته كما لو كنتُ أُريد أن أُضمّ شفتيّ إلى شفتيه) "أنا أسامحك... سامح حظّي العاثر من أجل هذه العودة".

كل تلك الكلمات التي انطلقت مني، في تلك العفوية الجامحة التي تُعتبر بحق بلاغة في الحب، استجلبت منه كل ما يتمناه قلبي المُغرم. لم تكن لمساتنا، ولا أسئلتنا، ولا إجاباتنا، تخضع لأي نظام لفترة من الزمن؛ بل كانت تتقاطع أو تتداخل في فوضى عذبة، بينما تبادلنا النظرات، وجددنا تأكيدات حب لم يضعفه الزمن ولا البعد: لا نفس، ولا حركة، ولا إيماءة من أي منا، إلا وكلها تحمل بصمة الحب. تشابكت أيدينا، وكررت أشدّ العناقات شغفًا، حتى عادت رجفة نارها إلى القلب من جديد.

وهكذا، كنتُ غارقاً في هذه المتعة التي لا توصف، ولم أنتبه إلى أن مؤلفها اللطيف كان مبتلاً تماماً، ومعرضاً لخطر الإصابة بنزلة برد؛ عندما قاطعتنا صاحبة المنزل في الوقت المناسب، والتي أثار مظهر أمتعتي (والتي لم يكن تشارلز يعلم عنها شيئاً بالمناسبة) اهتمامي بها، بإحضارها طقم ملابس لائق؛ والآن، وقد هدأت قليلاً بدخول شخص ثالث، ضغطت عليه ليأخذه، بقلق واهتمام بالغين جعلاني أرتجف على صحته.

وبينما كانت صاحبة المنزل تغادرنا مرة أخرى، شرع في تغيير ملابسه؛ وفي هذه اللحظة، على الرغم من أنه تصرف بكل ذلك الحياء الذي يليق بهذه اللحظات الأولى من لقائنا بعد غياب طويل، لم أستطع كبح جماح بعض النظرات الخاطفة، التي أغرتها الاكتشافات المبهرة لبشرته العارية، والتي أفلتت منه وهو يغير ملاءاته، والتي لم أستطع ملاحظة الحياة والبشرة التي لم تذبل دون مشاعر من الحنان والفرح، والتي كانت نقية للغاية بالنسبة لها، بحيث لا تشارك في رغبة عابرة أو في غير وقتها.

سرعان ما ارتدى تلك الملابس المؤقتة، التي لم تكن تناسبه، ولم تلقَ رونقًا يليق به كما رسمته له مشاعري، على الأقل في نظري؛ ومع ذلك، بدت عليه في غاية الجمال، بفضل ذلك السحر الذي يضفيه الحب على كل ما يلمسه أو يرتبط به: فأين يا ترى تلك الملابس التي لا تليق بجسده؟ الآن، وأنا أتأمله بتفصيل أكبر، لم يسعني إلا أن ألاحظ التغيير الإيجابي الذي أحدثه غيابه في شخصيته.

لا تزال ملامحه المعهودة باقية، ولا يزال وجهه بنفس اللون القرمزي الزاهي والنضارة؛ لكن الآن أصبحت الورود أكثر نضجًا؛ فقد أضفت سمرة أسفاره ولحيته الأكثر وضوحًا، دون أن يفقدها

شيئًا من رقة مظهره، هالة من الرجولة والنضج، تتناغم بجمال مع هالة التميز والعظمة التي طبعتها الطبيعة عليه، في مزيج نادر مع حلاوتها؛ ولم يفقد شيئًا من نعومة جسده الممتلئة، المتوهجة بنضارة، والتي تبدو زاهية للعين، وشهية الملمس؛ حينها أصبحت كتفاه أكثر استدارة، وقوامه أكثر تناسقًا، وأكثر امتلاءً، لكنه لا يزال رشيقًا وخفيفًا. باختصار، بدا جسده أكثر نضجًا وعظمة وكمالًا للعين الخبيرة، مما كان عليه في شبابه؛ والآن لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.

في تلك اللحظة، استنتجتُ من سرده المتقطع، الذي كان يُرضي فضولي أحيانًا، أنه كان في طريقه إلى لندن، في وضع ليس بالهين، بعد أن تحطمت سفينته على الساحل الأيرلندي الذي كان قد أبحر إليه قبل الأوان، وفَقد كل ما جلبه معه من البحار الجنوبية. لم يقطع هذه المسافة إلا بعد مشاقٍ ومتاعب جمة، برفقة رفيقه في السفر، القبطان. بعد أن سمع بوفاة والده وظروفها، أصبح أمامه الآن فرصةٌ جديدة ليبدأ بها من الصفر. أكد لي بصدقٍ أن هذا الصدق ينبع من قلبه، ويؤثر فيّ بشدة، ويؤلمه أكثر من مجرد عجزه عن إسعادي كما يتمنى. أما حظي، كما ستلاحظ، فلم أُبادر إلى مفاجأته به، بل احتفظتُ بهذه المفاجأة لوقتٍ أكثر هدوءًا. أما بالنسبة لملابسي، فلم يكن بإمكانها أن تعطيه أي فكرة عن الحقيقة، ليس فقط لأنها كانت ملابس حداد، بل أيضاً لأنها كانت بسيطة وأنيقة، وهو أسلوب لطالما التزمت به بذوق رفيع. لقد ضغط عليّ بلطف لإشباع فضوله الشديد، سواءً فيما يتعلق بماضيّ أو حاضري، منذ أن فارقني، لكنني وجدتُ طرقاً للتهرب من أسئلته، بإجاباتٍ أظهرت رضاه على الفور، مما جعله يتخلى عن نفاد صبره، لثقته التامة في أنني لن أؤخر الإجابة، بل احتراماً مني سأُعرّفه بها في الوقت المناسب.

لكن عودة تشارلز إلى أحضاني المتشوقة، حنونًا ومخلصًا وبصحة جيدة، كانت نعمة عظيمة تفوق تصوري: لكن تشارلز في محنة! ... كان تشارلز وقد انهار، ولم يتبق منه سوى فضله الشخصي، ظرفًا يفوق كل توقعاتي، في صالح مشاعري تجاهه؛ ولذلك بدوت مفتونة به بشكل واضح، مسرورة للغاية، لدرجة أنني لم أستطع تفسير ذلك إلا بأن فرحة رؤيته مرة أخرى قد طغت على كل شعور آخر بالقلق.

في هذه الأثناء، تولت زوجتي كل رعاية ممكنة لرفيق سفر تشارلز؛ وعندما حان وقت العشاء، تم تقديمه لي، فاستقبلته كما يليق باحترامي لجميع معارف تشارلز وأصدقائه.

ثم تناولنا العشاء معًا نحن الأربعة، في جوٍ من الفرح والتهنئة والفوضى المبهجة التي قد تتخيلها. أما أنا، فرغم أن كل هذه الفوضى لم تترك لي أدنى شهية، إلا أنني حاولت جاهدًا أن أتناول الطعام، متلهفًا لتلك الوليمة الشهية، ولرؤية حبيبي، لأكون قدوةً له، الذي ظننت أنه سيحتاج إلى مثل هذا الرفيق بعد ركوب الخيل؛ وبالفعل، أكل كالمسافر، لكنه كان ينظر إليّ ويخاطبني طوال الوقت كعاشق.

بعد إزالة الغطاء، وحلول ساعة الراحة، تم اصطحابي أنا وتشارلز، دون مزيد من المراسم، بصفتنا زوجًا وزوجة، إلى غرفة أنيقة للغاية، وبالطبع، السرير، كما قالوا، هو الأفضل في النزل.

وهنا، يا كرامة، سامحيني! إذا انتهكت قوانينك مرة أخرى، وأبقيت الستائر مفتوحة، أضحي بكِ للمرة الأخيرة من أجل تلك الثقة، دون تحفظ، التي تعهدت بها أن أروي لكِ أبرز ظروف اضطرابات شبابي.

ما إن دخلنا الغرفة معًا، وقد تُركنا وحدنا، حتى أضاء مشهد السرير، الذي كان يُحيي ذكرى أفراحنا الأولى، وفكرة مشاركتي إياها فورًا مع من يملك قلبي العذري، أثّرت بي بشدة، حتى أنني كنتُ مُحقة في اتكائي عليه، وإلا لكنتُ أُغمي عليّ مرة أخرى من شدة الفزع الحلو. لاحظ تشارلز ارتباكي، ونسي ارتباكه، الذي لم يكن أقلّ منه، وانصرف إلى إزالة ارتباكي.

لكن الآن، استعاد الشغف الحقيقي المُهذِّب سيطرته الكاملة عليّ، بكل أعراضه: حساسية رقيقة، وخجلٌ رقيق، وشوقٌ مُتألمٌ ممزوجٌ بالحياء والحياء، كل ذلك أخضعني لخضوع روحي، وهو أعزّ عليّ بكثير من حرية القلب التي كنتُ سيدةً لها لفترة طويلة، طويلة جدًا! خلال تلك المغامرات الفاضحة، والتي جعلني إدراكها الآن أتنهد بخجلٍ وندمٍ فاضلين. باختصار، لا عذراء حقيقية، أمام

فراش الزواج، تستطيع أن تُخجل البراءة النقية أكثر مما أخجلتُ أنا بشعور الذنب؛ وبالفعل، أحببتُ تشارلز بصدقٍ شديدٍ لدرجة أنني شعرتُ بشدة أنني لا أستحقه.

وبينما كنت أتردد وأشعر بالارتباك تحت وطأة هذا التشتيت اللطيف، قام تشارلز، بنفاد صبر حنون، ببذل الجهد لخلع ملابسي؛ وكل ما أتذكره وسط اضطراب حواسي واضطرابها، هو بعض صيحات الفرح والإعجاب المتملقة، وخاصة عند ملامسة ثديي، اللذين تحررا الآن من مشدي، واللذين كانا يلهثان ويرتفعان في نبضات مضطربة، وينتفخان عند لمسته الرقيقة، ويمنحانه متعة مرحب بها تتمثل في العثور عليهما مكتملي التكوين، وثابتين في صلابتهما.

سرعان ما استلقيت في الفراش، ولم أتردد لحظة واحدة في انتظار شريكي الحبيب، حتى خلع ملابسه ودخل بين الأغطية، وضم ذراعيه حولي، يتبادل معي قبلة ترحيبية بحماس لا يوصف، طبعت على شفتي قلبي بأدفأ انطباعاته، مما زاد من سعادتي، بتلك المشاعر الرقيقة والشهوانية التي كان تشارلز وحده يملك سر إثارتها، والتي تشكل جوهر الحياة، ومعنى المتعة.

وفي هذه الأثناء، أضاءت شمعتان على طاولة جانبية بالقرب منا، وألقت نار خشبية بهيجة ضوءًا على السرير، مما أخذ من أحد المعاني، وهو أمر بالغ الأهمية لأفراحنا، كل ذريعة للشكوى من حرمانه من نصيبه منها؛ وفي الواقع، كان مشهد شبابي المحبوب وحده، من شدة رغبتي فيه، دون أي ظرف آخر، متعة للموت.

لكن بما أن الفعل أصبح ضرورة لرغباتٍ متأججة كرغباتنا، قام تشارلز، بعد مداعبةٍ تمهيديةٍ قصيرة، برفع ملابسي وملابسه، ووضع كنوز صدره الرجولي العريض قرب صدري، وكلاهما ينبض بأرقّ النبضات: حينها، سيطر إحساسي بجسده المتوهج، الملامس لجسدي عارياً، على أفكاري، وأسلم كل ملكةٍ من ملكات روحي لأروع المتع الحسية، تلك التي أثرت بي بشكلٍ لا يُضاهى بسبب كوني شخصاً، أكثر من كوني أنثى، فأشعلت قلبي في حالةٍ من النشوة: قلبي، الذي كان وفياً لتشارلز إلى الأبد، لم يشارك قط في تضحياتي السابقة استجابةً لنداءات الطبيعة، أو الرضا، أو المصلحة. ولكن آه! ماذا حل بي، عندما اشتدت عليّ قوى المتعة الصلبة، ولم أستطع إلا أن أشعر بالوتد الصلب الذي كان مزيناً بجوائز عذريتي المسلوبة، وهو يضغط بقوة وثبات على أحد فخذي، الذي لم أكن قد فتحته بعد، انطلاقاً من مبدأ حقيقي للحياء، أحياه شغف صادق للغاية بحيث لا يسمح بأي سعي وراء الجدارة الزائفة للصعوبة، أو تظاهري بالخجل الوقح.

أظن أنني ذكرتُ سابقاً أن ملمس ذلك العضو الذكري العزيز يحمل في طياته شيئاً من الرقة والعاطفة. لا شيء أعزّ عليه ملمساً، ولا شيء يُثير فيه إحساساً أشدّ نشوة. تخيّل إذن، كما يتخيّل العاشق، ما هو النشوة التي تغمر تلك الحواس، أسرع حواسنا، في مركزها أيضاً! عندما تشعر، بعد حرمان طويل، بتجدد شغفها تحت وطأة ذلك العضو المميز، الذي يُسيطر علينا جميعاً، وخاصةً حبيبي، المُختار من بين كل ما على وجه الأرض. والآن، في أوج قوتها، شعرتُ بشيءٍ مُهيمنٍ وفعّالٍ وصلبٍ ومُمتعٍ للغاية، لدرجة أنني لا أعرف كيف أُطلق على هذا الشعور الفريد: لكنّ إحساسي بانتمائها إلى شبابي الحبيب، أثار فيّ رغبةً عارمةً، وأثّر في روحي بشدّة، حتى أنها أرسلت كلّ حواسي إلى ذلك العضو المُخصّص للنعيم في داخلي، المُكرّس لاستقباله. هناك، مُركّزةً في نقطةٍ واحدة، كأشعةٍ في مرآةٍ مُشتعلة، توهجت، واحترقت بأقصى حرارة؛ باختصار، كانت ينابيع اللذة مُلتويةً إلى درجةٍ عاليةٍ للغاية، لدرجة أنني كنتُ ألهث الآن بشهيةٍ مُرهفةٍ للغاية للمتعة العظيمة، حتى أنني كنتُ مريضًا من الرغبة، وغير قادرٍ على استيعاب الجمع بين فكرتين مُختلفتين، شغلتاني بشكلٍ مُبهج: فكلّ ما كنتُ قادرًا على التفكير فيه، هو أنني كنتُ الآن على اتصالٍ، في آنٍ واحد، بأداة اللذة، وختم الحب العظيم. أفكارٌ امتزجت كتيارات، فسكبت محيطاً من النعيم المسكر على وعاء ضعيف، ضيق للغاية بحيث لا يستطيع احتواءه، حتى أنني غرقت، وانغمست، وضاعت في هاوية من الفرح، ومتُّ من شدة البهجة.

ثم أيقظني تشارلز قليلاً من نشوتي العارمة، متذمراً بصوت خافت وسط وابلٍ من القبلات، من الوضع الذي لم يكن مواتياً لرغباته، والذي تلقيت فيه إصراره الملحّ على الدخول، حيث كان ذلك الإصرار وحده متعةً آسرةً لدرجة أنه جعلني أتحمل، على نحوٍ متناقض، حرماناً من متعةٍ أعزّ

بكثير؛ ولكن ما أحلى تصحيح هذا الخطأ! فخذاي، اللتان أصبحتا الآن مطيعتين لإشارات الحب والطبيعة، تكشفان بسرور، وبخضوع تام، تفتحان البوابة الناعمة لدخول المتعة: أرى، أشعر بطرفه المخملي اللذيذ! ... يدخلني بكل قوته، مع ... آه! يسقط قلمي من هنا في النشوة التي أصبحت الآن حاضرةً في ذاكرتي الوفية! إن الوصف أيضاً يتخلى عني، ويسلم مهمة تفوق قدرته إلى الخيال: ولكن يجب أن يكون خيالاً سامياً مثلي هو الذي يستطيع أن ينصف تلك الأحاسيس الأكثر حلاوة ونبلاً، التي استقبلت ورافقت الإيحاء الجامد طوال الطريق، حتى وصل إلى نهاية اختراقه، مرسلاً، من خلال عيني، شرارات نار الحب التي سرت في جميع أنحاء جسدي واشتعلت في كل عرق وكل مسام من مساماتي؛ نظام متجسد من الفرح في كل مكان.

لقد استوعبت الآن تماماً سهم الحب الحقيقي من رأسه إلى ريشته، في ذلك الجزء، حيث لم تُحدث الشفاه أو الشفتان الأصليتان للطبيعة، اللتان كانتا مدينتين بأول أنفاسهما لهذه الأداة العزيزة، جرحاً جديداً، بل تشبثتا به كما لو كانتا تشعران بالامتنان، في شفط متلهف حوله، بينما احتضنته كل أحشائه برقة، بدفء عاصفة، وطاقة ضاغطة، أعطته، بطريقته الخاصة، أحرّ ترحيب في الطبيعة؛ كل ليف هناك يتجمع بإحكام حوله، ويسعى بطموح للحصول على نصيبه من اللمسة السعيدة.

بينما كنا نمنحهم لحظات من التأمل في ملذات الحواس، مستمتعين بأقصى درجات النشوة في هذه اللحظة الحميمة من اللقاء، ومتلذذين بمتعة اللحظة، سرعان ما دفعنا نفاد الصبر الطبيعي للذة إلى الحركة. ثم بدأ الصخب الجامح من جانبه، والهذيان المتجاوب من جانبي، مما أبقاني قريبة منه؛ وبينما كانت أفراحنا تكبر عن أن تُنطق، أصبحت أعضاء أصواتنا، وهي تمتزج بشهوة، أعضاء للمس... يا له من لذة!... يا له من لذة مؤثرة!... والآن! الآن شعرت، في أعماق قلبي! شعرت بالحدة الهائلة، التي يشير بها الحب، وهو يُهيمن على هذا الفعل، إلى المتعة: الحب! الذي يمكن تسميته ملح المتعة الأتيكي؛ وبالفعل، بدونه، تظل المتعة، مهما عظمت، متعة مبتذلة، سواء في ملك أو متسول؛ لأنه بلا شك، الحب وحده هو الذي يهذبها ويرفع من شأنها ويعززها.

وهكذا، سعيدًا من القلب، سعيدًا من الحواس، كان من المستحيل، حتى على الفكر، أن أتصور متعة أكبر مما أستمتع به الآن.

تشارلز، الذي كان جسده كله يرتجف من شدة نشوته، بينما كانت أرق النيران ترتجف في عينيه، كل ذلك أكد لي انسجامًا تامًا من الفرح، لقد اخترقني بعمق شديد، ولمسني بقوة حيوية، وأخذني بعيدًا عن سيطرتي، بينما بدا هو نفسه ملكًا لي، لدرجة أنني في حماس لذيذ، تخيلت مثل هذا التبادل للقلب والروح، مثل ذلك الاندماج، وتكوين جسد وروح واحد معه، كنت هو، وكان هو أنا.

لكن كل هذه المتعة، التي كانت تتجه، كالحياة منذ لحظاتها الأولى، نحو زوالها، عاشت بسرعة كبيرة بحيث لم تستطع إلا أن تجلب معها لحظة فنائها اللذيذة؛ فسرعان ما كشف اقتراب العذاب الرقيق عن نفسه بإشاراته المعتادة، والتي أعقبها سريعًا اندفاع حبيبي العزيز، الذي دار وانطلق، بكل إحساس! عبر تيار الهواء المنهك: حيث فتحت الإثارة اللطيفة المهدئة كل عصائر الفرح في جانبي، والتي ساعدت بتدفقها النشوي على تهدئة التوهج الشهواني، وأغرقت متعتنا لبعض الوقت. ولكن سرعان ما عدنا إلى حالة الطفو مرة أخرى! لأن تشارلز، وفيًا لقوانين الطبيعة، في نفس واحد، زفر وقذف، لم يذبل طويلًا في غيبوبة الزوال، لكنه سرعان ما استعاد روحه، وجعلني أشعر بأن القوة الحقيقية قد عادت! كانت أدواته للمتعة، بفعل الحب، وربما بسبب إجازة طويلة، مشدودة للغاية بحيث لا يمكن تفريغها بانفجار واحد: ظلت صلابته صديقي. ثم استأنفنا الفعل من جديد، دون أن يزعزعني أو يسبب لي عناء الفراق عن مستأجري الحبيب، وعزفنا الأوبرا نفسها مرة أخرى، بنفس الانسجام والتناغم: لم تعرف عواطفنا، مثل حبنا، أي هدوء؛ وكل المد يخدم حبيبي، الممتلئ بمخزونه، والمستنزف من المتعة، أغرقني مرة أخرى من امتلاء خزاناته البيضاوية من المستحلب اللطيف: بينما، من جانبي، جعلتني قبضة متشنجة، في لحظة قذفي للسائل، خاضعة بشكل حلو على الفور لزيادة الفرح، ولتدفقاته: محركة لي بحيث تجعلني أبذل كل تلك الينابيع من الشفط الضاغط، التي تسحب بها الآلية الحساسة لذلك الجزء حلمة الحب وتستنزفها بعطش؛ وبمثل هذا الشوق والتعلق

الغريزي، لدرجة مقارنة الكبير بالقليل، فإن الطبيعة اللطيفة تجذب الرضع إلى الثدي، من خلال المتعة التي يجدونها في حركة أفواههم وخدودهم الصغيرة، لاستخراج تيار الحليب المُعدّ لتغذيتهم.

لكن مع ذلك، لم يكن لنشاطه حد: لم يُخمد هذا التفريغ المزدوج رغباته، في ذلك الوقت، بل لم يُهدئها حتى؛ وفي سنه، الرغبات قوة. كان يمضي قدمًا، بشكل مذهل، نحو انتصار ثالث، دون أن يُفصح عن مشاعره، لولا أن رقةً، متأصلة في الحب الحقيقي، ألهمتني بتضحية كافية لأُخفف عنه، ولا أُرهقه: وبناءً على ذلك، توسلت إليه أن يُريحني ويُريح نفسه، فحصلت أخيرًا على وقفة قصيرة، ولكن ليس قبل أن يُقنعني بفرح أنه استسلم.

أما بقية الليل، فقد استثمرناها بما اقترضناه في ذلك اليوم، بحماس لا يكل في الاحتفال بذكرى لقائنا؛ واستيقظنا متأخرين في الصباح، مبتهجين ونشيطين ومتيقظين، على الرغم من أن الراحة كانت غريبة علينا: لكن متعة الحب كانت بالنسبة لنا، مثل فرحة النصر بالنسبة للجيش: راحة، وانتعاش، وكل شيء.

وبما أن الرحلة إلى الريف أصبحت الآن مستحيلة تماماً، وبعد صدور الأوامر ليلاً بتوجيه الخيول نحو لندن، غادرنا النزل بمجرد تناولنا الإفطار، ولم يخلُ الأمر من توزيع سخي لرموز امتناني للسعادة التي وجدتها فيه.

كنت أنا وتشارلز في عربتي؛ وكان القبطان ورفيقي في عربة استأجرت خصيصاً لهما، لتتيح لنا فرصة الجلوس *معاً*.

هنا، على الطريق، وبينما كانت ضجة حواسي هادئة إلى حد معقول، كان لدي ما يكفي من العقل لأشرح له مسار الحياة الذي دفعتني إليه عواقب انفصالي عنه: وهو الأمر الذي، في الوقت الذي أعرب فيه عن أسفه لي برقة، كان أقل صدمة منه؛ لأنه، عند التفكير في الظروف التي تركني فيها، لم يكن من الممكن أن يكون غير مستعد تمامًا لذلك.

لكن عندما كشفت له عن ثروتي، وبكل صدقٍ كان متأصلًا فيّ، توسلت إليه أن يقبلها بشروطه. قد أبدو لكِ متحيزةً لعاطفتي لو حاولتُ أن أنصفَ مشاعره الرقيقة، لذا سأكتفي بتأكيدي لكِ أنه بعد رفضه القاطع للهبة غير المشروطة التي طالما طاردته عبثًا ليقبلها، وافقتُ أخيرًا، امتثالًا لأوامره الجادة (إذ بقيتُ صامتةً حتى مارس عليّ سلطته المطلقة التي منحه إياها الحب)، على التنازل عن اعتراضي الشديد الذي لم أتردد في توجيهه إليه، على إذلاله لنفسه، وتحمّله وصمة العار، مهما كانت ظالمة، بأنه باع شرفه مقابل العار والبغاء، بجعل امرأةٍ تظن نفسها أكثر شرفًا من أن تكون مجرد عشيقة له.

لقد تغلب رجاء الحب على كل الاعتراضات، بالنسبة له، والذي لم يكن بوسعه إلا أن يقرأ صدقه في قلب مفتوح له دائماً، مما أجبرني على قبول يده، وبهذه الطريقة تمكنت، من بين بركات لا تعد ولا تحصى، من منح النسب القانوني لهؤلاء الأطفال الرائعين الذين رأيتهم من خلال هذه الزيجة السعيدة.

وهكذا، في نهاية المطاف، استقررتُ في الميناء، حيث جمعتُ، في أحضان الفضيلة، أطيبَ المتع غير الملوثة: حيثُ، وأنا أنظر إلى الوراء إلى مسار الرذيلة الذي سلكته، وأقارن إغراءاتها المشينة بمتع البراءة التي تفوقها بمراحل، لم يسعني إلا أن أشفق، حتى من ناحية الذوق، على أولئك الذين، غارقين في الشهوات الفاضحة، غافلين عن سحر الفضيلة الرقيق، الذي لا يوجد له صديقٌ أعظم من المتعة، ولا عدوٌ أشدّ من الرذيلة. وهكذا، فإن الاعتدال يجعل الإنسان سيدًا على تلك الملذات التي يستعبده لها الإفراط: الأول، منبع الصحة والحيوية والخصوبة والبهجة، وكل خيرٍ مرغوبٍ فيه في الحياة؛ والآخر، منبع الأمراض والضعف والعقم وكراهية الذات، مع كل شرٍّ يصاحب الطبيعة البشرية.

ربما تضحكون على هذه الخاتمة الأخلاقية، التي انتزعتها مني قوة الحقيقة، نتيجة لتجارب مقارنة: لا شك أنكم ترونها غريبة عن شخصيتي؛ وربما تنظرون إليها أيضاً على أنها حيلة رخيصة لشخص يسعى لإخفاء متعبد للرذيلة تحت ستار من القماش، تم تهريبه بوقاحة من محراب الفضيلة: تماماً كما لو أن المرء يتخيل نفسه متنكراً تماماً في حفلة تنكرية، دون تغيير في ملابسه سوى تحويل

حذائه إلى نعال؛ أو كما لو أن كاتباً يفكر في حماية افتراء خائن، من خلال اختتامه بدعاء رسمي للملك. لكن، بغض النظر عن ظني بأنك تُقدّر عقلي وإخلاصي حق قدرك، اسمح لي أن أوضح لك أن هذا الافتراض أشدّ ضررًا بالفضيلة منه بي: إذ لا أساس له، بما يتوافق مع الصراحة وحسن النية، إلا في أوهامٍ زائفة، وهي أن ملذاتها لا تُضاهي ملذات الرذيلة؛ ولكن دع الحقيقة تُظهرها في أبهى صورها: حينها ستلاحظ كم هي زائفة، وكم هي دنيئة، وكم هي أدنى بكثير من تلك التي تُقرّها الفضيلة، والتي لا تتورع مشاعرها عن أن تكون مجرد لذة عابرة، بل لذة لا تُقاوم؛ بينما الرذائل هي الوحوش التي تُفسد وتُفسد الوليمة. دروب الرذيلة تُفرش أحيانًا بالورود، لكنها تبقى مشوّهةً للأبد بسبب كثرة الأشواك والآفات؛ أما دروب الفضيلة فتُفرش بالورود الخالصة، تلك الورود التي لا تذبل أبدًا.

إذا أنصفتموني، فستقدرونني على ثباتي التام في تبخيري للفضيلة. وإن كنت قد صورت الرذيلة بأبهى صورها، وإن كنت قد زينتها بالورود، فذلك فقط لأجعلها أسمى وأجلّ قربان للفضيلة.

أنت تعرف السيد سي*** أو***، وتعرف ثروته وقيمته وحكمته: هل يمكنك، هل ستعتبره سيئ النية، على الأقل منه، عندما كان حريصًا على أخلاق ابنه، بهدف تنشئته على الفضيلة، وغرس ازدراء راسخ وعقلاني للرذيلة، فتنازل ليكون سيد مراسمه، واصطحبه بيده عبر أشهر بيوت الدعارة في المدينة، حيث حرص على أن يتعرف على كل تلك المشاهد الماجنة، التي تُثير الاشمئزاز في النفس؟ ستقول إن التجربة خطيرة. صحيح، على أحمق: ولكن هل يستحق الحمقى كل هذا الاهتمام؟

سأراك قريباً، وفي هذه الأثناء فكّر بي بصراحة، وصدّقني دائماً.

سيدتي،
مع خالص تحياتي، إلخ، إلخ، إلخ
. XXX

النهاية